رواية

غور فيدال

المدينة والعمود

ترجمة: أسامة منزلجي

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

المدينة والعمود

اسـم المـؤلـف : غور فيدال
عنوان الكتـاب : المدينة والعمود
المتـــــرجم : أسامة منزلجي
النـاشـــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : سـنة ٢٠٠٥

الحقوق العربية محفوظة

Author :Gore Vidal
Title :The City and The Pillar
Translator: Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2005

Arabic Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - **جانب فندق السفير**

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

غـورفيـدال

المدينـة والعـمود

ترجمة: أسامـة منزلجي

مقدمة

غالباً ما يكونُ لسيَر حياة الآخرين معنى أكثر من السيرة الشخصيّة ليس فقط لأننا نعرفُ أقلّ عن أصحاب السيَر، بل لأنَّ الكُتَّابَ المُنهمكين في تأليفها يُغالون في تنقية قصصهم وتنظيمها بحيث أنه غالباً ما ينتابنا إحساسٌ - أعتقدُ أنه رحبٌ وشاملٌ - بأننا نفهمُ طبيعة بحثها عن معرفة الذات الحقيقية، أو عن الوعي الكونيّ، أو فقط عن الإنسان العاديّ النموذجي، بالإضافة إلى أنه يطرأ على بطل السيرة في مرحلةٍ ما تحوُّلٌ (وأنا هنا أستعيرُ من كتاب أ. ج كوكشوت " فن كتابة السيرة الذاتية "، الذي يُمتُّ بصلة القرابة إلى كتابة السيرة)

لقد استُغلت كثيراً حادثة سرقة القديس أوغسطين - ولم يُقصِّر القديس نفسه في ذلك - وأكله بعض ثمار الإجاص من بستانٍ في ميلانو. ولعلَّه لم يعُد أبداً إلى المُتاجرة، وحتماً ليس إلى أكل، بضاعةٍ مسروقةٍ. حالما تجاوزَ أمر جريمة عهد الصبا تلك (زمجَرَ القاضي الأميركي غير المتعاطف أوليفر ويندال هولمز[1] قائلاً " إنه عملٌ غريب ")، أصبح قديساً. والحقيقة هي أننا جميعاً قمنا بسرقة الإجاص؛ أما اللغز فهو لماذا لا تتقدَّسُ إلاّ القلّةُ النادرةُ منا. أعتقدُ أنه في بعض السيَر المُشينة هناك أحياناً لحظة اختيارٍ عابرة. هل أتزوج أم أحترق؟ هل أسرق أم

أعطي إلى الآخرين؟ هل أُغلق البابَ في وجه حياةٍ مرغوبةٍ وأفتحُ آخرَ، عمداً، يؤدي إلى المشاكل والألم لأنَّ ... وكلمة " لأنَّ " هذه هي القصة الحقيقية التي نادراً ما تُحكى.

على امتدادِ عقدٍ من الزمن كنتُ موضوعَ سيرةٍ بُتُّ الآن مُقتنعاً بأنها لن تُكتَب أبداً. عموماً، ليس هذا بالأمر السيئ، ولكنَّ كونَ شخصٍ آخر حاولَ أن يُضفي معنى على حياتي أثارَ فضولي حول سبب قيامي - وعدم قيامي - بأمورٍ كثيرة. وبالنتيجة، أنا الآن أكتب ما قلتُ أني لن أدوِّنه أبداً، أي مذكرات (كنتُ أقولُ بتعالٍ بارد " إنني لست موضوعَ ما أكتب ") : وها أنا الآن أمخرُ عهدَ شبابي بلا هُدى في حين كان كل ما له أهمية يحدثُ لي، عاجلاً وليس آجلاً وأنا أُغذّى قسراً، إنْ صحَّ التعبير، من سن السابعة عشر إلى العشرين بثلاث سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية.

قال لي والدي ذات يوم، بعد أن استعرضَ الفترة غير السارّة التي أمضاها في وزارة الداخلية، أنه كان كلما توجَّبَ عليه أن يتَّخذ قراراً حاسماً، يتَّخذُ دائماً قراراً خاطئاً. فقلتُ له إنه ينبغي أن يفعل كما فعلَ تشرشل ويكتبُ قصة حياته، مُستعرِضاً الانتصارات الشهيرة التي حقَّقها في غاليبولي أو في " بطن التنين " للرايخ الثالث. لكنَّ أبي لم يكن كاتباً ولا سياسياً؛ إلى جانب أنه نشأ على قول الصدق. أما أنا، من ناحية أخرى، فتربَّيتُ على يد جَدٍ سياسيٍّ يعملُ في واشنطن د. س وكانت بي رغبةٌ قويةٌ في أن أصبحَ بدوري سياسياً. ولم يكن لدي خيار في هذا الأمر. لقد قُدِّرَ لي أن يكونَ الإجاص هو حميتي، سواء أكان مسروقاً أم زراعةً بيتيّة. كنتُ دائماً أركّبُ جُمَلاً لأصفَ بها عوالمَ

مُتخيِّلة، وأكواناً بديلةً. وبما أنَّ هذا يتطلَّبُ درجةً من المُخيِّلة الأدبية أو التاريخية، فإنه ميزةٌ لا تُقدَّرُ حقَّ قدرها في عصرنا الديموقراطي لأنَّ مَنْ يملكون مُخيِّلةً من أي نوع نادرون. ولحُسن الحظ هم مرتاحون وسط أغلبيتهم وبالتالي يشترعون لصالح ما هو مُهم في روايةٍ " جادّة " - تكونُ نسخةً مُقنَّعة قليلاً (أو كثيراً) من قصة حياة الكاتب بدءاً بالإجاص المسروق وانتهاءً بالجوائز البراقة - هل أقولُ المسروقة؟

على الروائي دائماً أن يقولَ الحقيقة كما يفهمها، في حين أنّ على السياسي ألاّ يكشف اللعبة. والذين فعلوا الأمرَين يشكِّلون لائحةً صغيرةً جداً. وعدم ترشيحي لضم اسمي إلى اللائحة يعودُ إلى الخيَار الذي اتخذته وأنا في سن العشرين وغيَّرَ حياتي تغييراً شاملاً. فقد كتبتُ وأنا في التاسعة عشرة، بُعَيدَ تسريحي من الجيش، روايةً عنوانها " ويليواو " (عام ١٩٤٦)، وقد حظيَتْ بالاستحسان بوصفها، زمنياً، أول الروايات التي كُتِبت عن الحرب. في العام التالي كتبتُ العملَ الذي كان حظُّه أقلّ من الاستحسان " في غابة صفراء " (عام ١٩٤٧). كان جدي، في الوقت نفسه، يُعِدُّ لي مستقبلاً سياسياً في نيو مكسيكو، (كان الحاكمُ يشملُ الرجل العجوز برعايته). نعم، صدِّق أو لا تصدِّق، في أعظم ديموقراطيّة عرفها العالم - معقل الحرية والإقدام - يمكنُ الإعدادُ للانتخابات بهدوء كما يُسعِدُ جو كينيدي أن يشرحَ لك إذا ما استطاعَ الشاعرُ جيمس ميريل[٢] أن يُبعِدَ ويستان أودن[٣] عن لوح وي ـ يا[٤].

كان وضعي جيداً في العالم بالنسبة إلى فتى في العشرين من العُمر، والفضلُ في ذلك إلى روايتين منشورتين ومهارات جدّي السياسية. كنتُ أيضاً في قلب مركز تقاطع طرق يُدعى تريفيوم في أوبرا

لسترافنسكي "أوديب الملك" . كنتُ قد كتبتُ للتو رواية تُدعى "المدينة والعمود". لو أني نشرتها لانعطفتُ إلى اليمين وانتهيت إلى كوني ملعوناً في مدينة طيبة. ولو أني تخلّيتُ عنها لانعطفتُ إلى اليسار وانتهى أمري في دلفي المقدّسة. وكان الشرفُ يتطلّبُ مني أن أسيرَ في الدرب المؤدية إلى مدينة طيبة. وقد قرأتُ في مكانٍ ما أني كنتُ من فرط الحماقة في ذلك الوقت بحيث أعرفُ ما أنا فاعل لكني في مثل تلك المسائل كنتُ دائماً أتمتّعُ ببقظةٍ خاصة. عرفتُ أنَّ وصفي لعلاقة الحب التي ربطت بين شابَّين " طبيعيين " أميركيين قلباً وقالباً، من النوع الذي عايشته طوال ثلاث سنوات قضيتُها في الجيش أثناء الحرب، هذا الوصفُ سوف يتحدّى كلَّ وهمٍ بشأن الجنس على أرض وطني - التي أخشى أنها كانت دائماً أقرب إلى بيوشا[٥] منها إلى أثينا أو حتى طيبة المسكونة. وحتى ذلك الحين كانت الروايات الأميركية التي تدورُ حول "الشذوذ الجنسي" تتناولُ لوطيين زاعقين وفتيةً وحيدين مدمنين على قراءة الكتب يرتبطون بزيجاتٍ تعيسة ويشتهون جنود البحرية. وجئتُ أنا وكسرتُ القالب. كان العاشقان اللذان رسمتهما من الرياضيين شديدَي الالتصاق بكل ما هو ذكوريّ صِرف حتى أنَّ الأنوثة، على الأقلّ في حالة أحدهما، هو جيم ويلارد، ببساطة لا علاقةَ لها بولهه بنصفه الآخر، بوب فورد : ولسوء حظ جيم كانت لدى بوب خططٌ جنسيّة أخرى، تتضمَّنُ نساءً وزواجاً.

أعطيتُ المخطوط إلى ناشريّ الجدُد في نيويورك، إ. ب دتون، فكرهوها. وقال لي مُحرِّر عجوز " لن تجدَ مَنْ يسامحك على هذا الكتاب. بعد مضيّ عشرين عاماً من الآن سوف تظل تتلقّى الهجومَ بسببه ". فأجبتُ

بعد أن أطلقتُ صفرةً في الظلام : " إذا ما بقيَ أي كتابٍ من كتبي في الذاكرة في العام ١٩٦٨، فتلك شهرةٌ حقيقية، أليس كذلك؟ "

في العاشر من كانون ثاني عام ١٩٤٨ كان من دواعي حزن جدي أنَّ "المدينة والعمود " قد نُشرتْ. وكانت الصدمةُ هي أمتعُ ما أثيرَ في الصحافة. كيف جرؤ كاتبنا الشاب الذي يكتب عن الحرب أنْ ...؟ وفي غضون أسبوعٍ أو اثنين أصبحَ الكتابُ على قائمة المبيعات في الولايات المتحدة وفي كل مكانٍ آخر بيع منه - في تلك الأيام لم يكن ذلك يعني العالم كله. الناشر الإنكليزي، جون ليمان، كان شديد التوتر. وفي مذكراته " المعرض الهامس " يقول : " هناك فقرات في " المدينة والعمود"، وهو كتابٌ حزين، ويكادُ يكونُ مأساوياً وإنجازاً رائعاً في مجالٍ صعبٍ بالنسبة إلى شابٍ صغيرٍ غض، بدت للباعة الجوّالين وللطابعين متماديةً في الصراحة. وقد تشاجرتُ ودياً مع غور لكي يُخفِّفَ من حدَّة تلك الفقرات ويقتطعَ منها. إنها مفارقة الزمن والذوق : فهي لم تكن تُسبِّبُ رفعَ حاجبٍ في مناخ أوائل حُقبة الستينات ". ولكن قبل فقط عشرين عاماً صودرَ الكتابُ من دنيس ألتمن لدى وصوله إلى مطار سيدني في أوستراليا. فقد تحدَّى ألتمن قانون الفحش الذي حُجزَ الكتابُ على أساسه. واعترفَ القاضي في القضية بأنه في ظل القانون الذي يُقيمُ به العدل يُعتَبَرُ الكتابُ فاحشاً إلا أنه كتبَ، في (obiter dicta) ملاحظة عابرة شهيرة، يقول إنه يعتقد أنَّ القانون سخيفٌ؛ وبعد فترةٍ وجيزة تمَّ تغييره. في تلك الأثناء، وحتى اليوم ما تزالُ نُسخٌ من الكتاب تسطعُ على فترات في سهول الأرجنتين وساحاتها وفي بلاد الله الأخرى. وبينما أنا أُدوِّنُ هذه الأسطُر علمتُ للتو أنَّ الكتابَ سوف يظهرُ أخيراً في روسيا، حيث ستحوِّله جماعة مسرح موسكو إلى مسرحيةٍ تُقدَّمُ على خشبته.

ماذا كان رأي زملائي؟ أخشى أنه ليس مُشجِّعاً. الكُتَّابُ الشاذّون أُصيبوا بالذعر، وآخرون ابتهجوا لأنَّ أحد منافسيهم أقصى نفسه بنفسه بكل أناقة. وأرسلتُ نسختين إلى كاتبين شهيرَين لكي أحصلَ منهما، كما يفعلُ كل الكُتَّاب الشبان، على المُصادَقَة. الأول كان توماس مان، والثاني كريستوفر إشروود الذي أجابني بكل حماس. وأصبحنا أيضاً صديقَين مدى الحياة. وقد قال لي جوزيف برايتنباخ أن أندريه جيد كان يُعِدُّ لكتابة "تقريظٍ" ولكن حين تقابلنا أخيراً لم نتحدَّث إلا عن صورة إباحيّة فاتنة رُسِمَتْ باليد تلقَّاها من رجلِ دينٍ إنكليزيّ في هامبشير.

كنتُ وأنا في سن الرابعة عشرة قد قرأتُ كُتُبَ توماس مان وأدركتُ أنَّ "رواية الأفكار" (حتى الآن ليس لدينا تعبيرٌ بالإنكليزية يصفُ مثل هذا النوع من الكتب، أو بالأحرى، هذا الجنس من الكتب) قد تنجحُ إذا ما أُدخِلَتْ الحكايةُ إلى التاريخ. ولاحقاً، فوجئتُ باستخدام الحوار في رواية " الجبل المسحور "، خاصة في المناظرات التي تدور بين سيتمبريني ونافتا، وهما يتنافسان، بحذاقة، على هانز كاستورب، المُضجر، ولكن الجذاب جنسياً. ولاحقاً، سوف تظهر شكاوى من أنَّ جيم ويلارد في "المدينة والعمود" مُضجرٌ أيضاً. لكني تعمَّدتُ أن أجعلَ جيم ويلارد على نمط هانز كاستورب : أيَّ شيءٍ آخر يمكنُ لشابٍ مثل هذا أن يكونَ، وحده في مواجهة العالم - المدينة - الذي كان في حدّ ذاته يُشكِّلُ مركزَ اهتمام؟ لكني مَنحتُ جيم شيئاً يفتقده هانز؟ الوَلَه الرومانسي ببوب فورد حتى أنه في نهاية المطاف استثنى كل شيء آخر من حياته، حتى، بصورةٍ ما، الحياة نفسها. وتلقَّيتُ رسالةً روتينيّة من توماس مان يشكرني فيها على "عملي النبيل" : وقد أخطأ في كتابة اسمي.

في شهر نيسان من عام ١٩٩٣، وفي جامعة نيويورك في أولباني، قرأ عددٌ من الأكاديميين حفنةً من الأطروحات حول " المدينة والعمود ". والكتاب يُطبَع منذ نحو نصف قرن، وهو أمرٌ لم أكن لأعتقد أنه ممكن في عام ١٩٤٨ حين رفضَتْ صحيفة " نيويورك تايمز " أن تستعرضَه أو تستعرض أي كتابٍ آخر لي على مدى السنوات الستّ التالية. ورأتْ مجلة " لايف " أنَّ أعظم أمةٍ في البلد، كما كان سبايرو آغنيو يقول، دُفِعَتْ نحو الشذوذ على يد مساعدٍ أول شاب في الجيش مثُلَ قبل عهدٍ قريب أمام سفينته. أنا لم أقرأ أياً من صحف أولباني التي ستصدر قريباً. والسبب الوحيدُ هو أنه ليست فكرةً جيدةً أن يقرأ المرءُ عن نفسه، خاصةً حين يكونُ في الحادية والعشرين وتَشَبُّه أكثر مما ينبغي ببيلي الفتى. قد أُرمى بالرصاص في نهاية المطاف لكني سوف أعتني بكل مَنْ يحتاجُ إلى رعاية قبل ذلك.

هناك أولئك الذين وجدوا النهاية " ميلودراميّة ". وحين ذكَّرتُ أحدَ النقّاد أنَّ من طبيعة المأساة الرومانسية أن تنتهي بالموت، حكى لي قصة شديدة القذارة عن الشاذين لا يمكنُ اعتبارها مأساوية، خلافاً، مثلاً، لقصةٍ مؤثِّرة حول حبٍ باءَ بالفشل بين اثنين من المراهقين الشاذين يتصفان بعقليّةٍ مُتحدّية تقعُ أحداثها في مدينة فيرونا القديمة. وقد عملتُ دون حماسٍ على إجراء تغييرٍ بسيطٍ على النهاية وشذَّبتُ قليلاً من حواراتي المكتوبة بأسلوب توماس مان. لكني تركتُ شخصية جيم دون تغيير. كان قد كوَّنَ حياته الخاصة خارج صفحاتي الوعرة. ومؤخراً لاحظَ كلود. جـ. سمرز ذلك عن الشخصيات :

" ... غير أنَّ جيم مؤثِّر، وهو يأمرُ بالاهتمام الثابت والسبب في

ذلك يعودُ إلى حدٍ بعيد إلى أنه يجمع بين مواصفاتٍ غير متوقَّعة. فعلى الرغم من كونه رقيقاً وعادياً، إلا أنه يعيشُ حياة داخليّة عالية التطوُّر. وعلى الرغم من أنَّ الأوهامَ الرومانسيَّة تشلّه، إلا أنه يعي بصورةٍ مدهشة أوهامَ الآخرين. وعلى الرغم من أنَّ معالجة الرواية له كحالة، إلاّ أنه مع ذلك يحتفظُ بسرٍ جوهريّ. وكما علّقَ روبرت كيرنان (في كتابه " غور فيدال ") فإنَّ جيم ويلارد يمثِّلُ " كل إنسان " وفي الوقت نفسه هو غريب ... والأثر النهائي ينطوي على تناقضٍ ولكن من المناسب القضاء بأننا، في نهاية المطاف، لا نستطيع أن نعامله بتنازل، أو بتعاطفُ معه بصورة كاملة، أو حتى أنْ ندَّعي أننا نفهمه. وهذا ينطبق عليه أكثر مما ينطبق على الشخصيّة النموذجيّة في الأدب. إنَّ جيم ويلارد ببساطة موجودٌ، ليس كموضوع مقولة، ليس كتصويرٍ لفرضيّة، بل ببساطة كما هو "

*

نحن الآن في خريف عام ١٩٩٣ . أنا اكتب هذه المقدِّمة لرواية "المدينة والعامود " لسببٍ غير متوقَّع تماماً. فقبل وقت غير بعيد تلقَّيتُ مكالمة هاتفيّة من كاتبِ سيرة توماس مان. سألني، هل أعرفُ الأثرَ العميقَ الذي تركه كتابي على مان؟ فقلتُ مازحاً إنَّ الأثر هو أنه ربما من الآن وحتى نهاية حياته قد يتعلَّم كيف يتهجَّى اسمي. " لكنه لم يقرأ الكتاب إلاّ في عام ١٩٥٠ ، وأثناء قراءته له علّقَ عليه في يومياته. وقد نُشِرَتْ مؤخراً في ألمانيا. احصل عليها ". هذا ما قرأته، مع بعض الذهول، عن الأثر الذي كان قد تركه المُعجَب بمان ذو الحادية والعشرين من عمره على المُعلِّم ذي الخامسة والسبعين ذاك، الذي دفعَت به الحرب إلى الاستقرار في كاليفورنيا.

*

الأربعاء في ٢٢/ ١١ / ١٩٥٠

... بدأت بقراءة الرواية الجنسية- المثليّة " المدينة والعامود "، من تأليف فيدال. وتصف يوماً في كوخٍ بالقرب من نهر والمشهد الذي يجري فيه عبث الحب بين جيم وبوب كان بارعاً جداً - توقَّفتُ عن القراءة في وقتٍ متأخِّرٍ. الليل دافئ جداً.

الخميس ٢٣ / ١١ / ١٩٥٠

... واصلتُ قراءة " المدينة والعمود "

الجمعة ٢٤ / ١١ / ١٩٥٠

... في المساء واصلتُ قراءة " المدينة والعمود ". نعم، إنها مثيرة للاهتمام. إنها وثيقةٌ إنسانيّة هامة، تتَّصفُ بصدقٍ رائع ومنير. إنَّ العلاقات الجنسية بين الرجال المتباينين لا تزال مُبهمةً لدينا. كيف يمكنُ مضاجعة الرجال - (يستخدمُ مان كلمة Herren التي لا تعني " رجال " بل " سادة محترمون ". أكان مان يسخر؟ أم أنه سؤالٌ بلاغيّ يُقصَدُ به إحداثُ صدمة؟)

السبت مساءً ٢٥ / ١١ / ١٩٥٠

... في شهر أيار من عام ١٩٤٣ أخرجتُ أوراق " فيليكس كرول " فقط لأمرٍّ عليهاً مرور الكرام ومن ثم انتقلتُ إلى " فاوست ". يجب أن أبذلَ مجهوداً للبدء من جديد، وإنْ كان فقط من باب الانهماك في العمل، لتولّي مهمةٍ ما. لا شيء آخر لديّ، إلاّ أفكارٌ جديدة لقصص، لا موضوعَ لرواية... أيمكن أن أبدأ (فيليكس كرول) من جديد؟ هل هناك ما يكفي من العالم، وهل هناك ما يكفي من الناس، وهل هناك ما يكفي من المعرفة المُتاحة؟ إنَّ الروايات التي تحكي عن العلاقات الجنسية

المثليّة تثير اهتمامي بالقدر نفسه بسبب ما تقدِّمه من معرفة العالم والترحال. هل أمدَّتني عزلتي بما يكفي من معرفة الكائنات البشرية، بمادةٍ كافيةٍ لتأليف رواية اجتماعيّة ساخرة؟

الأحد ٢٦ / ١١ / ١٩٥٠

منشغلٌ بأوراق (كرول)، شيءٌ مريك.

أقرأ صفحات أخرى من رواية فيدال.

الأربعاء ٢٩ / ١١ / ١٩٥٠

... الصفحات من كرول (عن السجن). هناك دائماً شكوكٌ. أتساءل إنْ كانت هذه الموسيقى لتي يُحدِّدها " موضوع التوق " مناسبةً لسنوات شيخوختي... أنهيتُ قراءة رواية فيدال. تأثَّرتُ بها، على الرغم من وجود الكثير من العيوب والأشياء الكريهة. مثلاً، حين يصحب جيم بوب إلى حانة للشاذين في نيويورك.

لا أذكرُ أنَّ هذا المشهد أساسيٌّ في الرواية (جيم يكره الشاذين) لكنني مسرور لأنَّ مان لم يجد النهاية " ميلودراميّة "، ولكن أيُ موضوع هو أشدّ " إثارة للشفَقَة " ميلودرامياً من الـ (Liebestod) الموت حباً؟ على أي حال، الروائي الشاب الذي سَلَكَ ما بدا للجميع أنه الدرب الخطأ في تريفيوم يحتفي به الآن وهو في عهد شيخوخته الكاتبُ الذي صاغَ نفسه، بمعنىً من المعاني، على مثاله. أما بالنسبة إلى دهشة مان أمام مضاجعة الرجال بعضهم لبعض، فهو يكتبُ يوميات خاصة، وهو العمل الأكثر علانيّة الذي يمكنُ لأي كاتبٍ ألمانيّ كبير أن يقوم به، وعلى الرغم من أنه كثيراً ما يشير إلى " انحرافه الجنسي " وشغفه بهذا الشاب أو ذاك، فيبدو أنه لا يتوجَّه، مثلي، إلى طيبة لكنه يسلك (وهو يلقي

نظرات عدَّة إلى الخلف) الدرب المؤدي إلى دلفي وقد دهشت أيَّما دهشة وسُررتُ لأنه، وهو يقرؤني، جاءه الإلهام - أو الدافع - أو كائناً ما كانت الكلمة - بالعودة إلى عمله الساحر والمفعم بروح الشباب، " فيلكس كرول[٦] ". وبعض قصصي القصيرة في مجموعة " شرُ ظمآن " تُعادلُ في روحها الطائشة عمل توماس مان الأخير. إحداها عنوانها " السيدات في المكتبة " هي تنويعٌ غير واعٍ على قصة " موت في البندقية ". هناك ثلاثة تنويعات على موضوع واحد : تنويع مان على شخصية هانز كاستورب؛ ثم بطلي، جيم ويلارد؛ ثم نسخة أكثر خِفَّة وسرعة في الإيقاع لجيم متخفّياً بشخصيةٍ خلعَ عليها اسماً مناسباً هو فيلكس - باللاتينيّة يعني " السعيد ".

" ونظـرتْ امرأته من ورائه فصارت عامودَ ملحٍ "

سفر التكوين ١٩: ٢٦

الفصل الأول

كانت اللحظة غريبةً. لم يعد هناك أي سمة واقعية في الحانة؛ لم يعد أي شيءٍ صلباً؛ الأشياء كلها اندمجت معاً؛ تداخَلت. الزمن توقَّف.

جلسَ وحيداً في مقصورته، يصغي إلى الموسيقى المنبعثة من صندوقٍ بلاستيكيٍّ أحمر اللون، مُضاء من الداخل. تذكَّرَ بعض تلك الموسيقى لأنه كان قد سمعها في أماكن أخرى. لكنه لم يعُد يفهم الكلمات. لم يعد يتذكَّر إلاّ تداعياتٍ غامضة وهو يصغي إلى الموسيقى.

كان كأسه من الويسكي والماء والثلج قد انقلب وأريقَ وأصبح أعلى الطاولة الآن مُثيراً للاهتمام : ثمة جزرٌ وأنهارٌ وبحيراتٌ متفرِّقة جعلت أعلى الطاولة قارَّةً. أخذ يتقصَّى أثر الأشكال بأحد أصابعه على الطاولة الخشبيّة. جعل من البحيرة شكلاً دائرياً؛ شكَّلَ من الدائرة نهرين؛ جعلهما يفيضان ويدمِّران إحدى الجزر، مُحدثاً بحراً. كان يمكنُ صنع أشياء كثيرة جداً من الويسكي والماء على سطح طاولة.

توقَّفَ صندوق الموسيقى عن العمل.

انتظره فترة طويلة من الوقت ليعمل من جديد. تناول جرعةً من الويسكي لتُعينه على الانتظار. وبعد مرور وقت طويل، حاول خلاله ألاّ يفكر، عادت الموسيقى. إنها أغنيةٌ تذكَّرها وكان يعزفها وترك لنفسه العنان

ليعود إلى تلك اللحظة الشعوريّة من الزمن حين... متى؟ حاول جاهداً أن يتذكّر المكان والزمان، لكنّ الأوان فات؛ لم يتذكّر إلاّ شعوراً ممتعاً.

كان ثملاً.

انهارَ الزمانُ. انقَضَتْ سنون قبل أن يوصِل الشراب إلى فمه. ساقاه خدرتان، مرفقاه منفصلان، كأنّ الهواءَ هو الذي يدعمه، والموسيقى المنبعثة من صندوق الموسيقى. تساءلَ برهةً أين هو. تلفّتَ حوله لكنه لم يستدلّ على المكان؛ إنها مجرد حانة في مدينة. أي مدينة؟

صَنَعَ جزيرةً جديدةً على سطح الطاولة. الطاولة هي منزله وشعَرَ بحبٍ قويّ للخشب المُندَّب البنيّ اللون، وللحماية التي توفّرها ظُلمة المقصورة، وللمصباح الذي لا يعمل لأنه لا توجد لمبة في المأخذ. أراد ألاّ يغادر أبداً. هذا هو منزله. لكنه بعد ذلك أنهى مشروبه، وضاع. يجب أن يطلب كأساً أخرى. كيف؟ عبَسَ وفكّر. مرَّ وقتٌ طويل ولم يتزحزح من مكانه، والكأس الفارغ أمامه.

أخيراً توصّلَ إلى قرار : سوف يغادرُ المقصورة ويذهب ليتحدّث مع الرجل الواقف خلف البار. كانت رحلةً طويلةً لكنه كان مستعداً لها.

نهضَ واقفاً، فشعر بالدوار وعاد إلى الجلوس، شاعراً بتعبٍ شديد. اقترب رجلٌ يضع مئزراً أبيض من طاولته؛ لعلّه يفهم في المشروبات.

" أتريدُ شيئاً؟ "

نعم، هذا ما يريد، شيئاً. أومأ برأسه وقال ببطء لكي تكون الكلمات واضحةً، " أريد بعض الويسكي، الماء، البوربون، الماء.. ما كنتُ أشربه "

ألقى الرجلُ عليه نظرةً مرتابة. " منذ متى وأنت هنا ؟ "

لم يعرف بماذا يُجيب على هذا. يجب أن يكون ماكراً. قال بعناية "أنا هنا منذ ساعة"

" حسن، إياك أن تصابَ بالإغماء أو أن تتقيأ. الناس لا يراعون مشاعر الآخرين حين يتعلّق الأمر بفعلِ أشياءٍ كهذه وانتظار غيرهم ليقومَ بالتنظيف"

حاولَ أنْ يقولَ إنه يأبه بالآخرين ولكن لا فائدة؛ لم يعُد في إمكانه أن يتكلم. أراد أن يعودَ إلى البيت، إلى سطح الطاولة. قال " أنا على ما يرام "، وابتعد الرجل.

لكنَّ سطح الطاولة لم يعد منزله؛ لقد بدَّدَ ذو المئزر تلك الألفة. الأنهار، البحيرات، الجُزُر، كلها لم تعُد مألوفة؛ لقد ضاعَ في بلدٍ جديد. لم يعد أمامه إلا أن يوجِّه انتباهه إلى الآخرين في الحانة. فبما أنه أضاعَ عالمه الخاص أراد أن يعرفَ ما الذي عثر عليه الآخرون، هذا إنْ عثروا على أي شيء.

كان البارُ يقعُ قبالته مباشرةً وخلفه رجلان بمئزرين أبيضين يتحركان ببطء. وعلى البار وقفَ أربعةُ خمسةُ ستةُ أشخاصٍ. حاولَ أن يعدَّهم لكنه لم يتمكَّن. فكلَّما حاولَ أن يعدَّ أو أن يقرأ في الحلم، تلاشى كل شيء. كما في الحلم. أكان حلماً؟

كانت هناك امرأةٌ ترتدي ثوباً أخضرَ تقفُ بالقرب منه، ذات ردفين ضخمين، وثوبها شديد الضيق عليها. كانت تقفُ شديدةَ الالتصاق برجلٍ يرتدي بذلةً غامقة اللون. كانت عاهرة. على أي حال...

أخذ يتجولُ بين المقاصير الأخرى. كان موقعُ مكانه في مركزِ صفٍ

طويلٍ من المقاصير، ومع ذلك لم يكن يعرف أياً من الناس الذين يشغلونها. فكرةٌ حزينةٌ، شرب نخبها.

ثم نهضَ واقفاً. مشى، بخطى غير ثابتة ولكن بوجهٍ متّزنٍ تماماً، إلى الجزء الخلفي من الحانة.

كان مرحاض الرجال قذراً وقبل أن يلجه أخذَ نَفَساً عميقاً لكي لا يضطّر إلى التنفُّس في الداخل. شاهدَ صورته منعكسةً على المرآة المشوَّهة المشروخة المعلَّقة على الجدار : شعرٌ أشقر، بشرةٌ ناصعة البياض، وعينان حمراوان تحدِّقان بنظرةٍ مشرقةٍ، مجنونة. أوه، إنه حتماً شخصٌ آخر. ولكن مَن؟ حَبَسَ أنفاسه إلى أنْ عادَ إلى قاعة الحانة.

لاحظ مدى عتمة الإضاءة. لا يوجدُ إلا عدد قليلٌ من المصابيح على الجدران، اللهم ما عدا صندوق الموسيقى الذي لم يكن يشعُّ بالضوء بل وبالألوان الرائعة. دمٌ أحمر، شمس صفراء، عشبٌ أخضر، سماء زرقاء. توقَّفَ عند صندوق الموسيقى، وأخذت يداه تداعبان السطح البلاستيكي الأملس. إلى هنا ينتمي؛ بالقرب من الضوء واللون.

ثم أصابه دوار. ثمة ألمٌ في رأسه ولم يعُد يرى بوضوح؛ وانقبضت معدته بإحساسٍ حادٍ بالتقزُّز.

أمسك رأسه بين يديه وأخذ يضغط ببطء ليزيل الدوار. لكنه بالغَ في الضغط وأعاد الذاكرة؛ لم يكن هذا ما أراده. أسرع بالعودة إلى المقصورة. جلسَ، ووضعَ يديه على الطاولة، ونظر أمامه مباشرةً. بدأت الذاكرة تعمل. كان هناك أمسٌ وقبل أمس، وخمس وعشرونَ عاماً من الحياة قبل أن يعثر على الحانة.

" هاك مشروبك "، ونظر الرجل إليه. " هل أنت على ما يرام؟ إذا كنتَ تشعرُ بأنك لستَ على ما يرام فمن الأفضل أن تخرجَ من هنا. لا نريد أحداً يتقيأ هنا ".

" أنا على ما يرام "

" أنت حتماً شربتَ كثيراً هذه الليلة "، قالها الرجلُ، ثم ابتعد.

لقد أفرط في الشرب. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة وكان موجوداً في الحانة منذ الساعة التاسعة. كان ثملاً، وأراد أن يصبح أكثر ثمالة، ودون ذاكرة، أو خوف.

قال صوتُ امرأة " أأنت وحدك؟ ". لم يفتح عينيه مدةً كافيةً، آملاً في أنه إذا لم يرها لن تستطيع أن تراه. كان شيئاً أساسياً جديراً بتمنّيه لكنه فشل. وفتح عينيه.

قال " طبعاً، طبعاً ". كانت المرأةُ ذات الثوب الأخضر.

كان شعرها مصبوغاً بلونٍ أحمر قانٍ ووجهها أبيض من البودرة. هي أيضاً كانت ثملة. مالت مترنّحةً فوق طاولته حتى أستطاع أن يرى ما بين ثدييها.

" أتسمح لي بالجلوس؟ "

زمجر؛ جلسَتْ قبالته.

بدأت الحديث " كان الجو حاراً جداً هذا الصيف، أليس كذلك؟ ". نظر إليها، متسائلاً إنْ كان يستطيع أن يستوعبها داخل عالم المقصورة. شكَّ في ذلك. لسببٍ واحد؛ أنَّ حضورها طاغٍ ولا شيء فيه بسيط.

قال " طبعاً "

" يجب أن أقولَ إنك لست ثرثاراً، أليس كذلك؟ "

" معك حق ". الآن تلاشت ألفة المقصورة إلى الأبد. سألها، دون اهتمام " ما اسمك؟ "

ابتسمتْ؛ ها قد جذبتْ انتباهه. " اسمي استيل. اسم جميل، أليس كذلك؟ أمي أطلقت علينا جميعاً أسماء كهذه. كان لي أختٌ اسمها أنثيا وأخٌ اسمه دريك. يعتقد أنَّ اسمَ دريك أسمٌ جذّاب جداً ولا يليقُ برجل، ألا تظن؟ إنه اسمٌ نسائيٌ. ما اسمكَ؟ "

قال " ويلارد "، ودُهِشَ لأنه أعطاها اسمه الحقيقي. " جيم ويلارد "

" اسم جميل. يبدو إنكليزياً عريقاً. أعتقد أنَّ الأسماءَ الإنكليزية جميلة. أنا في الأصل أسبانية. أوه، كم أنا عطشى! سأستدعي لك النادل "

النادل، الذي بدا أنه يعرفها، أحضرَ لها مشروباً. ابتسمت له وقالت " ما أريده بالضبط ". من تحت الطاولة مسَّتْ قدمها قدمه. نقَلَ كلتا قدميه إلى تحت الكرسي.

لم تتأذّى. أخذت تشرب بسرعة. " أنت من نيويورك؟ "

هزَّ رأسه نفياً وبرَّدَ سبابته في الكأس المملوء حتى منتصفه.

" تبدو من لكنتك أنك من الجنوب. هل أنت من الجنوب؟ "

قال " نعم "، وأخرج سبّابته من الكأس. " أنا من الجنوب "

" لابد أنَّه مكان جميل. طالما رغبتُ في أن أذهبَ إلى ميامي ولكن يبدو أنه كُتِبَ عليَّ ألاّ أهربَ من المدينة. في الواقع، إنَّ أصدقائي كلهم موجودون هنا ولا أستطيع أن أتركهم. وكان لي صديقٌ ذات مرة، رجل "،

وابتسمت بينها وبين نفسها، " وكان دائماً يذهب إلى فلوريدا في الشتاء. كانت لديه أمتعة جميلة. وقد دعاني لأرافقه وكدتُ أفعل، في إحدى المرات ". وصمتت. " كان هذا قبل عشر سنوات ". بدا صوتها حزيناً، ولم يشعر بأي شفقة عليها.

" طبعاً لابد أنَّ الجوّ شديد الحرارة في الصيف هناك. في الواقع، إنَّ الجو شديد الحرارة هنا وأحياناً أعتقدُ أني سأموتُ بتأثير الحرارة. هل اشتركتَ في الحرب؟ "

تثاءبَ، كان ضجراً. " كنتُ جندياً "

" أراهن على أنك كنتَ تبدو وسيماً بالزيّ الرسمي. لكنني سعيدة لأنها انتهت، الحرب "

أخذ يُنقِّلُ كأسه حول الطاولة، ويصغي إلى الضجيج المريح الذي يثيره وهو يرتطم بالندوب والشقوق. راقبته. ودَّ لو ترحل.

سألته " ماذا تفعل في نيويورك؟ ولماذا تسكر؟ إنَّ لديك كل ما ترغب ومع ذلك ها أنت جالسٌ هنا وحدك، تسكر. ليتني كنتُ في مكانك. ليتني كنتُ شابةً وجميلة. ليتني... " وبدأت تبكي بهدوء.

قال، وهو يتنهَّد " أنا لدي كل شيء، أنا لديّ كل شيء، يا أنثيا "

تمخَّطت في قطعة من الكلينكس " أنثيا هو اسم أختي. أنا استيل "

" ولديك أخٌ يُدعى دريك "

بدتْ الدهشةُ عليها. " صحيح. كيف عرفت؟ "

فجأةً شعرَ بأنه مُعرَّضٌ لخطرِ التورُّط في حياتها، وهو يصغي إلى اعترافات، ويسمعُ أسماءَ لا تعني له أي شيء. أغمضَ عينيه، وحاولَ أن يُبعدها عنه.

كفَّت عن البكاء وأخرجت مرآةً من حقيبة يدها، وأخذت تبودرُ برقَّةٍ الجيوب تحت عينيها. ثم أبعدَتْ المرآة وابتسمت. " وأنتَ ماذا ستفعل هذا المساء؟ "

" إنني أفعله؛ أسكر "

" كلا، أيها السخيف، أقصد لاحقاً. أتراك ستمكث في مكانٍ ما من الفندق؟ "

" أنا باقٍ هنا "

" ولكن لا يمكنك أن تفعل؛ المحل يغلقُ في الرابعة "

ذُعِرَ. لم يفكِّر فيما سيفعل بعد الساعة الرابعة. كله بسببها. لقد كان يستمعُ وهو سعيد إلى الموسيقى، إلى أنْ جاءت وغيَّرت كل شيء. كان خطأ منه ألاّ يفهمها جيداً.

كانت تهدِّده في الواقع. يجب تدميرها.

قال " أنا ذاهب إلى المنزل وحدي. وحين أذهب إلى المنزل أذهب وحدي "

" أوه ". فكَّرتْ برهةً، ثم قرَّرتْ أنه يجرحها ويؤذي مشاعرها. "أعتقد أني لست جيدة كفاية لأصلح لك "

" لا أحد كذلك ". كان قد ضجرَ منها إلى أقصى حد، وشعر بتقزُّز من فكرة ممارسة الجنس.

قالت استيل، أخت أنثيا ودريك، " بعد إذنَك "، ونهضت واقفةً، وعدَّلت من وضع ثدييها، وعادت إلى البار.

الآن عاد وحيداً وسعيداً، مع ثلاثة كؤوسٍ موضوعةٍ أمامه على

الطاولة : اثنان فارغان، وواحد نصف مملوء وعليه آثار أحمر شفاه. رتَّبَ الكؤوس لتُشكِّلَ مثلّثاً، لكنه حين حاولَ أن يرتِّبها على شكلِ مربَّعٍ فشل. لماذا ؟ لأنَّ ثلاثة كؤوسٍ يجب أن تكونَ قادرةً على تشكيلِ مربَّع. شعر بالحزن. لحسن الحظ بدأ الواقعُ يتراجعُ مرة أخرى. جلس جيم ويلارد على طاولته في مقصورته في حانته وأخذ يصنعُ بحيرات، وأنهاراً، وجُزُراً. هذا كل ما يريده؛ أن يكونَ وحيداً، مخلوقاً بلا ذاكرة، جالساً في مقصورة. وشيئاً فشيئاً أخذت تتلاشى حدود الخوف. ونسي تماماً كيف بدأ الأمر :

الفصل الثاني

-١-

بعد ظهيرة أشدّ أيام الربيع دفئاً ونضارةً انتهتْ تدريبات حفل التخرُّج في المدرسة الثانوية، وتدفَّقَ الفتية والفتيات، والآباء والأساتذة، خارج البناء الجديد للمدرسة الجيورجيّة الطراز القديمة. انفصلَ جيم ويلارد عن الحشد، وتوقف برهةً على الدرجة العليا ومدَّ بصره بحثاً عن بوب فورد. لكنه لم يتبيَّنه وسط حشد الفتية بالسترات الداكنة والسراويل البيضاء، والفتيات بالأثواب البيضاء، والآباء بقبعات القش (كانت تلك موضة ذلك العام في فيرجينيا). كثير من الرجال كانوا يدخِّنون السيجار، وهذا يعني أنهم من السياسيين - كان ذلك هو المقرّ الريفيّ وهو غنيّ بشكلٍ خاصّ بالموظفين الرسميين، ومن بينهم والد جيم، موظف دار المحكمة.

ضربَ فتى راكضٌ ذراعَ جيم عابثاً. التفتَ جيم، متوقِّعاً أن يكونَ بوب. لكنه كان شخصاً آخر. ابتسم، ردَّ له الضربة وتبادلَ معه الإهانات المرحة، وشعر بالأمان لعلمِه أنه محبوب لأنه كان بطل المدرسة في لعبة كرة المضرب، والرياضيون كلهم يحظون بالإعجاب، خاصةً المتواضعون منهم ويتَسِمون بالحياء، مثل جيم.

أخيراً ظهر بوب فورد. " هذا العام أنا. في العام القادم أنت "

" كنت أتمنى حتماً لو أني أنا الخرّيج "

" أشعرُ كأنهم فتحوا باب السجن وأفرجوا عني إلى العالم الواسع الرحب. قُل لي، كيف بدوتُ وأنا على خشبة المسرح أرتدي كيس البطاطا الأسود ذاك؟ "

" عظيماً! "

قهقه بوب، " ألا تعلم هذا؟ حسن، هيا بنا نلعب ما دام لا يزال هناك بعض الضوء ". أثناء تحركهما خلال الحشد باتجاه الباب إلى غرفة الأدراج المقفلة، حيَّت حفنةٌ من الفتيات بوب، الذي أجاب عن طيب خاطر. كان، بعينيه الزرقاوين، وشعره المتموِّج الأحمر القاني، معروفاً في كل أرجاء المدرسة بأنه " الحبِّيب "، وهي كلمة أكثر براءة مما تبدو. "الحب" هنا يعني مجرَّد تبادل القُبل. كانت أغلب الفتيات تجد بوب لا يُقاوَم، لكنَّ الفتيان لم يكونوا يحبونه، ربما لأنَّ الفتيات يفعلن. لم يكن له صديق غير جيم.

لدى ولوجهما غرفة الأدراج المقفلة، تلفَّتَ بوب حوله بكآبةٍ مبتهجة.

" أعتقدُ أنَّ هذه آخر مرة آتي فيها إلى هنا "

" ولكن لا يزال في وسعنا أن نستخدمَ الملاعب في هذا الصيف..."

" ليس هذا ما عنيت ". خلع بوب معطفه وعلَّقه بعناية. ثم خلع ربطة عنقه. كانت تلك هي أفضل ملابسه وكان يُعاملها بكل احترام.

قال جيم محتاراً " ماذا تقصد؟ ". لكنَّ بوب اكتفى بالنظر بغموض.

مشى الفَتَيَان مسافة نصف الميل التي تفصلهما عن ملعب كرة

المضرب دون أن يتكلّما. كانا يعرفان بعضيهما طوال حياتهما، لكنهما لم يصبحا صديقين حميمين إلا في هذه السنة الأخيرة. كانا في فريق كرة البيسبول معاً وكانا يلعبان كرة المضرب معاً، على الرغم من أنَّ جيم كان دائماً يفوز، ويحزن بوب. إلاّ أنَّ جيم كان أفضل لاعب في المقاطعة، وأحد الأفضل في الولاية. كانت للألعاب أهمية خاصة لكليهما، خاصة لجيم، الذي كان يجد صعوبةً في فتح موضوعٍ للحديث مع بوب؛ كان ضرب الكرة جيئةً وذهاباً عبر الشبكة على الأقلّ شكلاً من أشكال التواصل وأفضل من الصمت أو حتى من حديث بوب الأحاديّ الجانب.

كانا يحتكران الملعب الترابيّ الأحمر لنفسيهما، أخذ بوب يُديرُ المضرب بحركةٍ دورانيّةٍ واتّخذ جيم، الخاسر، الجانب المواجه للشمس. وبدأت اللعبة. كان أمراً جيداً ضرب الكرة البيضاء بشكلٍ مستوٍ لتمرَّ منسابةً من فوق الشبكة. بذل جيم أقصى جهده، واعياً بشكلٍ مبهمٍ أنَّ هذا طقسٌ ضروريٌ يؤدّى للمرة الأخيرة.

لعبا بينما كانت الشمسُ تغربُ وظلال الأشجار الباسقة تستطيل، وتعتَّمَ الملعب. هبَّ نسيم بارد. وبعد المجموعة الثالثة توقفا. كان جيم قد فاز باثنتين من ثلاث.

قال بوب " لعبٌ جيد "، ومدَّ له يده بإيجاز، وكأنهما كانا في دورة. ثم تمدَّدا معاً على العشب بجانب الملعب وأخذا يتنفَّسان بعمق، مِنْ تعبٍ وأيضاً بارتياح.

حلَ الغسق وانتهى اليوم. تحلَّقَت العصافير المُشقشِقة بين الأشجار، استعداداً للّيل.

" الوقت يتأخَّر "، ونهضَ واقفاً وأخذ يزيل العيدان والأوراق التي علِقَت على ظهره.

لم يرغب جيم في الذهاب، " لا يزال هناك ضوء "

" أنا أيضاً أكره أن أذهب "، تلفَّتَ بوب حوله، مرةً أخرى بحزنٍ غامض.

" عمَّ تتحدَّث؟ إنك طوال النهار تُلمِّحُ إلى شيءٍ ما. ماذا لديك؟ ". هنا فهم جيم. " لا أظنكَ ستنطلق على متن قارب، كما فعلتَ في العام الفائت؟ "

ابتسم بوب ابتسامةً عريضةً " الفضول يقتل القطة "

شعرَ جيم بالتأذّي. " حسن "

ندمَ بوب. قال " اسمعْ، لا أستطيع أن أقول أي شيء الآن. مهما كان الأمر فسأبوح به لك قبل يوم الاثنين. أعدك "

هزَّ جيم كتفيه استخفافاً، "هذا شأنك"

نهضَ بوب واقفاً. " يجب أن أرتدي ملابسي. سأصحب الحميمة سالي مرغندال إلى الرقص هذا المساء "، وغمز بعينه، " وفي هذه الليلة أنوي أن أستمتع "

" ولِمَ لا؟ الكلُّ يفعل ". كان جيم يكره سالي، الفتاة السمراء العدوانيّة التي كانت تُلاحقُ بوب طوال العام. غير أنَّ ما يفعله بوب ليس من شأنه.

بينما هما سائران في الغسق الأزرق إلى المدرسة، فجأة سأل بوب "ماذا ستفعل في عطلة هذا الأسبوع؟ "

" لا شيء. لماذا؟ "

" لِمَ لا نقضيها في الكوخ؟ "

" حسن، لا بأس. ولم لا؟ ". كان جيم حريصاً على ألاّ يُبدي الكثير

من السرور؛ ذلك فأل سيّء. كان الكوخ مأوى لعبدٍ سابق، مات مؤخراً. وهو مهجورٌ الآن، قائمٌ في الغابة الكثيفة بالقرب من نهر بوتوماك. وكانا قد أمضيا ليلة هناك؛ وقد جلبَ بوب أكثر من مرة فتيات إلى الكوخ. ولم يتيقَّن جيم أبداً مما يحدث بالضبط لأنَّ قصص بوب كانت تختلف في كل مرة يرويها.

قال بوب " حسن، أقابلك في منزلكم، غداً صباحاً "

سمح لهما بوّاب نَزِق بالدخول إلى غرفة تغيير الملابس.

- ٢ -

كانت وجبة الإفطار دائماً مقيتة، ربما لأنها الوجبة الوحيدة التي تجتمع أسرة ويلارد كلها معاً لتناولها.

كان السيد ويلارد قد جلس لتوِّه على رأس المائدة حين ولَجَ جيم غرفة الطعام. حاول السيد ويلارد، الضئيل الحجم، النحيل، الكئيب، أن يبدو طويل القامة ومُسيطراً. وكان من رأي العائلة أنه لن يجد أية مشقَّة تُذكر في بلوغ منصب الحاكم، ولكن لسببٍ ما اضطرَ إلى أن يسمح لرجالٍ أقلّ منه شأناً أن يذهبوا إلى ريتشموند في حين بقي هو في دار المحكمة، مصيرٌ مرير.

السيدة ويلارد أيضاً كانت ضئيلة وكئيبة لكنها تميلُ إلى السمنة؛ بعد مُضيّ ثلاث وعشرين سنة من حُكم زوجها، أصبحت تتَّخذ هيئة الشهيدة التي تكاد تذوب من الإحساس بالإثم. وهي الآن ترتدي مئزراً أبيض مُهدَّبَ الحاشية لا يلائمها، وتُعدُّ الإفطار في المطبخ المجاور، وبين فينةٍ وأخرى تُلقي نظرةً إلى غرفة الطعام لترى إنْ كان أولادها الثلاثة قد هبطوا.

كان جيم، البكر أول الواصلين. ولما كان ذلك اليوم يمثِّل مناسبةً خاصة فقد كان مرحاً وسعيداً بكونه حياً.

" صباح الخير، أبي "

نظر والده إليه وكأنه لا يستطيع أن يميِّز وجهه، ثم قال " صباح الخير "، وبدأ يقرأ الصحيفة باستغراقٍ. كان لا يحبِّذ فتحَ حديثٍ بينه وبين أبنائه، خاصة مع جيم، الذي ارتكبَ خطأً بكونه ممشوق القامة ووسيماً وليس أبداً ابناً ضئيل الحجم وينطوي على كآبةٍ كما يجدر بابن السيد ويلارد أن يكون.

أحضرتْ السيدة ويلارد له طعام إفطاره وقالت "بكَّرتَ في الهبوط"

" إنه يومٌ جميل، هذا هو السبب "

" لا أعتقد أنَّ الساعة الثامنة إلاّ ربع هي وقتٌ مُبكِّر جداً ". قال والده هذا من خلف صحيفة " ريتشموند تايمز ". كان السيد ويلارد قد نشأ وترعرع في مزرعةٍ وأحد أسباب نجاحه في حياته يعود إلى أنه يستيقظ " مع خيوط الفجر الأولى "

" جيم، ألم تسمع أية أصوات غريبة حول المنزل ليلة أمس؟ ". كانت والدته، مثل جان دارك، دائماً تسمع أصواتاً غريبة.

" كلا، يا سيدتي "

" غريب. أكاد أقسم بأنَّ أحدهم كان يحاولُ أن يدخل من النافذة؛ سمعتُ ربتاً... "

أنزلَ السيد ويلارد صحيفته ورفع ذقنه، " أريد بعض القهوة، من فضلك "

" حاضر، يا عزيزي "

أكل جيم نصيبه من الحبوب. أعاد السيد ويلارد ترتيب صحيفته.

" صباح الخير "، ولَجَتْ كاري الغرفة. إنها أصغر سناً من جيم بعام؛ جميلة ولكن شاحبة البشرة، ولما كانت تكره الشحوب فقد عمدتْ إلى دهن وجهها بأسلوب جريء. كان يجعلها أحياناً تبدو داعرة ويثير حفيظة والدها. كانت قد تخرَّجت من المدرسة الثانوية قبل عام، وهي في سن السابعة عشرة، وكانت العائلة تؤثِّر بهذه الحقيقة على جيم. ومنذ ذلك الحين وهي تساعد أمها في المنزل وفي الوقت نفسه تشجِّعُ مغازلةً لطيفةً من وسيطٍ عقاريّ شاب تتوقَّع أن يتزوجها حالما " يوفِّر بعض المال "

" صباح الخير يا كاري ". قالها السيد ويلارد ونظر إلى ابنته باستحسانٍ كئيب. كانت وحدها، من بين أولاده، تمنحه السعادة؛ كانت ترى أنه إنسانٌ عظيم.

" كاري، هلاّ أتيتِ وساعدتني في إعداد الإفطار؟ "

" نعم، أمي. كيف كان التخرُّج، جيم؟ "

" جيد "

" كنت أود أن أذهب لكني لا أدري لماذا أكونُ منشغلة طوال الوقت، حين... "

" طبعاً، طبعاً "

انضمَّت كاري إلى أمها في المطبخ وسمعهما جيم تتجادلان بصوتٍ منخفض؛ كانتا دائماً تتجادلان. وأخيراً، وصل جون. إنه في الرابعة عشرة، نحيل، عصبيّ، كئيب متأصِّل، فيما عدا عينيه السوداوين.

" مرحبا "، وجلس بعنف.

قال والده، مواصلاً شنَّ الحرب " أنا سعيد بوجودك معنا "

كان جون مُحارباً ماهراً في المنزل، وفحلاً في إطلاق مدفعيته. "اليوم السبت؛ الكلُّ يتأخر في النوم "

" طبعاً ". نظر السيد ويلارد إلى جون ومن ثم عاد إلى صحيفته وقد أرضاه ما شاهد.

جَلَبَتْ كاري مزيداً من القهوة إلى والدها ومن ثم جلست إلى جانب جيم. " متى ستبدأ العمل في المخزن، جيمي؟ "

" صباح يوم الاثنين ". تمنّى لو أنها تكفُّ عن مناداته بجيمي.

" سيكون ذلك أمراً جميلاً. إنه عملٌ ممل، ولكن أعتقد أنك يجب أن تكون " مؤهلاً " لأداء المزيد من العمل الذي يتطلّب مهارةً، كأنْ تعمل ضارباً على الآلة الكاتبة في مكتب "

لم يردّ على كلامها. لا كاري ولا والدها قادران على استفزازه اليوم. لقد قابل بوب. والعالم في أحسن حال.

" اسمع، سيلعبون مباراة في البيسبول في المدرسة. ألن تلعب معهم؟ "، وضرب جون قبضة يده على راحة يده الأخرى مُصدِراً صوتاً يدلُّ على الرضا.

"كلا، سأذهب إلى الكوخ، سأقضي فيه عطلة نهاية الأسبوع كلها"

مرة أخرى صُدِمَ السيد ويلارد. " هل لي أنْ أعرف مَنْ الذي سيرافقك؟ "

" بوب فورد. أمي لم تمانع "

" أحقاً؟ يذهلني أنك تريد أن تنام بعيداً عن منزلك الذي كلّفنا غالياً لنوفِّرَ له وسائل الراحة... ". أخذ والده ينشر ببطء راية المنزل ويرفعها. رفض جيم أن يدافع عن نفسه، غير أنه وعد نفسه بأنه سيرمي

ذات يوم هذا الرجل العجوز المملوء بالمرارة الذي أُجبِرَ على العيش معه بطبق. في تلك الأثناء اكتفى بالتحديق إلى سلاحه المستقبليّ بينما كان والده يشرح له كيف أنَّ العائلة هي وِحدةٌ واحدة وكيف أنه يُدينُ لهم جميعاً بدَينٍ، ويحكي له عن الوقت العصيب الذي أمضاه في توفير المال اللازم لمعيشتهم، وأنه على الرغم من أنهم ليسوا أغنياء إلا أنهم محترمون، وأنَّ تسكُّع جيم مع أحد أبناء المدن وهو سكران لا يُشرِّفهم.

أثناء إلقاء السيد ويلارد تقريعه المُطوَّل انضمَّت إليهم السيدة ويلارد وعلى وجهها تعبير ألمٍ رزين. وبعد انتهاء السيد ويلارد قالت "في الواقع، أنا أرى أنَّ الفتى فورد لطيف وعلاقاته جيدة في المدرسة وأمه كانت ذات يوم صديقةً لنا بغضّ النظر عن رأينا في الوالد. لذا لا أرى في مصاحبته لجيم أي خطأ "

قال السيد ويلارد " أنا لا أعترض، بل ظننتُ أنك أنتِ تعترضين على أن ينكشف ابنك على شخصٍ كهذا. ولكن بما أنك لا تعترضين، ليس لديَّ ما أضيفه ". ولما سبَّبَ السيد ويلارد الإحراج لابنه واختلف في الرأي مع زوجته، أخذ يأكل البيض المقلي بسرعة غير اعتيادية.

غمغمت السيدة ويلارد بشيءٍ ما مُهدِّئ وودَّ لو أنَّ والده كان مثل والد بوب؛ ثملاً ولا مبالياً.

سألته أمه، بصوتٍ منخفض، لكي لا تزعج زوجها، " متى ستذهب إلى الكوخ؟ "

" بعد الإفطار "

" وماذا عن الطعام؟ "

" سيجلب بوب معه بعض المواد من المخزن الذي يعمل فيه "

قالت السيدة ويلارد " هذا لطفٌ منه "، وكان جلياً أنها تفكّرُ في أمرٍ آخر تماماً؛ كانت تجد صعوبةً في التركيز فترةً طويلة.

بدأتْ كاري وأخوها الأصغر يتجادلان وسرعان ما انتهى تناول وجبة الإفطار. ثم نهضَ السيد ويلارد وأعلن أنَّ لديه عملاً في دار المحكمة، وهذا غير صحيح؛ فالمحكمة لا تعمل في يوم السبت. لكنَّ زوجته لم تستفسر حول ذلك، وبعد أنْ أومأ برأسه بتحفُّظٍ إلى أولاده اعتمر قبعته القشّية، وفتح الباب الأماميّ وخطا خارجاً ليستقبل الصباح المُشرق.

راقبته السيدة ويلارد برهةً، بوجهٍ خالٍ من التعبير، ثم استدارت وقالت " كاري، تعاليّ وساعديني في التنظيف. وأنتما أيها الولدان، الأفضل أن تُرتِّبا غرفتكما "

كانت غرفة الولدان صغيرة وإضاءتها ليست جيدة. السريران، القريبان من بعضيهما ويفصل بينهما منضدتان للكتابة، جعلا الغرفة مزدحمة. وكانت صور لاعبي البيسبول وكرة المضرب تغطي الجدران، وهم معبودو جيم منذ وقتٍ مبكِّر.

أما جون فلم يكن لديه معبودون؛ كان مُجداً ومجتهداً وينوي أن ينضمَّ إلى البرلمان، مما أدخل السرور إلى قلب والده، الذي طالما حدَّثه حول كيفية النجاح في مجال السياسة. جيم لم تكن لديه خطط لِما بعد التخرُّج من المدرسة. بدا له ذلك بعيداً جداً

رتَّبَ جيم سريره بسرعة؛ جون استغرق وقتاً أطول.

" ماذا ستفعلان أنت وبوب هناك عند النهر؟ "

" لا أدري ". سوَّى جيم اللحاف المُرقَّع. " نصطاد سمكاً. نتسكَّع "

ردَّدَ جون قول والده " يبدو لي هذا هدراً للوقت "

قال جون ساخراً " أليس هذا أمراً مؤسفاً؟ " وهو يفتح الخزانة ويتناول ملاءتين عن الرف، مساهمته في عطلة نهاية الأسبوع.

جلس جون على السرير وراح يراقبه. " بوب يقابل كثيراً سالي مرغندال، أليس كذلك؟ "

" أعتقد ذلك. إنها تقابل الكثيرين "

" هذا ما أعنيه ". ألقى جون نظرة عارفة وجيم ضحك.

" لا تزال صغيراً جداً على سماع مثل هذه الأشياء "

" دون أدنى شك "، وأثبت جون رجولته بالسباب.

" أنت عاشق حقيقي ولا تدع فتاة إلا وتلاحقها "

غضب جون. " إنَّ هذا أكثر مما تفعله أنت وأنت أكبر مني سناً. إنك حتى لا تخرج مع الفتيات. لقد سمعتُ سالي ذات مرة تقول إنكَ أشد الشبان وسامةً في المدرسة ولا تفهم لماذا لا تظهر بين الناس كثيراً. قالت إنها تعتقد أنك تخشى الفتيات "

احمرَّ وجه جيم خجلاً. " إنها مملوءة بالهراء. إنني لا أخشاها ولا أخشى أحداً. ثم إني أقوم بجولاتي في الجانب الآخر من المدينة "

" أحقاً؟ ". أبدى جون اهتمامه وفرح جيم لأنه كذب.

" طبعاً ". كان جاداً. " بوب وأنا نذهب إلى هناك كثيراً. وكل أفراد فريق البيسبول يفعلون. إننا لا نريد أن نعبث مع فتيات " طاهرات " "

" طبعاً "

" ثم إنَّ سالي ليست مستهترة كثيراً "

" كيف تعرف ذلك؟ "

" فقط أعرف "

" أراهن على أنَّ بوب قال هذا عنها "

رتَّبَ جيم سطح طاولة كتابته، متجاهلاً أخاه. كان مضطرباً ولم يعرف السبب؛ نادراً ما تمكَّنَ جون من استفزازه.

نظر جيم في المرآة المغبرَّة المعلَّقة فوق طاولة الكتابة وتساءلَ إنْ كان بحاجة إلى حلاقة ذقنه الأسبوعيّة. قرَّر أنَّ في استطاعته أن ينتظر إلى أن يعود. ومرَّرَ بشرود يده على شعره الأشقر القصير. هل هو وسيم؟ قال في نفسه إنَّ قسمات وجهه عاديّة بشكلٍ مثاليّ؛ فقط جسمه كان يُرضيه؛ إنه نتيجة التدريب المكثَّف.

" متى سيمرّ بوب عليك؟ ". كان جون جالساً على سريره، يوازن مضرب أخاه لكرة المضرب بيده.

" الآن "

" يبدو أنَّ المكان هناك جميل. لم أذهب إلى الكوخ إلا مرة واحدة. أعتقد أنَّ أي إنسان يستطيع أن يذهب إلى هناك "

" طبعاً "

" يُقال إنَّ مالك الأرض يعيش في نيويورك ولا يأتي إلى هنا أبداً. سوف ألعب البيسبول بعد ظهر هذا اليوم وبعد ذلك سأحضر اجتماعاً في الحزب الديموقراطي يُعقد في خلفيّة الصيدلية ". كان ذهن جون سريعاً وغير مستقر.

" يبدو أنَّ هذا أمر ممتع ". وضع جيم مضربه في الخزانة، ثم حمل الملاءتين وهبط الدرج.

كانت كاري في غرفة الجلوس، تعمل بتكاسلٍ على إزالة الغبار عن الأثاث.

" أوه، ها أنت، جيم "

توقَّفَ. " أهناك مَنْ يبحث عني؟ "

" لا. أنا فقط قلت ها أنت ". حطَّتْ مُزيلة الغبار، وقد أسعدها أن تجد ذريعةً للتوقف عن العمل. " هل ستذهب إلى الحفل الراقص في المدرسة الثانوية؟ "

هزَّ رأسه نفياً.

قالت " صحيح، أنت وبوب ستذهبان إلى الكوخ. أراهن على أنَّ سالي تغار منك لأنك تحولُ دون ذهابه إلى الحفل الراقص "

لم يسمح جيم لوجهه أن يُبدِّلَ تعبيره. قال بصوتٍ متوازنٍ " كانت فكرته. لعلَّك تكتشفين السبب لاحقاً ". كان الغموض هو سِمة اليوم كله.

هزَّت كاري رأسها إيجاباً. " أعتقد أني أعرف. إنني أسمع قصصاً عن رحيل بوب. قالت سالي شيئاً حول هذا مؤخراً "

" قد يرحل، وقد لا يرحل ". دُهِشَ جيم لأنَّ كاري وسالي يعلمان الأمر؛ تساءلَ كم شخصاً آخر أخبر بوب.

تثاءبت كاري وعادت إلى إزالة الغبار. توجَّه جيم إلى المطبخ مُتأبطاً الملاءتين. لم تكن أمها قد انتهت بعد من عمل التنظيف.

" يجب أن تعود بحلول مساء يوم السبت. جدَّك قادم ويريد منك والدك أن تكون حاضراً. أهذه من الملاءات الجيدة التي تأخذها معك؟ "

" كلا، إنها قديمة "

من نافذة المطبخ رأى جيم بوب حاملاً حقيبةَ أوراق كبيرة.

" أنا ذاهب "

" انتبه إلى الحذاء المضاد للماء! "

كانت شمس الصباح حارة، لكنَّ الهواءَ بارد. وكان النهار يعجُّ بالألوان ويسوده الضياء. سوف يجتمع جيم ويلارد ببوب وعطلة نهاية الأسبوع لم تبدأ بعد. كان سعيداً.

- ٣ -

وَقَفَا عند حافة الجُرف ونظرا أسفلاً إلى النهر البنيّ اللون، الموحل بفعل أمطار الربيع والصاخب حيث يتحطَّم على الصخور السوداء في منتصف الدفق. تحتهما، ينحدر الجُرف بحدَّةٍ إلى النهر، كجدارٍ من الحجارة، أخضر اللون داكن من جراء ما ينمو عليه من الغار والكرمة البريّة.

قال بوب " لابد أنَّ هناك فيضاناً في أعلى المجرى؛ النهر العتيق يبدو متخبطاً "

" قد نشاهد منزلاً يطفو على سطحه "

قهقه بوب " أو مرحاضاً ". جلس جيم على الصخور وانتزع قطعة من العشب الطويل وأخذ يمضغ الساق البيضاء الحلوة المذاق. جلس بوب القرفصاء إلى جانبه. أخذا معاً يصغيان إلى هدير النهر وضجيج ضفادع وحفيف أوراق النباتات الجديدة والبرَّاقة في وجه الريح.

" كيف حال سالي؟ "

هرَّ بوب " مثيرة جنسياً، ككل البنات. توصلك إلى أن تقول، الآن أستطيع أن أضاجعها ومن ثم، حين تصبح حامياً جداً، ينتابها الخوف : أوه، ماذا تفعل لي؟ أوه، توقف! توقف الآن! " تنهَّد بوب تقزُّزاً. " أؤكد لك أنَّ الرجل يصبح مُثاراً إلى درجة أنه يكون مستعداً لمضاجعة بغل، إذا استطاع أن يقف بهدوء ". كان بوب يُقلِّب التفكير في البغال. ثم :

"لماذا لم تأتِ إلى الحفل الراقص مساء أمس؟ كثيرٌ من الفتيات سألن عنك "

" لا أدري. أعتقد أني لا أحب الرقص. لا أدري "

" أنت شديد الحياء "

رفع بوب كُمّ البنطال وأزال نملة سوداء كبيرة كانت تزحف مرتقيةً ربلة ساقه. لاحظ جيم مدى بياض بشرة بوب، كالرخام، حتى تحت أشعة الشمس.

ثم، ولكي يكسرا الصمت، أخذا يرميان حجارة عبر حافة الجرف. كان صوت حجر يرتطم بحجر آخر يوفر رضّاً تاماً. أخيراً هتف بوب " هيا بنا!"، وراحا يزحفان من فوق حافة الجرف ويشقان طريقهما بصعوبة إلى أسفل، متمسّكين بالشجيرات، يتلمّسان موطئاً لإصبع القدم الكبير في الصخور.

كانت أشعة الشمس الحارة تسطع على صفحة السماء الشاحبة، وحامت الصقور بينما الطيور الصغيرة تتنقّل بين الأشجار وبسرعة البرق. وكانت الأفاعي والسحالي، والأرانب كلها تعدو سعياً إلى الاحتماء لدى سماعها ضجيج الفتيين يهبطان. وأخيراً وصلا إلى ضفة النهر الموحل. كانت صخور سوداء طويلة تنتأ من الرمل البنّي. راحا يقفزان بسعادة من صخرةٍ إلى أخرى، دون أن يلمسا الأرض مرة واحدة، ولا يطآن إلا بقايا عصر جليدي.

بُعيد الظهيرة وصلا إلى كوخ العبد، وهو منزل صغير ذو سقفٍ من ألواحٍ خشبيّة أحدثت فيه تقلُّبات الطقس ثقوباً. كان الداخل يفوح برائحة الجص العفن والزمن الطويل؛ وكانت أوراقُ صحفٍ صفراء وعلب تنك صدئة مبعثرة على أرجاء الأرضية الخشبية. في الموقد الحجري كان هناك رماد حديث العهد : من مسافرين عابرين وعشاق مكثوا هنا.

حطَّ بوب حقيبة الأوراق التي كان يحملها بينما وضع جيم الملاءات على أنظف بقعة من الأرض.

رفع بوب بصره إلى السقف. " لم يتغيَّر كثيراً ". كانت الشمس تسطع من خلال الثقوب. " فلنأمل ألاّ تُمطِر "

بالقُرب من الكوخ كانت هناك بركة كبيرة، تحفُّ بها أشجار الصفصاف وتحتشد عليها أزهار الليلك. جلس جيم على الضفة التي تغطيها الطحالب بينما بدأ بوب يخلع ملابسه ويرميها على شجرة قريبة؛ البنطال المخطط كالعلم وَضَعَه على أحد الأغصان والجورب علَّقه كالعلم من آخر. ثم تمدَّد بسعادة، وهو يَثني عضلاته ويتباهى بنفسه وسط المياه الخضراء المتدفقة. وعلى الرغم من كونه نحيلاً كان قويّ البنية وكان جيم مُعجباً به دون حسد. وعندما كان بوب يتحدث عن شخص يتمتع ببنية جيدة تظهر دائماً في صوته نبرة حَسَد؛ ولكن حين نظر جيم إلى جسد بوب شعر كأنه ينظر إلى أخ مثاليّ، إلى توأم، وكان راضياً. لم يلاحظ أنَّ هناك شيئاً ناقصاً. كان يكفيه أن يلعبا كرة المضرب معاً وألاّ يكف بوب عن التحدُّث إليه عن الفتيات اللواتي يعجبنه.

وضع بوب بحذر إحدى قدميه الطويلتين في الماء. قال " الماء دافئ. دافئ حقاً. تعال وانزل "، ثم مال فوق الماء ويداه فوق ركبتيه، وتأمَّل انعكاس صورته فيه. تجرَّدَ جيمي من ملابسه، وحاول أن يُثبِّت صورة بوب في ذهنه بشكلٍ دائم، وكأنَّ ذلك هو لقاؤهما الأخير. أخذ يحفظه، نقطة فنقطة : كتفان عريضان، ردفان ضيّقان، ساقان نحيلتان، جنس انتقالي.

انضمَّ جيم وهو عارٍ إلى بوب عند حافة الماء. النسيم الدافئ على بشرته العارية جعلته يشعر فجأةً بأنه حرٌّ وقويّ بصورة غريبة، كحالمٍ يعي أنه يحلم.

نظر بوب إليه متأملاً. " لون بشرتك جيد. لون بشرتي أبيض واضح. هيه! "، وأشار إلى الماء. شاهد جيم تحت سطح المياه الخضراء فجأةً الشكل المثلّم بطيء الحركة لسمكةِ سلّور. ثم فجأةً إذا به يسقط ويندفع الماء إلى داخل أذنيه. كان بوب قد دفعه. ظهر إلى السطح بعد أن كاد يختنق. وبحركةٍ سريعةٍ قبض جيم على ساق بوب وجرَّه إليه. أخذا يتصارعان؛ يلتفّان ويلتويان داخل الماء، مُحدثَين الزَبَد في البركة. وبينما هما يتقاتلان كان جيم يستمتع بالتماس الجسدي. وكذا كان بوب، كما بدا واضحاً. ولم يتوقفا إلا بعد أن استنزفت قواهما.

أمضيا باقي ذلك اليوم في السباحة، وفي اصطياد الضفادع، والتشمُّس والمصارعة. كانا نادراً ما يتكلّمان. ولم يسترخيا إلا بعد أن بدأ الضوء يخبو.

تمدَّد بوب على طوله. قال " لا شك في أنَّ هذا المكان جميل. أعتقد أنه لا وجود لأي مكانٍ يعادله في الجمال والسكينة "، وربتَ على بطنه المشدود وتثاءب.

وافقه جيم، وهو في حالةِ سلامٍ تام؛ لاحظَ أنَّ بطن بوب يرتعش بانتظام نبضه. نظر إلى نفسه : الظاهرة نفسها. قبل أن يتمكَّن من التعليق على ذلك رأى قُرَّادةً تتجه نحو عانته فضغط عليها بشدَّة إلى أن فرقعت.

" قضيتُ على قُرَّادة "

قفز بوب واقفاً على قدميه، فالقرّاد يسبِّبُ الحمّى، وأخذا يتفحَّصان نفسيهما، لكنهما لم يعثرا على أي شيء. وارتديا ملابسهما.

كان الجو ذهبيَّ اللون. حتى جدران الكوخ الشاحبة اصطبغت باللون الذهبي مع آخر خيوط أشعة الشمس. الآن شعرا بالجوع. أضرمَ جيم ناراً بينما صنع بوب هامبرغر في المقلاة العتيقة. كان يفعل كل شيء بسهولة، وخبرة. في المنزل كان يطبخ لوالده.

تناولا طعام عشائهما، وهما جالسان على جذع شجرة مواجهين النهر. كانت الشمس قد غربت. أخذت الحباحب تندفع كالشرر الأصفر في ظل الغابة الأخضر.

أخيراً قال بوب " سأفتقد هذا "

نظر جيم إليه. لم يكن يخرق السكون غير هدير اندفاع مياه النهر.

" قالت أختي إنَّ سالي وأنت سترحلان بعد التخرُّج مباشرةً. قلت لها إنني لا أعلمُ أي شيء عن الأمر. أحقاً سترحل؟ "

هزَّ بوب رأسه إيجاباً ومسح يديه ببنطاله. " في يوم الاثنين، على خط أولد دومنيون للحافلات "

" إلى أين؟ "

" إلى البحر "

" كما كنا نقول دائماً "

" كما كنا نقول دائماً. أوه، لقد قلتُ لك إني سئمت هذه البلدة. إنَّ علاقتي بوالدي ليست على ما يرام ويعلم الله أنه لا مجال لعمل أي شيءٍ هنا. لذا سأرحل. أنت تعلم أني لم أخرج من هذه الولاية إلا لأذهب إلى واشنطن. أريد أن أشاهد العالم "

أومأ جيم إيجاباً. " وكذا أريد أنا. لكني حسبتُ أننا سنلتحق بالجامعة أولاً وبعد ذلك... حسن، ننطلق في رحلة "

قبض بوب على ذبابة حباحب بيده وتركها ترتقي أعلى إبهامه ومن ثم تطير ثانية.

أخيراً قال " الجامعة تعني عملاً كثيراً. سوف يتوجَّب عليَّ أن أشقَّ طريقي بصعوبة وهذا يعني وظيفة، أي أنه لن تُتاح لي الفرصة للَّهو. ثم إني لا أريد أي شيء مما يريدون تعليمي إياه. كل ما أريده هو أن أسافر وأستمتع "

" وأنا أيضاً ". تمنَّى جيم لو أنه يستطيع أن يبوح بما يريد أن يقول. " لكنَّ والدي يريدني أن ألتحق بالجامعة وأعتقد أنه ينبغي أن أفعل. لكني أتمنى لو أننا نذهب معاً... أقصد، لنشكِّلَ فريقاً في مباريات الزوجي في كرة المضرب. وقد نُحرز البطولة. الجميع يقولون هذا "

هزَّ بوب رأسه رفضاً وتمدَّدَ. قال " يجب أن أرحل؛ لا أدري لماذا ولكن هذا ما أريده "

" أحياناً أشعرُ مثلك ". جلس جيم إلى جانب بوب على الأرض وأخذا معاً يراقبان النهر والسماء وهي تزدادُ حلكة.

أخيراً قال بوب " تُرى كيف تبدو نيويورك "

" كبيرةً، أعتقد "

" مثل واشنطن. تلك مدينةٌ كبيرة حقاً ". تقلَّبَ بوب على جنبه، ليواجه جيم. " هيه، لِمَ لا تأتي معي؟ نستطيع أن نستقلّ سفينة ونعمل في الكبائن أو كعمّال عاديين "

شعر جيم بالامتنان لأنَّ بوب قال هذا، لكنه كان بطبيعته حذراً.

"أعتقد أني يجب أن أنتظر حتى العام القادم إلى أن أنال الشهادة الثانوية، فهي هامة النسبة إليَّ. طبعاً والدي يريدني أن أذهب إلى الجامعة. يقول إنَّ عليَّ... "

" لماذا تهتم بهذا الابن الحرام؟ "

صُدِمَ جيم وابتهج. " في الواقع، إني لا أهتم، وقريباً لن أراه أبداً". لقد ألغى والده، بسهولةٍ مفاجئة. " ولكن مع ذلك، أنا خائف، بهروبي هكذا "

" لا شيء يُضاهي ذلك "، وأخذ يشدُ عضلات ذراعه الأيمن، " إنَّ شاباً مثلك ذا ذكاء وبنيةٍ قوية يستطيع أن يفعل تقريباً كل ما يشاء. أنا عرفتُ شباناً من هذا النوع كانوا بحارةً من نورفوك، وقد قالوا إنه لا شيء يُضاهي ذلك؛ فالعمل سهل وحين تنزل إلى الشاطئ تقضي وقتاً ممتعاً طوال الوقت، وهذا ما أريده. أوه، لقد سئمتُ التسكُّع في هذه البلدة، والعمل في المحال التجارية، والخروج مع فتياتٍ طاهرات. لكنهن لسن طاهرات حقاً، بل فقط خائفات من الحَبَل "، وضربَ بعنفٍ الأرض بقبضة يده. " خُذ عندك سالي مثلاً! إنها مستعدة أن تفعل كل ما تريده منها ما عدا الشيء الوحيد الذي عليك أن تناله. وهذا بالضبط ما يُثير جنوني بحقّ. إنها تثير جنوني. كل الفتيات هنا يُثرن جنوني! ". مرةً أخرى ضرب التربة الداكنة.

قال جيم، الذي لم يكن يعرفُ كيف هو الأمر، " أنا أعرفُ كيف هو الأمر. ولكن ألا تخشى أن تُصاب بمرضٍ ما من إحداهن في نيويورك؟ "

ضحك بوب " أنا حريص، يا رجل! "، وانقلبَ على ظهره.

راقبَ جيم الحباحب ترتفع من العشب القريب. كان الليلُ قد حل.

قال " أتعلمْ، أتمنى أن أذهب إلى الشمال. أود أن أرى نيويورك وأفعل ما أريد ولو مرة واحدة "

" فلماذا لا تفعل؟ "

" كما قلت، أخافُ أن أترك منزلي وعائلتي، وهذا لا يعني أني أحبهم كثيراً ولكن... "، وتجرجرَ صوته متراجعاً بيقينٍ منعدم.

" تستطيع أن تأتي معي إنْ شئت "

" في العام القادم، بعد أن أتخرَّج، سآتي "

" هذا إذا وجدتني. لا أدري أين سأكون حينئذ. أنا لا أثبَت في مكانٍ واحد "

" لا تقلق، سأعثر عليك. على أي حال، سأكاتبك "

ثم سارا حتى الشاطئ الضيِّق المكوَّن من صخورٍ ضخمة. اندفعَ بوب بسرعة إلى صخرةٍ مُسطَّحة وتبعه جيم. دوَّمَ النهرُ من حولهما وهما جالسان جنباً إلى جنب في قلب الليل الأزرق.

أخذت النجوم تتلاشى، واحداً إثر آخر. كان جيم في حالةٍ من الرضا التام، لم تعُد الوحشةُ تتقلَّبُ في أحشائه، حادَّةً كالسكِّين. كان دائماً يتخيَّلُ التعاسةَ أشبه " بغثيان القطران ". فحين يميعُ قطران الطرقات في الصيف كان يمضغُ القطران ويشعر بالغثيان. ولسببٍ ما غامض كان دائماً يقرن " غثيان القطران " بالشعور بالوحشة. لم يعد ذلك يحدث.

خلعَ بوب حذاءه وجوربه وترك النهرَ يُبرِّد قدميه. فعل جيم مثله.

كان بوب يُكرِّر " سأفتقد هذا كله "، وهو يحيطُ كتفيّ جيم بذراعه.

كانا ساكنين لا يأتيان بأي حركة. وجدَ جيم ثقل ذراع بوب على كتفيه لا يُحتَمَل : رائعاً لكنه لا يُحتَمل. لكنه لم يجرؤ على الإتيان

بحركة مخافةَ أن يرفع الآخر ذراعه. فجأةً نهضَ بوب واقفاً على قدميه. " هيا نضرم ناراً "

في فورةٍ من النشاط راحا يضرمان ناراً أمام الكوخ. ثم أحضرا الملاءتين إلى الخارج وفرشاهما على الأرض.

قال، وهو يُركِّزُ بصره على اللهب المرتعش ذي الأثر المنوِّم، وكلُّ يتملَّكه حلمُ يقظته الخاص. حلم بوب انتهى أولاً. التفت إلى جيم. قال مُهدِّداً " هيا، سأصارعك "

تواجها، وتشابكا، وسقطا على الأرض. تدافعا وتشادا للفوز؛ كانا متعادلين، لأنَّ جيم، على الرغم من أنه الأقوى، لم يكن يسمح لبوب أن يخسر أم أن يفوز. حين توقفا أخيراً، كان كلاهما يلهثُ ويتفصَّدُ عرقاً. استلقيا على الملاءة مُرهقين.

ثم خلع بوب قميصه وفعل جيم الأمر نفسه. كان ذلك أفضل. مسح جيم العرق عن وجهه بينما تمدّد بوب على الملاءة، مستخدماً قميصه كوسادة. ومضَ توهُّج النار على البشرة الشاحبة. تمدَّد جيم إلى جواره. قال " الحرّ شديد، لا يصلح للمصارعة "

ضحك بوب وفجأةً تمسَّكَ به. وتشابكا. كان جيم يعي وعياً غامراً جسد بوب. بقيا برهةً يتظاهران بأنهما يتصارعان. ثم كفَّا معاً. ولكن ظلَّ كلٌ منهما مُمسكاً بالآخر وكأنما في انتظارِ إشارةٍ لينفصلا أو ليبدءا من جديد. بقيا فترةً طويلةً لا يأتيان بأي حركة. الصدران الأملسان متلامسان، والعرق يمتزج، والأنفاس متسارعة معاً.

وبحركةٍ سريعة، ابتعدَ بوب. تلاقت عيونهما خلال لحظة جليّةٍ ثم، بتأنٍ، وبطءٍ، أغمض بوب عينيه ولمسه جيم، كما كان قد فعل مراتٍ

كثيرةٍ في أحلامه، بلا كلام، بلا تفكير، بلا خوف. حين تُغمَضُ العيون، يبدأ العالم الحقيقي.

حين تلامس الوجهان أطلقَ بوب تنهيداً مرتعشاً وقبضَ على جيم من ذراعه بشدَّة. الآن أصبحا كاملين، كلٌ منهما أصبح الآخر، حين تصادم الجسدان بعنفٍ بدائيّ، شبيهٌ مع شبيه، معدن مع مغناطيس، نصفٌ مع نصف، واستُعيدَ الكلُّ.

وهكذا تقابلا. عيونٌ مُغمَضة في وجهِ عالمٍ غريب. هزَّتْ ريحٌ دافئةٌ ومُفاجئة الأشجارَ كلّها، وبعثرت رماد النار، وألقت ظِلالاً على الأرض.

لكنَّ الريح هدأتْ، وأصبحت النارُ جمراً، وسكنت الأشجار. لم يخدش أيُ نيزكٍ ظُلمةَ السماء الجميلة، ومرَّتْ اللحظة؛ ماتت في وجيبِ قلبٍ مزدوجٍ سريع.

مرة أخرى فُتحت العيون. جسدان واجه أحدهما الآخر حيث قبل لحظةٍ واحدةٍ ضجَّ الكونُ بالحياة؛ انفجر النجم وتضاءلَ، وهو يدورُ بهما معاً بحركةٍ لولبيةٍ نحو الأسفل إلى التضاؤلِ، إلى الانفصالِ إلى الليلِ والأشجارِ وتوهُّج النار؛ وهذا أقلّ بكثير مما حدث.

انفصلا، وهما يلهثان. كان في استطاعة جيم أن يشعر بحرارةِ النار على قدميه ومن تحت الملاءة أصبح الآن يُدركُ بشكلٍ مزعجٍ وجودَ حصى وعيدان صغيرة. نظر إلى بوب وهو غير متأكّد مما سيراه.

كان بوب يحدِّقُ إلى النار، ووجهه خالٍ من التعبير. لكنه سرعان ما رسم ابتسامةٍ عريضةٍ حين رأى جيم يراقبه. قال " لقد أحدثنا فوضى هائلة "، وفرَّت اللحظة.

نظر جيم إلى نفسه وقال بنبرةٍ جعلها عارضةً قدر استطاعته "معك حق"

نهضَ بوب واقفاً، ووهجُ النار يلمع على جسمه. " هيا نغتسل "

سارا، كشبحَين شاحبين وسط الليل الحالك، نحو البحيرة. كان في استطاعتهما أن يشاهدا الضوء المنبعث من النار التي أضرماها؛ أصفرَ وخفّاقاً، ونقّت الضفادع، وأزّت الحشرات، وهدرَ النهر. غاصا في المياه السوداء الساكنة. لم يكسر بوب الصمت إلا بعد أن عادا إلى النار. كان مُفاجئاً.

" أنت تعلم أنَّ ما فعلناه كان تصرّفاً صبيانياً محضاً "

" أعتقدُ ذلك ". سكتَ جيم برهة. " لكنّه أعجبني ". الآن وقد أخرَجَ حُلمَه السرِّي إلى أرض الواقع أصبحَ يتمتَّعُ بشجاعةٍ هائلة. " ألم يعجبك؟ "

تجهَّمَ بوب في وجه النار الصفراء. " كان شيئاً مختلفاً عمّا يحدث مع فتاة. واعتقدُ أنه أمرٌ غير سليم "

" ولِمَ لا؟ "

" لا يجوزُ أن يفعلَ الشبّانُ ذلك مع بعضهم؛ إنه أمرٌ غير طبيعي "

" أعتقدُ ذلك ". نظرَ جيم إلى جسَد بوب المصبوغ بلونِ النار، الطويل الأعضاء والملفوف بالعضل. أحاط خصرَ بوب مُعتمداً على شجاعته المُكتَشَفة حديثاً. مرةً أخرى أُثيرَ، وتعانقا وسقطا على الملاءة.

استيقظَ جيم قُبيلَ الفجر. كانت السماءُ رماديّة والنجوم تخبو. كانت النار قد خَبَتْ تقريباً. لَمَسَ ذراعَ بوب وراقبه وهو يستيقظُ. تبادلا النظر. ثم ابتسمَ بوب ابتسامةً عريضةً وقال جيم " أما تزال مُصراً على السفر في يوم الاثنين؟ "

هزَّ بوب رأسه إيجاباً.

" ألنْ تُراسلني؟ أودُّ أن ألتحِقَ بكَ على متن السفينة نفسها في العام القادم "

" حتماً سأراسلك "

" أتمنَّى ألاَّ ترحل... بعد ما حدث، كما تعلم "

ضحكَ بوب وهو يقبضُ على عنقه. " يا إلهي لدينا يوم الأحد كله". كان جيم راضياً وسعيداً لأنه سيُمضي يوم الأحد بطولِه في ذلك الحلم اليقظ.

الفصل الثالث

- ١ -

بعثَ بوب رسالةً واحدةً من نيويورك : كانت الظروف صعبةً، أما الآن فيبدو أنه سيُبحِرُ على خط أميركان إكسبورت. حتى ذلك الحين هو يقضي وقتاً رائعاً وقد قابلَ الكثير من الفتيات، ها - ها. أجابه جيم بسرعة، لكنَّ الرسالةَ عادتْ إليه مع عبارة " العنوان مجهول ". لم تصله رسالةٌ واحدة. تأذَّى جيم، لكنه لم يُفاجَأ كثيراً. لم يكن بوب مرةً كاتباً جيداً للرسائل، خاصةً الآن بعد أن تشرَّبَ تلك الحياة الجديدة التي سيتقاسمانها قريباً، ذلك أنَّ جيم كان قد قرَّرَ أنه حالما ينتهي من المرحلة الثانوية سوف يلتحقُ ببوب.

في أشدِّ أيامِ شهر حزيران التالي نُضرةً ودِفئاً تخرَّجَ جيم من المرحلةِ الثانوية وبدأ فترةَ أسبوعَين من المجادلة مع والده. وكسب جيم المعركة. سوف يذهبُ إلى نيويورك لقضاء فصلِ الصيف وللعمل، على أن يضعُ في حسبانه أنه سوف يعودُ في الخريف إلى فيرجينيا ويلتحقُ بالجامعة. وطبعاً سوف يتوجَّبُ عليه أن يُعيلَ نفسه في الجامعة، ولكن ليس كلّ أب يرغبُ في تقديمِ مثل تلك الفرصة إلى ابنه. وهكذا، في وقتٍ مُبكِّرٍ من صباحِ أحدِ الأيام الوضَّاءة الشاحبة، وصافحَ يدَ والد،

وألقى بشكلٍ عابرٍ كلمات وداع على أخيه وأخته، واستقلَّ الحافلة المُتَّجهة وفي جيبه خمسةٌ وسبعونَ دولاراً، وهو مبلغٌ أكثرُ من كافٍ، في رأيه، إلى أنْ يعثُرَ على بوب.

*

كانت مدينةُ نيويورك حارّةً، وشاحبة، وقذرة. وَجَدَها جيم (من أينَ أتى هؤلاء الناس؟ إلى أين يهرعون جميعاً؟) مدهشةً وتبعثُ على الانقباض وسطَ حرّ الصيف. غير أنه ليس سائحاً. إنه في مُهمَّة بحث. بعد أن استأجرَ غرفةً في جمعية الشبّان المسيحيين ذهبَ إلى مكتب البحّارة وعَلِمَ هناك أنه لا وجودَ لاسمِ بوب فورد عندهم. للوهلة الأولى شعرَ بالرُعب، ولكن أحدَ المتمرِّسين في المهنة شَرَحَ له أنَّ الرجالَ غالباً ما يُبحرون مُستخدمين أوراق ثبوتيّة لرجالٍ آخرين. وعلى أي حال، إنَّ أفضَلَ ما يمكنه أن يفعله هو أنْ يُقدِّمَ طَلَباً للعمل كخادم في سفينة. وعاجلاً أو آجلاً سوف يجتمعُ ببوب. كان البحرُ صغيراً بشكلٍ مدهش، والممرات دائماً يتمُّ عبورها. ووُضِعَ اسم بوب على اللائحة. سوفَ ينتظرُ، ربما طويلاً. وأثناء إعداد أوراقه، زارَ بعض الحانات، وسَكِرَ مرّتين (ولم يُعجبه ذلك)، وشاهدَ عدداً كبيراً من الأفلام السينمائيّة، وأصبحَ مُشاهداً مُهتمّاً بالحياة في الشارع. ثم، بعد أنْ استنفذ نقوده، قُبِلَ للعمل كصبي سفينة.

كان البحرُ تجربةً مُذهلة. يستغرقُ الأمرُ بعضَ الوقت للتعوُّد على الارتجاف المستمرّ للمحرِّكات تحتَ الجدران الفولاذية، واندفاع سفينةٍ بأقصى سرعةً وسقوطها في وجه الريح، والمُحتَجَز الضيِّق في مُقدَّم السفينة الذي يضمُ ثلاثينَ شخصاً غريباً، بذيئي الألسُن لكنَّهم غالباً ودودون. وانتهى به الأمر إلى الاستمتاع بالحياة. وفي بناما عَلِمَ أن

نوتياً عادياً اسمه بوب فورد قد مرَّ حديثاً من البوابة، في طريقه إلى سان فرانسيسكو. وكان حظُ جيم يبتسم له. انتقلَ إلى سفينةِ شحنٍ متوجّهةٍ إلى سياتل عبر سان فرانسيسكو. لكنَّ الأثرَ انتهى في سان فرانسيسكو. ولم يعثُر على أي أثر لبوب. وأخذ يتجوَّلُ في المدينة والغمُّ يملأ قلبه، وزارَ الحانات المُطلَّة على شاطئ البحر، آملاً في أن يلمحَ فجأةً بوب. وذات مرة حَسِبَ أنه شاهده في زاويةٍ قصيّةٍ من إحدى الحانات، حين اقتربَ، وقلبه يخفقُ بقوةٍ، التفتَ الشخصُ نحوه وكان وجهه غريباً.

عملَ جيم كصبي سفينة على متنِ خطِ ألاسكا وأمضى باقي العام في البحر. لم يعُد يُكاتبُ والديه، وانغمسَ كلياً في الحياة الجديدة. وحده غيابُ بوب ألقى بظلِّه الثقيل على فترة وجوده على متن السفينة كلها خلال أول فصلِ شتاء ناصع البياض من عُمر حريته.

في يوم عيد الميلاد كانت السفينةُ موجودةً قبالةَ الشاطئ الجنوبي الشرقي من ألاسكا، في طريقها إلى سياتل. كانت جبالُ مُدبَّبةُ القِمم تنهضُ من المياه الداكنة. وكانت البحرُ هائجاً، والرياحُ تشتدّ، والمسافرون الذين لم يُصابوا بدوارِ البحر تناولوا طعامَ الإفطار في قاعةِ الطعام. جلسوا حول الموائد وألقوا نكاتاً ممتازة عن حركة السفينة ورفاقهم الساقطين، بينما حشدٌ من الخدم يتراكضون جيئةً وذهاباً بين المطبخ والقاعة، حاملين أطباقَ الصيني المُثقَلة بالطعام.

واحدٌ فقط من مُسافري جيم جاء ليتناولَ طعامَ الإفطار؛ امرأةٌ بدينةٌ، ضخمةٌ وذات بشرة قاسية. كانت مرحةً جداً. قالت بإشراق " صباحُ الخير، جيم. طقسٌ شنيع، أليس كذلك؟ أعتقدُ أنَّ كلّ المستقرّين على اليابسة مرضى "

" معك حق، يا سيدتي ". كان قد بدأ يزيلُ بقايا وجبة إفطارها.

" لم أشعرْ مرةً في حياتي أني أفضل حالاً من الآن "، وأخذتْ تستنشقُ جوَّ الحجرة المحصور. " حالة الطقس تناسبني "، وربتتْ على نفسها وألقَتْ نظرةً سريعة على جيم وهو يرفعُ الصينية. " متى ستُصلِح فتحة التهوية في حجرتي، ذلك الجزء المكسور ويُقرقعُ طول الوقت؟ "

" سأحاولُ، حين سأرتِّبُ حجرتك "

" جيد ". قالتْ المرأةُ البدينةُ هذا وغادرتْ المائدة، وهي تترنَّحُ قليلاً أثناء سيرها، مُعتمدةً على ما سمَّتهما " ساقيّ البحر " خاصتها.

أعادَ جيم الصينية إلى المطبخ. انتهتْ وجبة الإفطار، وصَرَفَه المُشرف العام. هبطَ جيم السلّم وهو يُصفِّر لنفسه متوجهاً إلى مقصورةٍ صغيرة حيثُ وجدَ كولينز، وهو شابٌ مربوع، قصير القامة في العشرين ذو شعرٍ أسود مُجعَّد، وعينين زرقاوين، ويحبُّ نفسه بطريقةٍ مُعديةٍ بشكلٍ مدهش. على ذراعه الأيسر رسَمَ وشماً مُعقَّداً بعرقٍ أزرق كان بمثابةِ ميثاقٍ يربطه بآنّا، وهي فتاةٌ تنتمي إلى الماضي البعيد، حين كان في السادسة عشرة يعيشُ في أوريغون، ولم يكُن بعدُ قد أصبحَ بحّاراً. كان كولينز جالساً على صندوقٍ قائمٍ، يدخِّنُ.

قال كولينز " مرحبا، يا صاحبي "

نَخَرَ جيم وجلسَ على صندوقٍ آخر. أخرَجَ سيجارةً من جيبِ قميصِ كولينز ثم أشعلها بعودِ ثقابه الخاص.

قال كولينز " لم يبقَ غير يومين، وبعد ذلك... "، وأدارَ عينيه ورسمَ أشكالاً بذيئةً في الجو. " لا أطيقُ صبراً حتى أعود إلى سياتل. هيه، ماذا خطَّطوا من أجلِ هذا اليوم؟ كما تعلم إنه عيد الميلاد "

قال جيم بجفاء " صحيح، وحصلتُ أيضاً على تقويم "

قال كولينز بكلامٍ أدقّ " أتساءلُ إنْ كانوا سيُقدِّمون مشروبات. هذه أول مرة أقضي فيها عيد الميلاد في البحر. بعض السفن، غالباً الأجنبية منها، تُقدِّمُ مشروبات للرجال "

زَفَرَ جيم بحُزن. قال وهو يُراقبُ الدخانَ يتلاشى، " أظنُّ أنهم لن يفعلوا. ولكن يجب أن نحصل على بعض المقايضة من المسافرين "

قال كولينز وهو يتثاءبُ " آمل ذلك. وبالمناسبة، كيف تتعامل مع الخنزيرة؟ ". كان صبية السفينة يستمتعون بمازحة جيم حول المرأة البدينة على المائدة؛ فاهتمامها به لم يعُد سراً.

ضحكَ جيم " إنني أُبقيها في حالة ترقُّبٍ قَلِقٍ عميق "

" أتساءلُ إنْ كان معها نقود. قد تستطيع أن تحصل منها على بعض المال ". كان كولينز جاداً، وشعرَ جيم بالاشمئزاز منه، لكنه لم يُظهره لأنَّ كولينز كان أفضل أصدقائه على متن السفينة. ثم إنَّ جيم لم يكن متأكداً من أنَّ كولينز يُنفِّذ الأعمال التي يدَّعيها لنفسه أم لا.

قال جيم " لستُ جائعاً إلى هذا الحد "

هزَّ كولينز كتفيه " أنا دائماً أحتاجُ إلى النقود. أحتاجها طوال الوقت والآن نحن متوجِّهون إلى سياتل وسوف أحتاج إلى أكثر بكثير مما أنال. قد يموتُ أحد الأغنياء ويترك كل ماله لي ". كان كولينز في قرارته لصاً، ولكنَّ التظاهر بحمل الأوهام حول رفاقِ السفينة يُعتَبَرُ سياسةً جيدة. ثم إنَّ كولينز كان مُرشِداً بقدر ما كان صديقاً؛ لقد جعل حياة جيم على متن السفينة أكثر سهولة بإرشاده على طُرُقٍ مختلفة لتجنُّب العمل، بالإضافةِ إلى أماكن كهذه المقصورة للاختباء فيها.

تطلّى جيم " يجب أن أباشرَ ترتيب الأسرَّة "

" هناك متّسعٌ من الوقت. لن يفتّش المُشرف عنك قبل فترة ". دَهَسَ كولينز عقبَ سيجارته. كان يكره التدخين؛ ولكن كان من المهم على متن السفينة جعلُ يديك مشغولتين حين لا يكون لديك عملٌ تقوم به، وخلال أشهر وجوده في عرض البحر مرّت عليه أيامٌ لا حصرَ لها لم يكن لديه خلالها ما يفعله، غير الاستماع إلى الرجال يتحدثون عن النساء وعن ضباط السفن، وعن الموانئ الجيدة والسيئة. وبعد أن يبوحَ كل رجل بما لديه يعود فيكرِّر ما قاله، إلى أنْ يكفّ الجميع عن الإصغاء إليه. أحياناً كان في استطاعة جيم أن يُديرَ حديثاً كاملاً مع كولينز وفي النهاية لا يتذكّر كلمة واحدة مما قالها أيٌ منهما. كانت فترةً من الوحشة.

فجأةً انتبه إلى أنَّ كولينز كان يتكلّم. الموضوع؟ انتظرَ إلى أنْ التقطَ سَمعه كلمة " سياتل ".

" سوف أُريك المكان. إنني أعرفُ المدينة كما لا يعرفها أحد. سأريكَ الفتيات اللواتي أعرفهنّ؛ سويديات، ونورويجيات... كما تعلم، شقراوات "، وشعَّتْ عيناه. " سوف تصبح معروفاً. كنتُ كذلك وأنا في مثل سنك. أوه، كم كُنَّ يتشاجرنَ عليّ. كُنَّ يتراهنَّ على مَنْ سترافقني. أعتقدُ أني كنتُ ساحراً. أنتَ ستكونُ مثلي لأنهنَّ يُحببنَ الشبان الصغار"

كادَ جيم أن يطرحَ مزيداً من الأسئلة لكنَّ المُشرف قاطعهما، وكان اسكتلندياً طويلَ القامة هزيلاً ولا يتمتّعُ بأي حسّ فكاهي.

" ويلارد، كولينز، لِمَ لا تعملان؟ "

وفراً.

كان الهواء على سطح السفينة بارداً ولاسعاً ومفعماً بالرذاذ.

أغمضَ جيم عينيه نصف إغماضةً في وجه الريح وهو يشقُّ طريقه إلى قُمرة السيدة البدينة.

قَرَعَ الباب. " أدخل "

كانت المعجبة به ترتدي ثوباً مسائياً من الحرير الوردي جَعَلَها بصورةٍ ما تبدو أثقل وزناً مما هي بالفعل. كانت تنظّفُ أظافرها، وكان الجو يعبقُ برائحةٍ قويةٍ من مزيج الملح وعطر الغاردينيا.

" اليوم تأخَّرتَ، أليس كذلك؟ "

غمغمَ موافقاً وأخرجَ المكنسة من الخزانة وبدأ يكنُس الأرض، بسرعةٍ، وبخجل. وراحتْ تتابعه.

" هل أنتَ بحَّار منذ مدة طويلة؟ "

تابعَ التنظيف. " كلا، يا سيدتي "

" هذا ما حسبته. أنت لستَ كبيراً جداً، أليس كذلك؟ "

قال " في الحادية والعشرين "

" لقد خدعتني. إنك تبدو حتماً أصغر سناً من ذلك ". ودَّ لو أنها تكفّ عن الكلام. وتابعتْ " مِنْ أين أنت؟

" من فيرجينيا "

" أحقاً؟ لديّ أقارب في واشنطن دي.سي. أتعرف أين تكون؟ "

كان يتسلّى ويشعر بالغضب. من الواضح أنها تعتقد أنه ساذج. لكنّه لعبَ الدورَ المرغوب. هزَّ رأسه إيجاباً، وفتحَ باب القُمرة وكنَسَ القذارة إلى سطح السفينة. " أين تعلَّمتَ هذه الأعمال المنزلية؟ ". كانت على الدوام خلاّقةً في شَبَقها.

قال، وفمه منفرجٌ قليلاً، كصبيّ أبله يصطاد ذباباً. " اعتقدُ أنَّ الأمرَ حدثَ بشكلٍ طبيعي "

" أه، حقاً؟ ". لم تكن تدرك أنه كان يمثّل. " أعتقد أنك لا تقوم بمثل هذه الأعمال في منزلكم، أليس كذلك؟ "

قال أه، بل أقوم، وبدأ بترتيب السرير، بدءاً بإزالة رماد السجائر. وظلّتْ هي تبرير. "أصدقائي في واشنطن يقولون إنّ فيرجينيا جميلة. أنا ذهبتُ لمشاهدة سلسلة جبال بلو ريدج ذات مرة. ألا تعرف أين تكون؟"

هذه المرة قال كلا، وبدا عليه الارتباك. لقد كانت مثقّفة. " مررتُ بتلك الكهوف كلها الموجودة تحت الجبال وكانت مدهشةً، بتشكيلاتها الحجرية الصاعدة والهابطة. هل أمك على قيد الحياة؟ هل عائلتك تعيش في فيرجينيا ؟ "

أعطاها إجابات دقيقة.

قالت البدينة، وهي تقومُ بتحركُها الأول لإغوائه، "يا إلهي، ولكن لابد أنَّ أمكَ هي في مثل عمري"

"أعتقدُ ذلك". قال هذا بنبرة صوتٍ عادية، وهو يقومُ بجولة على النقاط المُدبَّبة.

"أوه"، وصمتت. كان يعملُ بسرعة؛ هناك قمرات أخرى يجبُ ترتيبها.

أخيراً قالت " هذه أول رحلة لي إلى ألاسكا. لديَّ أقارب في أنكوريج. ألم تذهب إلى أنكوريج؟ ". هزَّ رأسه إيجاباً. "إنها أشدُّ تحضُّراً من أن تناسبَ ألاسكا، أليس كذلك؟ أقصد أني كنتُ دائماً أتخيَّلُ ألاسكا أشبه بالقطب الشمالي؛ كلها ثلوج وجليد. ولكن أنكوريج أشبه ببلدةٍ صغيرة في أي مكان آخر وفيها أشجارٌ وصالونات جميلة، كما في الولايات المتحدة. إنهم يشيرون إلى الولايات المتحدة بـ

" الخارج ". أليست طريقة غريبة في الإشارة إلى باقي العالم؟ بأنه "الخارج "؟ لقد استمتعتُ كثيراً بزيارة أقربائي، أشياء أخرى. لكنك سافرتَ كثيراً بالنسبة إلى شاب صغير مثلك، أليس كذلك؟ أراهنُ على أنك جمعتَ بعض التجارب المثيرة "

" ليست كثيرة "، وأنهى ترتيب سريرها. حين وجدتْ أنه يوشكُ أن يغادر، أسرعت بالقول " أوه، ألن تُصلحَ لي منفذ التهوية؟ إنه يقرقعُ طوال الوقت ويجافيني النوم طوال الليل "

ألقى نظرةً على غطاء المنفذ فوجدَ أنَّ ثمة برغياً محلولاً، فثبَّته بظفرِ إبهامه. قال " أظنُّ أنه لن يزعجكِ بعد الآن "

نهضتْ واقفة، وهي تشدُّ رداء الحرير حول نحرها، وانضمَّت إليه عند المنفذ.

" ما أمهركَ! لقد حاولتُ طوال الليلة الفائتة أن أصلحه فلم أنجح "

تحرَّكَ باتجاه الباب.

مرةً أخرى تكلَّمَتْ، بسرعة، وكأنما لتمنعه من المغادرة بالكلام. "زوجي كان ماهراً في إصلاح الأشياء. لقد مات، طبعاً. إنه ميت منذ عام ١٩٣٠، ولكن في الوطن لديَّ ابن، أصغر منك سناً بكثير. بالكاد بدأ مرحلته الجامعية... ". شعرَ جيم كأنَّ أحداً دفعه من حافة جرف. إنها تحاولُ أن تغويه، ولديها ابن في مثل سنه. فجأةً شعر بحنينٍ إلى الوطن، بالضياع، أرادَ أن يهربَ، أن يختبئ، أن يتلاشى. كانت ما تزالُ تتكلّم حين فتح الباب وخطا إلى سطح السفينة، الرطب، البراق.

*

ولكن في تلك الأمسية لم يكن لديه الوقت ليشعرَ بالوحشة. فهناك حفلة تُقامُ من أجل المسافرين، وكانت أمسيةً شاقّة على صبية السفينة.

كان الصالون مُزيَّناً بتقليدٍ لنبات شائك، أغصان نبات الصنوبر تطرح أوراقها كان المُشرفُ العام من الفطنة بحيث أحضرها من أنكوريج. لم يغادر آخر المسفرين صالون التدخين إلا في الساعة الثانية صباحاً. ثم هنَّأ المشرفُ، ذو الوجه الأحمرُ والمتعرِّقُ، صبية السفينة وتمنَّى لهم عيدَ ميلاد سعيد، أخبرهم أنَّ في إمكانهم أن يُقيموا حفلتهم في الصالون.

على الرغم من تعبهم نجحوا في أن يشربوا مقداراً كبيراً. شربَ جيم البيرة وشرب كولينز بوربون من قنينة تلقّاها هدية من مسافرة شابة. ثم بدأ بعض الرجال يغنّون وسرعان ما انخرطَ الجميع في الغناء بصوتٍ عالٍ، ليعبِّروا عن أنهم يقضون وقتاً ممتعاً. وبينما جيم يشرب شعرَ بعاطفةٍ خاصة اتجاه الآخرين. قد يُبحرون معاً وإلى الأبد جيئةً وذهاباً بين سياتل وأنكوريج إلى أن تغرق السفينة أو يموت هو. ترقرقتْ الدموع في عينيه حين فكَّر في تلك الصُحبة الجميلة.

ثم سَكِرَ كولينز. قال " هيا، يا صاحبي، كفاك كآبة "

تأذَّى جيم. قال " أنا في أحسن حال، ولستُ مكتئباً "، ثم أصبحَ بالفعل حزيناً. " ولكن لم يخطر لي أبداً أني سأكونُ هنا في عيد الميلاد الفائت، أني سأكونُ هنا في يوم الميلاد ذات عام في حين أني كنتُ في الوطن قبل عام ". لم يكن متأكداً إنْ كان لهذا أي معنى ولكن كان يجب أن يُقال.

قال كولينز بسعادة " في الواقع، أعلمُ أني لم أفكر قط في أن أعملَ في البحر حين كنتُ في موطني سياتل. كان والدي يعملُ في تجارة الخشب. خارج مدينة يوجين. أرادني أن أعمل في تلك التجارة بدوري، لكني أردتُ أن أشاهدَ العالم، وقد فعلت. ولكن قد أعودُ ذات يوم، وأستقرّ، وأنشئ عائلة... "، وتراخى صوته، وناله الضجر مما كان يقول.

ثم نهضَ واقفاً وقفةً متقلقلة وغادرا الصالون معاً. كان الليلُ بارداً والجو صافياً. كانت الغيوم قد تلاشتْ وعلى أفق المياه السوداء المندفعة ظهرتْ قممُ جبال ألاسكا، يُحدِّدها ضوء النجوم.

انتعشَ جيم، واخذ يستنشق الهواء بعمق.

قال " ليلٌ رائع " لكنَّ كولينز لم يكن مهتماً بالمحافظة على توازنه أثناء تقدّمهما نحو القُمرة الأمامية.

كانت القمرة الأمامية مثلّثة الشكل تضمُ أسرَّةً بطابقين ومصابيح كهربائية عارية فوق الرؤوس، وتعبقُ برائحةِ عددٍ غفيرٍ من الرجال يُقيمون في مكانٍ شديد الضيق.

كان جيم يشغَلُ السرير العُلوي، ونامَ كولينز تحته. جلس كولينز وهو يئنُّ ليُبيِّنَ مبلغَ التعب الذي ناله، على سريره. " إنني مُرهق ". خلعَ حذاءه واستلقى على طوله. " لا أكادُ أطيقُ صبراً حتى أصل إلى سياتل. هل ذهبتَ إلى هناك؟ "

" مررتُ لفترة وجيزة "

" حسنٌ، سأرافقك في جولةٍ في المرابع التي أعرفها. إنهم يعرفونني في الأماكن كلها التي تطلُّ على البحر. وسوف أُدبِّرُ لك فتاة. واحدة جيدة. أي نوعٍ تحب؟ "

اضطرَبَ جيم. قال " لا أدري؛ كل الأنواع تقريباً "

" يا إلهي، يجب أن تُحدِّد نوعاً معيَّناً وإلا أُصبتَ بمرضٍ فظيع. من ناحيتي، أنا لم أُصَبْ بأي شيء... حتى الآن "، وأمسكَ الجانب الخشبي من سريره. " سأُحضِرُ لك واحدةً شقراء؛ إنّهنَّ الأفضل. أقصد، الشقراوات الطبيعيات. كالسويديات، وما شابه. ستعجبك الشقراوات "

" حتماً "

رَفَعَ كولينز نفسه مُتَّكئاً على مرفقه ونظرَ إلى جيم، وقد انتبه فجأةً، " هيه، أراهن على أنك بتول "

احمرَّ لونُ جيم خجلاً ولم يدرِ ماذا يقول؛ كان السكوتُ كافياً.

ابتَهَجَ كولينز " لعنني الله، لم يخطر في بالي أني سأقابلُ مَنْ هو كذلك. حسن، سوف نكونُ حريصين على انتقاء الفتاة. كيف حدثَ وانتظرتَ كل تلك المدة؟ أنتَ في الثامنة عشرة، أليس كذلك؟ "

شعرَ جيم بالارتباك. لعنَ نفسَه لأنه لم يكذب كما فعلَ جميعهم بشأن علاقاتهم الجنسية. قال " أوه، لا أدري "، مُحاولاً أن يخرجَ عن الموضوع. " لم تُتَح لي كثيرا من الفرص في الوطن "

" أعرفُ فتاةً تناسبكَ تماماً. اسمها مايرا. محترفة لكنها لطيفة، ونظيفة. وهي لا تشربُ الخمرَ أو تدخّن، ولأنها لا تشرب فهي تعتني بنفسها، ولن تُصيبكَ بأي مرض. سوف أجمعُكَ بمايرا "

قال جيم " أحبُّ أن أقابلها "، وجعلت البيرة التي شربها الفكرةَ مثيرة. كان أحياناً يحلم بالنساء، لكنه غالباً ما كان يحلم ببوب، وكان أحياناً يحلمُ بالنساء، لكنه غالباً ما كان يحلمُ ببوب. وكان هذا يقلقه حين يفكّرُ فيه.

قال كولينز، وهو يخلع ملابسه، " سوف أتجوَّلُ معك في المكان. سوف أجعلكَ تقضي وقتاً ممتعاً. نعم يا سيدي، أنا أعرفُ خبايا المكان "

- ٢ -

كان المساءُ قد حلّ حين غادرَ كولينز وجيم السفينة؛ كولينز ببزّته البنيّة ووجنتيه الحمراوين، وجيم ببزّته الرمادية التي كانت ضيّقة عليه عند الكتفين. كان ما يزال ينمو. ولم يضعْ أي منهما ربطةَ عُنُق.

استقلاً حافلةً متوجِّهةً إلى منطقة دار المسرح. أرادَ جيم أن يشاهدَ فيلماً سينمائياً لكنَّ كولينز أخبره بأنه لا وقتَ لديهما لذلك. " أولاً علينا أن نجد غرفة "

" حسبتُ أننا سنمكثُ مع الفتاتين اللتَين أخبرتني عنهما "

أومأ كولينز " كيف لي أنْ أعرفَ إنْ كانتا في البلدة، أو أنهما محجوزتان هذه الليلة؟ سوفَ نحصلُ على غرفة؛ ومن ثم نجدُ مكاناً نأخذُ مَنْ نعثُرُ عليها إليه "

" أتعرفُ مكاناً كهذا ؟ "

" أنا أعرفُ أماكنَ كثيرة "

عثرا على ما كانا يفتشان عنه في موقعٍ غير بعيد عن الواجهة المائية، في شارعٍ بُنيَتْ فيه الأبنية من الآجُر الأحمر. بدت حقيرة المنظر وكان هناك الكثير من الحانات، المزدحمة ببحّارةٍ يجوسون في المكان.

كان هناك رجلٌ أصلع متغضِّن الوجه جالس خلف طاولة موضوعة في أعلى مجموعةٍ كبيرةٍ من الدَرَج المهترئ. كان صاحب فندق ريجنت.

قال كولينز " نريدُ غرفةً لقضاء ليلة "، وأبرزَ فكَّه السفلي ليُبيِّنَ أنه يعني ما قال.

" غرفةً مزدوجة؟ "

أومأ كولينز وجيم إيجاباً.

قال الرجل الأصلع " الدفعُ مقدَّماً؛ دولارين عن كل شخص "، ودفعا مُقدَّماً. " لا أريدُ ضجيجاً عالياً أو معاقرة للخمر أو إحضار نساء إلى فوق. أنتما تعرفان القانون، يا شباب. أنتما من البحّارة؟ "

قال كولينز، وفكّه ما يزالُ بارزاً " نعم "

قال الأصلعُ بنبرةِ صوت معتدلة " أنا أيضاً كنتُ بحاراً ذات مرة، لكني لم أعُد أعمل في البحر ". قادهما صاعداً مقدار مجموعتين من الدرج، ثم مشوا في رواقٍ مُظلم، يفوحُ برائحة الرطوبة، إلى غرفةٍ صغيرة. أضاءَ الأنوار. كانت الغرفةُ نظيفةً تماماً، وإنْ كان الدهانُ قد أخذ يقشُر عن الجدران. وفي منتصف الغرفة كان هناك سريرٌ كبيرٌ من الحديد، وثمة نافذة واحدة تطلُّ على جانبِ بناءٍ آجرّي آخر.

قال الأصلع " اتركا المفتاح على طاولة الكتابة عندما تخرجان "، وجالَ ببصرِه في أنحاء الغرفة برهةً، وقد سرَّه ما رأى. ثم غادر.

جلسَ كولينز على السرير فصرَّ. " أليستْ رائعة؟ "

شعرَ جيم بالانقباض. ومع أنه كان قد نامَ في أماكنَ أسوأ من تلك، إلا أنه تساءلَ أحياناً إنْ كان سينزل من جديد في غرفةٍ تشبه غرفته في فيرجينيا؛ مكانٌ نظيف بجدرانٍ أليفة.

قال جيم، مُتّجهاً صوب الباب، " هيا بنا؛ أنا جائع "

" وأنا أيضاً "، وغمزَ كولينز بعينه لجيم ليُفسِّرَ له إلامَ هو جائع.

طَرَقا الشوارع المظلمة، وأخذا يتّخذان هيئةً خشنةً كلما قابلا بحّارةً، ويصفّران بحرارة كلما نظرتْ إليهما الفتيات. كان ممتعاً التواجدُ في سياتل في ليلةٍ شتائيّةٍ صافية.

توقّفا أمام مطعمٍ وحانة. هناك إعلانٌ بالنيون يُعلنُ عن السباغيتي.

قال كولينز " ها هو، هذا هو المكان "

سأل جيم " وأين الفتيات؟ "

" وأين تظن؟ ". كنَّ في الداخل. كان المطعمُ كبيراً لكنه نصف ممتلئ. قادتهما نادلة سوداء الشعر إلى مقصورة.

غمزَ كولينز " ماذا لديك يا حلوة؟ "

ناولته النادلة قائمة الطعام. " هذا ما لدي ". قالتها بصوتٍ منخفض وابتعدتْ.

علَّقَ كولينز " عاهرة مغرورة "، ووجدَ جيم أنَّ سحرَه لم يكن ناجعاً. " على أي حال، على النساء ألاّ يعملن. خاصةً بسبب الكساد وما إلى ذلك. يجب أن يمكثن في المنزل "

تلفَّتَ جيم حوله في المطعم. هناك مقاصير حمراء، وجدران بنّية، وأضواء مُظلَّلة باللون الأصفر : إنه كهفٌ في الجحيم.

بعد تناول السباغيتي تجشَّأ كولينز ومن ثم أعلنَ " سوف نبقى هنا بعض الوقت. هناك، عند البار. بعد ذلك، وإذا لم نجد ما نفتّش عنه، سوف ننتقل إلى " الحمراء "، المرقص لذي أعرفُ فيه كل إنسان "

لم يكن البارُ مزدحماً. طلبا بيرة. قال كولينز، كَمَنْ يُهنِّئ نفسه، "مكانٌ فخم "

وافَقَه جيم، وأضافَ بشيءٍ من الخبث " طبعاً، يوجد الكثير من مثل هذه المرابع هناك في نيويورك ". لم يكن كولينز قد ذهبَ قط إلى الساحل الشرقي.

نظرَ كولينز بعبوس إلى كأسه. " سوف أبقى ملتصقاً بسياتل العجوز الصغيرة ". ورشفَ من كأسه. قال، مؤكِّداً " أراهنُ على أنَّ هوليوود جعلتْ مساحة نيويورك تفوقُ الميل ". كان يعلم أنَّ جيم لم يذهب إلى هوليوود دهره. ثم تابعَ قائلاً، وقد سرَّه هذا التكتيك، " نعم، أراهنُ على أنَّ لديهم في لوس أنجلوس من الفتيات والمجانين والشواذ أكثر من أي مدينة أخرى "

" ربما "

ثم تقدَّمَتْ الفتاة من البار. رآها كولينز أولاً ولَكَزَ جيم. كانت فتاةً نحيلةً ذات شعر بلون الخاكي، وعينين رماديَّتين، وتقاسيم وجه واسعة، وثديين كبيرين. جلسَتْ عند البار وهي تبتسم قليلاً. كانت شفتاها حمراوين.

غمغمَ كولينز " ما رأيك في هذه؟ "

" حلوة "

قال كولينز " وراقية، أيضاً. لعلّها تعملُ في أحد المكاتب ". بدا أنَّ الساقي يعرفها لأنه قال لها شيئاً بصوتٍ منخفض وضحكا معاً. قدَّمَ لها كأساً من المشروب فجلستْ وهو في يدها، تراقبُ الباب.

قال كولينز " بدأ العمل "، ومشى باتجاه مرحاض الرجال. في طريقه إلى هناك توقَّفَ عند آخر البار. نظرَ إلى الفتاة، متظاهراً بالحيرة أمام ما رآه. تكلَّمَ معها. لم يتمكن جيم من سماع ما قال لكنه رآه يعبس، ومن ثم يبتسم. تحدثا برهةً. نظرتْ إلى جيم. ابتسمت ثانية. أومأ كولينز إلى جيم كي ينضمّ إليهما.

تصافحا. " جيم، هذه إميلي "

قالت إميلي " تشرّفنا ". كان صوتها أجشاً خليقاً بسيدة محترمة، وغمغمَ جيم بالتحية.

" لا عليكِ منه؛ إنه شديد الحياء. إننا نعملُ على متن سفينةٍ واحدة. رسونا اليوم "

أعجبَ هذا إميلي، كما كان من المفترض بها. " ولكن يجب أن تخرج إلى المدينة لتحتفل "

" هذا ما نُخطِّطُ له. لكن الليل ما يزال فتياً، كما يُقال "

" ونحن أيضاً كذلك ". تناولتْ إميلي رشفةً من شرابها. " أهذه أول زيارة لكما لسياتل؟ "

هزَّ كولينز رأسه نفياً. " تردَّدتُ على سياتل طوال حياتي. أعرفُ هذه المدينة طولاً وعرضاً. في الحقيقة، كنتُ أفكِّرُ في أنْ أصحبَ جيم وأُريه بعض المشاهد "

" ومِنْ أين أنت؟ ". حين أخبرها جيم، أطلقتْ صيحة صغيرة. "أوه، أنت من الجنوب! أنا أحبُّ الجنوبيين؛ إنهم يتَّصفون بحُسن السلوك؟ إذن فأنتَ من فيرجينيا ". لفظت كلمة فيرجينيا وكأنها فور-جن -يي - ياه. " لكنّ لكنتك لا تشبه لكنتهم كثيراً، أكُلُّكم هكذا؟ ". ضحكتْ إميلي وكولينز على براعتها في المحاكاة.

ابتسمَ جيم. قال " لا، أعتقدُ أنْ لا "

" بالمناسبة ". التفتتْ إميلي إلى كولينز. " بالمناسبة، أي نوعٍ من المشاهد خطَّطتَ أن تزورا هذا المساء؟ "

" في الواقع، فكَّرتُ في أننا ربما نذهب إلى " قصر الحمراء "... "

" إنه المكان المفضَّل لديّ! صديقتي وأنا نذهب إلى هناك كثيراً لنرقص. هناك نقابلُ أناساً لطفاء كثيراً. ليس رعاعاً فظّين كالذين تجدهم في بعض الأماكن "

" أوه، أتقطنين مع صديقة؟ ". كان كولينز يتقصّى.

هزَّتْ إميلي رأسها إيجاباً. " إننا نعمل في مكتب واحد وأحياناً نذهب إلى مواعيدنا معاً. هذا المساء من المفترض أن نتقابل هنا. وهناك شابان سيأتيان إلى البلدة (هكذا نعتقد) وسوف تحضرهما إلى هنا "

" أوه، اللعنة! ". عَبَسَ كولينز وبدا تعيساً. " وأنا الذي كنتُ آمل أنْ تنضمَّ صديقتك إلى جيم وإليّ. في الواقع إنَّ الفتاتين الوحيدتين اللتين أعرفهما تصادفَ أنهما خارج البلدة في هذا الوقت وكنتُ آمل لو أننا... "

قالتْ إميلي وهي تفكِّر، " حسنٌ، أستطيع أن أتَّصل بها وأعرف إنْ كانت متأكدة من أنهما سيأتيان هذه الليلة أم لا، فإذا كانا لن... حسن، اعتقدُ أنه سيسعدها أن تنضمَّ إلينا "

وهكذا كان. وذهبت إميلي إلى خلفيّة الحانة لكي تتَّصِل بشريكتها في الغرفة هاتفياً.

سألَ كولينز "ما رأيك في هذه الإدارة للعمل؟"

"جيد". تركَ تصرُّفه في جيم أثراً حقيقياً. "أتعتقد أنَّ صديقتها ستأتي فعلاً؟"

"أتمزح؟"

قال جيم، وهو يراقب الشقراء عبر الباب الزجاجي لحجيرة الهاتف " إنها جميلة ". استَحْسنَ أناقتها، لكنه لم يتأثَّر على طريقة كولينز. لقد أرادَ كثيراً أن تثيره، ولكن لا فائدة، على الأقلّ ليس طالما أنه صاح. كان ذلك أمراً غريباً.

انضمَّتْ إميلي إليهما عند البار، وشفتاها الحمراوان تفترّان عن ابتسامة. " ستقابلُنا صديقتي آن في " الحمراء " في غضونِ بضع دقائق. قالتْ إنَّ صديقينا لن يأتيا على أي حال. في الواقع، إنَّ بعض الناس لا يمكنُ الاعتماد عليهم أبداً في هذا المجال. لذا، وكما قلت لها، من حُسن حظّنا أننا حصلنا على دعوة لطيفة جداً من شابّين وصلا لتوّهما إلى

البلدة بعد قضاء زمن طويل في البحر. إنَّ آن مفتونة بالبحر. وذات مرة أقام المكتب حفلاً، كان عبارة عن نزهة في الخلاء على شاطئ ساوند، وذهبتْ آن لتُبحرَ مع احد الزملاء وكادت ألاّ تعود إلى الشاطئ؛ لقد أحبَّت الرحلة كثيراً "

قال كولينز وهو يغمزُ بعينه، " أعتقدُ أنَّ آن ستكونُ رفيقة جيم، إنْ كان هذا يناسبك "

ضحكتْ إميلي وراحا معاً يراقبان ثدييها وهما يهتزان. " والله، إذا كان هذا يناسبكما، فإنه يناسبني "، ونظرتْ إلى كولينز، وقد تباعدت شفتاها بشكلٍ مُغرٍ. ثم التفتت إلى جيم، " أنا متأكدة من أنَّ آن ستعجبك؛ إنها مسلّية جداً "

كانت " قصر الحمراء " صالة رقص واسعة تقعُ في شارعٍ جانبيّ، عليها يافطة من النيون البرّاق تومضُ وتخبو فوق الباب يُحاكي شكلَ شخصٍ مغربيّ.

في الداخل، كانت الصالة مزدحمةً وخافتة الإضاءة. كانت فرقةٌ موسيقيّةٌ صغيرةٌ تعزفُ إيقاعَ سوينغ.

قادتهم امرأةٌ رماديّة الشعر وترتدي ثوباً مسائياً أسودَ اللون إلى إحدى الطاولات. حيّاها كولينز بحرارة. ألقَتْ إليه نظرةً لا تُعبِّرُ عن شيءٍ ثم ابتعدتْ.

قال كولينز " صديقة قديمة لي. كنتُ أتردَّدُ على هذا المكان كثيراً في العام الفائت. دائماً تتذكّرني "

تقدَّمَ منهم نادلٌ وبعد نقاشٍ قصيرٍ طلبوا مشروب الجاودار. في تلك الأثناء، ثرثرتْ إميلي كثيراً. " أتوقَّعُ أن تصلَ آن في أي لحظة. إنها

أسرعُ امرأةٍ أعرفها في ارتداء ملابسها. على أي حال نحنُ نقطنُ في مكانٍ قريبٍ من هنا "

كان كولينز يقظاً. " أحقاً؟ "

كرَّرتْ إميلي " على مقرُبةٍ من هنا "، ثم : " إنَّ آن حقاً فتاة ماهرة؛ عملت حتى في مجال تصميم الأزياء "

قال جيم، متكلِّفاً الإثارة، " لا بد أنها جميلة جداً "

هزَّتْ إميلي رأسها إيجاباً. " آن جميلة. إنها إحدى أكثر الفتيات شعبيةً في المكتب. إننا دائماً نخرجُ معاً لنقابلَ الشبان، وأنا متأكّدة من أنَّ الشابَ الذي يكون معي يودُّ دائماً لو أنه يُرافقُ آن ". كانت تلك الافتتاحيةَ الممتازةَ مبرِّراً لكولينز لكي يحتجّ. واحتجّ. وتابعَتْ إميلي "إنها أصغر سناً مني؛ في العشرين، وأنا في الثانية والعشرين. كم عمرك، كولي؟ "

" اثنتان وعشرون ". كذبَ كولينز وقرَّبَ كرسيه من كرسيها.

نظرتْ إميلي إلى جيم، وقالت مع ابتسامة، " أراهنُ على أنكَ لا تتجاوز العشرين بيومٍ واحد "

هزَّ جيم رأسه إيجاباً برصانة " هذا صحيح ". وبعد أن ترسَّخَ الكذب حول الأعمار بينهم، وأصبحَ للأمسية مسار.

أخيراً وصلتْ آن. كانت ضئيلة الحجم ونحيلة وترتدي ثوباً بنيَّ اللون. تلفَّتتْ حولها في ارتباك إلى أن رأتْ إميلي، فهرعتْ إليها، مبتسمةً، بتكلُّف. وقامت إميل بتعريف الجميع إلى الجميع، ولما كانت الخمرُ قد لعبَتْ قليلاً برأسها، قامت بالتعريف مرةً ثانية. كان ذلك مسلياً.

حين ضحكتْ آن قرَّرَ جيم أنها بحقّ جميلة، على الرغم من أنها كانت أقرب إلى الثلاثين منها إلى العشرين من العمر. لكنَّ ذلك لم يكن يهمّه البتّة.

قالتْ آن بعد أن تناولت مشروباً وتلاشت إثارةُ وصولها، " إذن فأنتَ هو جيم "

" صحيح. أخبرتنا إميلي الكثير عنك "

" آمل أنه كان خيراً؟ ". كانت آن أحياناً تبدو أشبه بممثلةٍ سينمائيةٍ إنكليزية. كانت، كصديقتها، تتكلّم كثيراً.

" إننا نعمل، نضرب على الآلة الكاتبة ونقوم بأعمالٍ مشابهةٍ. هل أنت من الجنوب؟ "

هزَّ رأسه إيجاباً فقالت جملةً مضحكةً أرفقتها بعبارة " أنتم جميعاً فضحكَ الجميعُ ثم نهضَت إميلي مع كولينز عن الطاولة وأعلنا أنهما ذاهبان ليرقصا. فدعا جيمي آن إلى الرقص وهكذا خرج الأربعة إلى حلبة الرقص. لم يبذل جيم أي مجهود ليُحسِنَ الرقص. في هذه الليلة ثمة أشياء كثيرة جداً يجب إثباتها.

ضغطَتْ آن نفسها على جيم، ووضعَتْ وجنتها على وجنته؛ واستطاع أن يشمَّ رائحة رذاذها وصابونها وعطرها. وقد نظرَ إليها مرةً واحدة فوجدها مغمضة العينين.

اقتربَ كولينز مع إميلي. قال " هيه، جيم ". فتحتْ آن عينيها وابتعدَ جيم بضعة إنشات عنها.

قال جيم " نعم؟ "

" تقترحُ إميلي أن نذهبَ إلى شقَّتهما لنقضي بعض الوقت. لديهما كحول هناك وجهاز مذياع ونستطيع أن نرقص حيث لا يوجد ازدحام "

قالت آن بإشراق " هذه فكرةٌ جيدة، إميلي "

عادوا إلى مائدتهم، وسدَّدوا قيمة الفاتورة، وحملوا معطفهم وغادروا " قصر الحمراء ". وعلى الرغم من أنَّ الجو في الليل كان بارداً، إلا أنَّ جيم تعرَّقَ بفعل الويسكي.

في شارعٍ جانبيّ توقَّفوا أمام شقّةٍ صغيرةٍ منفردة. فتحتْ إميلي الباب. في أعلى مجموعتين من الدَرَج النظيف، المغطّى بالسجّاد، قادتهم إميلي إلى داخل شقّة تتألّف من غرفة جلوس، ومطبخ صغير وغرفة نوم. الباب المؤدي إلى غرفة النوم كان مفتوحاً استطاعَ أن يرى جيم منه سريرين متشابهَين ومتجاورَين.

أعلنَتْ إميلي " هذا هو المنزل "، وهي تديرُ مفتاح المذياع بينما اختفَتْ آن داخل المطبخ، لتعودَ بعد قليل مع زجاجة من شراب الجودار وعددٍ من القناني. " احضري بعض الثلج، من فضلك يا إميلي "

ولَجَتْ إميلي المطبخ، وتبعها كولينز. وضعَتْ آن القناني على الطاولة ووقفَ جيم إلى جوارها، مرتبكاً، غير واثقٍ من نفسه.

قالتْ، بعد أن رتّبت القناني على الطاولة، " هيا نرقص ". أبقاها بعيدةً عنه، لكنها ضغطَتْ نفسها عليه. كان منزعجاً. ودَّ بشدّة لو أنَّ الموسيقا والويسكي وهذه الفتاة تجرفه معها، ولكن كل ما استطاع أن يفكّرَ فيه كان نقط القشرة الموجودة في شعرها.

سمعَ ضحكاً قادماً من جهة المطبخ. ثم خرجَ كولينز وإميلي إلى غرفة الجلوس. كان كلاهما متورّداً وكانت عينا كولينز تبرقان. وضعت إميلي طاساً من مكعّبات الثلج على الطاولة ووضعَ كولينز زجاجة من مياه الصودا.

قالت إميلي " فلنشرب ". شربوا كلهم. اقترحَ كولينز نخباً لإميلي واقترحتْ إميلي بلباقة نخباً له. وشربَ جيم وآن كلُ نخبَ الآخر. ثم سَكرَ جيم. رفضتْ عيناه التركيز. وفجأةً سادَ الدفءُ والودّ والألفة. وتجرَّأ وأحاطَ آن بذراعه ثم جلسا على الأريكة، جنباً إلى جنب، وأخذا يراقبان كولينز وإميلي وهما يرقصان.

قالت آن " أنتَ حقاً تُحسنُ الرقصَ. لابد أنك أخذتَ دروساً في ذلك. أنا لم أتلقَّ أي دروس لكني تعلَّمتُ الكثير من الفتيات اللواتي عرفتهنَّ في المدرسة. لقد درستُ في مدرسة السكرتاريا وكنا نرقصُ كثيراً. واستمتعتُ بذلكَ كثيراً. وهناك تعلَّمتُ الرقص "

أرادَ أن يُبقيها تتكلَّم. " هل تقيمين دائماً في سياتل؟ "

قطَّبَتْ جبينها لتبيِّنُ أنَّ هذا السؤال أزعجها. " نعم. لقد عشتُ هنا دائماً لكني لا أحبه. في الواقع، أريدُ أن أسافرَ. طالما أردتُ أن أسافر. لهذا أنا أحسدكم أنتم معشر الرجال العاملين على متن السفن؛ فأنتم تسافرون كثيراً وتشاهدون أشياءَ كثيرة "

" أين تودِّين أن تذهبي؟ ". أمسكَ جيم بها، ودُهِشَ مع شعور لذيذ من جرأته. وتحرَّكَتْ لتقترب منه.

قالتْ " إلى أي مكان، ولكن أريدُ بشكلٍ رئيسي أن أشاهدَ جنوب كاليفورنيا. أريدُ أن أزورَ هوليوود. في الواقع، أريدُ أن أعمل في السينما ". قالتْ هذا بصوتٍ منخفض، لتأتمنه على سرّها.

" أعتقدُ أنَّ كثيراً من الناس يودّون ذلك ". كان جيم قد قرأ بضع مجلات خاصة بالسينما وتأثَّرَ بالصعوبات التي يُلاقيها نجوم السينما وهم يرتقون سلّم النجوميّة.

قالت آن " أعلمُ هذا. لكني أعتقدُ أني مختلفةٌ. كلا، حقاً. أنا جادّة. أظنَّ أني سأصبحُ مشهورة. حتى حين كنتُ أصغر سناً وشاهدتُ أناساً مثل جين هارلو[٧] على الشاشة الفضيّة عرفتُ أنّي سأكونُ مثلها ذات يوم. أما الآن فعليَّ أن أعملَ في مكتبٍ ولا أدري متى سأتمكّنُ من بلوغ هوليوود. لكني سأصلُ إلى هناك ذات يوم. أنا أعرفُ هذا "

" لا ريبَ في أنَّ لديك طموحاً "

" أوه، لدي الكثير من هذا! تخيّلني وأنا أرتدي كل تلك الملابس الجميلة ويتهافَتُ رجالٌ بشوارب وبزّات من الجوخ إلى مصاحبتي لتناول الطعام في تلك الأماكن المُكلفة ذات أشجار النخيل "، وحدقَتْ إلى الفراغ، مفتوحة الفم اشتياقاً إلى تلك الحياة الأخرى.

تمتمَ جيم بكلماتٍ مُهدِّئة، مدركاً أنَّ كولينز وإميلي اختفيا. كان باب غرفة النوم ما يزالُ مفتوحاً، واستطاع أن يرى كولينز ببنطاله القصير يتقدَّم من إميلي، التي كانت مستلقية وهي عارية على أحد السريرين. قهقهت إميلي. أشاح جيم ببصره، واحمرَّ وجهه.

" ما الأمر؟ ". تخلّتْ آن عن طيفها الهوليوودي. ثم شاهدت ما كان يجري في غرفة النوم. قهقهتْ، كصدى لقهقهة إميلي.

قالتْ "إنكَ لا تكونُ شاباً إلاّ مرةً واحدة". نظرَ جيم إليها فرأى عينيها براّقتين، مشرقتين، وبهيميَّتين. كان قد شاهدَ النظرةَ نفسها في عينيّ كولينز، وفي عينيّ إميلي، ولكن ليس في عينيّ بوب. شعرَ بالنفور والاشمئزاز. لكنَّ آن لم يصلها ردُّ فعله، وقرَّبتْ وجهها منه حتى أنه شمَّ رائحة الويسكي تفوحُ من أنفاسها. "يا الله، لكنهما يستمتعان!". كان جسدها قد التصَقَ بجسده وشعرَ بخفقان قلبها السريع.

كرَّرَتْ قائلة " أراهنُ على أنهما يقضيان وقتاً ممتعاً. الإنسان لا يكونُ شاباً إلا مرةً واحدة، هذا رأيي ". وقبَّلته. كانت قبلةً رطبةً اشتركَ فيها اللسانُ. ابتعدَ عنها. ولما رأتْ نفوره أخذتْ تبكي. قالتْ، وقد أخطأتْ فهمه : " أنا أيضاً كنتُ عاشقة "، وبين شهقات تمثيلية قصيرة قالت إنها تفهمُ شعورَه وتعرفُ أنَّ ما تفعله أمرٌ سيّء جداً لكنها تشعر بالوحشة، وليس لديها مَنْ يواسيها، ويعلمُ الله أنهم لا يعيشونَ شبابهم إلاّ مرةً واحدة.

أجبَرَ نفسَه على تقبيلها، وذهنه مملوءٌ بذكريات ومخاوف شبه منسيّة. وحاولَ، بقوَّة الإرادة، أن يُذيبَ الخوفَ في معدته. وشيئاً فشيئاً استفاقتْ الرغبة. ذُهلَ لذلك لكنّه سُرَّ. قريباً سيكونُ مستعداً. ولكن فجأةً نهضتْ واقفةً وقالتْ بإشراق " الأفضل أن أخلع ثوبي. لا أريدُ له أن يتجعَّد "

ولَجَتْ غرفةَ النوم. تبعها حتى الباب ووقفَ يراقبُ كولينز وإميلي على السرير. لم يبدُ أنهما يأبهان إنْ كان هناك مَنْ يراقبهما أم لا. كانا منهمكَين في العمل المعقَّد ليصبحا شخصاً واحداً. راقبهما جيم وهو مأسور. كانا يُصدران ضجيجاً بدائياً ويتلوَّيان بحركاتٍ عمياء، وفقاً لطقسِ الجنسَين اللا عقلاني. شعرَ جيم بالخوف؛ لم يكن مستعداً لهذا.

ظهرَتْ آن. وقفَتْ أمامه وهي مجرَّدةٌ من ملابسها. حدَّقَ مذهولاً. لم يكن قد شاهدَ من قبل أي امرأة عارية. اقتربَتْ منه. مدَّت ذراعيها. ابتعدَ، بحركةٍ لا إراديّة.

قالتْ " تعالَ إليَّ، جيم "، وكان صوتها عالي النبرة ومصطنعاً. حينئذٍ كرهها. كرهها بقوة. ليس هذا ما أراد.

قال " يجب أن أذهب ". ولجَ غرفة الجلوس. لحقتْ به ومرةً أخرى

وجد نفسه يحدِّقُ إليها. هذه المرة قارَنَها ببوب، ووجدها غير كفءٍ للمقارنة. لم يعُد يأبه إنْ كان مختلفاً عن باقي الناس أم لا. لقد كرِه تلك المرأةَ وكره جسدها.

" ما الأمر؟ أي خطأ ارتكبتُ؟ "

" يجب أن أذهب ". لم يقوَ على قولِ أي شيءٍ آخر. بدأتْ تبكي. توجَّه بسرعةٍ إلى الباب وفتحه. حالما غادر سمع كولينز يهتفُ الآن "دعي هذا الشاذ يرحل! لديّ ما يكفي اثنتين "

سارَ جيم مدةً طويلة في الليل البارد وتساءلَ عن سبب فشلِه التام فيما أرادَ أن يفعله. إنه ليسَ كما نَعَتَه كولينز. كان واثقاً. ومع ذلك لماذا؟ في اللحظة التي أوشَكَ ما كان ينبغي أن يحدث أن يحدث، وقفَتْ صورةَ بوب حائلاً بينه وبين الفتاة، لتجعلَ تصرّفها بذيئاً ومستحيلاً. ما العمل؟ لن يطردَ شبحَ بوب حتى لو كان في إمكانه أن يفعلَ ذلك. لكنه أدركَ أنه سيكونُ أمراً صعباً أن يعيشَ في عالمٍ من الرجال والنساء دون أن يشاركَ في ثنائيتهم العريقة والضرورية. هل كان في استطاعته أن يشارك؟ قرَّرَ، نعم، في ظل ظروفٍ أخرى. على أي حال، الكلمة التي قَذَفَه بها في ظهره ليست ملائمة. لا يمكن أن تكون. إنها مبالغة في بشاعتها. ولكن بما أنها قد قيلَتْ، لن يستطيع أن يقابل كولينز بعد الآن. سوف يقفز إلى السفينة ويذهب... إلى أين؟ نظر إلى عمق الشارع المظلم الخاوي، بحثاً عن إشارة. وجَدَ نفسه واقفاً أمامَ دارٍ للسينما. إنه فيلم " سحر الأمس "، من بطولة رونالد شو، يُظهرُ المركيز مزوَّداً بمصابيح كهربائية مُطفَأة. فكَّرَ في هوليوود، وتذكَّر صوتُ آن يتواصلُ رتيباً وكئيباً وهي تتكلم عن السينما. وهذا ما أنهى الأمر. على الأقل سوف

يصلُ إلى هناك قبلها. شعرَ بسرورٍ غامضٍ لهذا الانتقام الصغير، وعادَ إلى الفندق.

كان الرجل الأصلع ما يزالُ جالساً خلف الطاولة. " أنتَ بحّار. أعلمُ هذا. أنا كنتُ بحّاراً لكني لم أعد أركبُ البحر. كلا، لم أعد أفعلُ هذا". توجّه جيم إلى غرفته وحاولَ أن يخلدَ إلى النوم، حاولَ أن ينسى ما نعته به كولينز. ثم نام ونسي الأمر.

الفصل الرابع

١٠

كان أوتو شيلينغ نصف أوسترالي ونصف بولوني؛ أشقرَ وذا وجهٍ أحمر بلون القرميد، تركَ الزمنَ عليه آثاره. كان مدرّباً لرياضةِ كرة المضرب في فندق غاردن في بيفرلي هيلز.

" إذن، كنتَ بحّاراً؟ ". كانت نبرةُ صوت أوتو ثقيلة، على الرغم من أنه أمضى نصف حياته في أميركا.

كان جيم متوتراً. " نعم، يا سيدي ". كان بحاجةٍ إلى هذا العمل.

" متى تركتَ العملَ في السفينة؟ "

" في كانون أول الفائت "

أرسلَ أوتو بصرَه متفكّراً عبر النافذة إلى مملكته، إلى الملاعب الثمانية ذات الأرضية الغضارية المجاورة بركة الفندق.

" حدثَ ذلك قبل ثمانية أشهر. هل أقمتَ في لوس أنجلوس منذ ذلك الحين؟ "

" نعم، يا سيدي "

" ماذا كنتَ تعمل؟ "

" كنتُ في أغلب الوقت أعملُ في مرآب "

" لكنكَ تلعبُ التنس، أليس كذلك؟ "

" نعم، يا سيدي. كنتُ ألعبُ وأنا هناك في بلدي في المدينة "

" كم عمرك؟ "

" تسعة عشر "

"أتظن أنَّ ما تعرفه يكفي لكي تقدِّم يدَ المساعدة هنا؟ لكي تغطي الملاعب، وتجمع الكُرات، وتشدّ أوتار المضارب... أتستطيعُ أن تفعلَ ذلك؟"

" نعم، يا سيدي. لقد تحدَّثتُ مع الفتى الذي كان يعملُ هنا من قبل وأخبرني عن طبيعة العمل وأنا متأكد من أني أستطيع أن أقوم بالعمل "

هزَّ أوتو شيلنغ رأسه إيجاباً. " سوف أجرّبكَ. الفتى الذي كان يعملُ هنا قبلَكَ كان كسولاً. يجب ألاّ تكون كسولاً. إنكَ تحصل على خمسٍ وعشرين دولاراً في الأسبوع، لكني سأدفعكَ إلى الكدّ مقابل هذا المبلغ كله. فإذا كنت جيداً فسوفَ تساعدني في إعطاء الدروس. وقد أدعكَ تعطي الدروس بنفسك، إذا كنتَ تجيد اللعب. هل تجيد اللعب؟ ".

صوَّبَ عينيه الكبيرتين الزرقاوَين إلى جيم.

قال جيم، محاولاً أن يبدو بمظهر المتواضع والمثقَّف، " لقد كنتُ جيداً جداً "

هزَّ أوتو رأسَه مُستحسناً. لم يكن يُحبِّذ وَلَعَ الأميركيين بالتواضع. وحين أحرزَ هو بطولة الفردي في النمسا، كان هناك مَنْ اعتقدوا أنه مُعجَبٌ بنفسه. ولكن لِمَ لا؟ لقد كان لاعباً عظيماً. أخيراً قال " سوف تُقيمُ في الفندق. اذهبْ وقابل السيد كيركلاند، المدير. سوف أتّصل به هاتفياً الآن. سوف تباشر العمل في الصباح، الساعة السابعة والنصف. وسوف أقولُ لك ماذا تفعل. قد ألعبُ معك لأرى ما تعرف. اذهب الآن "

غمغمَ جيم " شكراً لك "، وغادرَ مقرّ لعب التنس. إلى يمينه وجدَ بركةَ سباحة كبيرة يحفُّ بها شاطئٌ مستورد. ثمة رجالٌ ونساءٌ يبدو عليهم الثراء يجلسون تحت المظلات، بينما كان مصوِّر فوتوغرافي يبدو عليه الشرّ يصوِّرُ مجموعةً من الصبايا. تساءلَ جيم إن كانت الفتيات من نجوم السينما، وإذا كان الأمرُ كذلك، مَن هنّ. لكنَّهنّ بَدَونَ متشابهات، بأسنانٍ بيضاء، وشعورٍ قصيرة، وأجسادٍ سمراء نحيلة. لم يتعرَّف على أيٍ منهنَّ.

ارتقى جيم الدَرَج المؤدي إلى فندق غاردن، وهو بناءٌ ضخم، متمعِّج، منقوش بالجص الأبيض؛ بُنيَ وسطَ أشجار النخيل. بعد مُضيّ ستة أشهر من النزول في غرفةٍ غير مريحة، أسعدته فكرةُ أنه سيعيشُ هنا، ولو مؤقَّتاً. لقد أصبحَ متعوِّداً تماماً الآن على كونه شخصاً مرتحلاً. وسلَّمَ بأنَّ تنقُّلَه لن ينتهي إلى أن يعثُرَ على بوب. حينئذٍ سوف يتدبّران حياةً يعيشانها معاً، على الرغم من أنه تركَ أمرَ تحديد تلك الحياة بدقّة غامضاً. في تلك الأثناء، كان يؤدي أي عمل يتوفر له، ويستمتع بعيش الحاضر. كان تاريخ حياته خالياً إلاّ من الصورة الرائعة لبوب وهو على شاطئ النهر في ذلك النهار المُشمس. في ذاكرته كانت صورةُ والده مُبهَمةً؛ وكذا صورة والدته؛ كلاهما أصبحا باهتين، مُعتمَين. كان البحرُ داكناً وأشدُّ إبهاماً من أي شيءٍ آخر. كل شيء أصبحَ منسياً ما عدا كولينز والفتاتان في شقتهما في سياتل. وحدها تلك الليلة بقيَتْ حيّةً في ذاكرته. حاولَ، جاهداً، ألاّ يفكِّرَ فيها وهو يُسرِع خطاه في ارتقاء دَرَج فندق غاردن.

كانت غرفة مكتب السيد كيركلاند كبيرة وحديثة الطراز وبدَتْ أكثر

رحابة بكثير مما هي فعلاً. وكذا بدا السيد كيركلاند. كان رجلاً قصيرَ القامة ولعلَّ اسمه الحقيقي ليس كيركلاند. كان يصطنعُ لهجةً إنكليزية، في حين أنَّ ملابسه وسلوكه كانا على مستوى ممتاز وينمَّان عن تحفُّظه، فيما عدا الجوهرة الكبيرة التي تُرصِّعُ الخاتمَ الذي يضعه في الإصبع الصغير ليده اليسرى، كلافتة خارجية ومرئيّة تدلُّ على الارتفاع المفاجئ والنفوذ غير المألوف.

" ويلارد ؟ ". كان الصوتُ حاداً.

" نعم، سيدي. السيد شيلنغ أرسلني إليك "

قال السيد كيركلاند " ستعمل جامع كرات، كما فهمت "، ولفظَ لقب العمل وكأنه وِسام. " وعليه، سوف تتقاضى مبلغ خمسة وعشرين دولاراً في الأسبوع. وهو مبلغٌ كبير بالنسبة إلى فتى صغير، لكني أعتقد أنك ستعمل بأقصى طاقتك للحصول عليه ". شعرَ جيم وكأنه سمع هذه النبرة الخطابيّة من قبل. " إننا هنا في فندق غاردن نحبُّ أن ننظر إلى أنفسنا كعائلة. على كل فردٍ فيها أن يؤدي دوره، من تلقاء نفسه "، ورسمَ ابتسامة أنيقة. " اجلس "، ونظرَ إلى جيم. " ستبدأ العمل منذ صباح الغد. أعتقد أنك أعطيت السيد شيلنغ مؤهلاتك. اطلبْ من مدبِّرة جناح الخدم أن تخصِّص لك غرفة ". أنهى السيد كيركلاند، مع هزَّةٍ من رأسه، المقابلة وغادره جيم.

كان بهو الفندق واسعاً مُزوَّداً بأعمدةٍ رخاميّة مربَّعة تدَّعي أنها تدعُم السقف المعيَّن الشكل؛ والأرضية مُغطَّاة بسجَّاد فخم أحمر اللون. من خلف طاولة المكتب المصنوعة من الخشب الرقائقي الذي يُحاكي الماهاغوني، كان موظفون بملابس رسميّة يستقبلون الزائرين، يتظاهرون

بالترحاب. وخدمٌ في زيّ رسميّ يتكاسلون على مقعدٍ عند الباب الأمامي، في انتظار حمل الحقائب ولأداء المَهام. في المعتاد يكونُ البهو مكاناً يعجُّ بالحركة، لأنَّ هناك دائماً مَنْ يصِل ومَنْ يُغادر. وقد وجدَ جيم الفخامة مرعبةً وجوَّ الملل الذي يُخيِّمُ على الخدم رفيعاً إلى أقصى حد. لعله ذات يوم سوف يصبح لا مبالياً هكذا.

قطعَ جيم أرض البهو، مُدركاً رثاثةَ حقيبته. تقدَّمَ من أحد الخدم وسأله بتردُّد " كيف أصلُ إلى جناح المستخدمين؟ "

نظرَ الشاب إليه بحركةٍ بطيئةٍ ملولٍ، ثم تثاءبَ وتمطَّى. " سوف أصحبك ". انتقلا من البهو إلى الحديقة الاستوائية الشهيرة التي أعطت للفندق اسمه. تبع جيم، مذهولاً بالألوان، مرشده خلال الدغل المصطنع.

" ما عملك؟ "

أخبره جيم.

" عامل في الخلاء! مِنْ أين أنت؟ "

قرَّرَ جيم أن يترك لديه أثراً حَسَناً. " لا أنتمي إلى أي مكان. كنت أعمل في البحر "

كان الشاب محترَماً ولكن فضولياً. " أين في البحر؟ "

قال جيم ارتجالاً " الكاريبي، المحيط الهادئ، بحر بيرنغ، في كل مكان. كنتُ أتجوَّل "

" هذا ما خمَّنتُهُ. فماذا تفعل هنا؟ "

هزَّ جيم كتفيه. " أهدرُ الوقت. أي شيء غير هذا أفعل؟ "

هزَّ الشاب رأسه متفكِّراً وهَرَشَ إحدى بثراته.

خُصِّصَتْ لجيم غرفةٌ صغيرةٌ تُطلُّ على موقف السيارات. كانت مدبَّرة

شؤون الجناح لطيفة المعشر ووعدَ الخادم أن يعرض عليه أن يُريه الحبال. وتمَّ الأمر. الآن أصبح لديه مكان صغير في عالم الآخرين.

*

شهرُ أيلول في جنوب كاليفورنيا لم يكن يختلف كثيراً عن أي شهرٍ آخر. كان الجو صحواً ومُشرقاً ولا مطر. ووفقاً لما جاء في الصُحُف فإنَّ حرباً تدور رحاها في أوروبا، لكنَّ جيم لم يكن متأكداً تماماً من سبب نشوبها. يبدو أنَّ هناك رجلاً اسمه هتلر ألماني الجنسية وله شارب والمهرّجون دائماً يحاكونه؛ في كل حفل لابد أن تجد مَنْ يُقلِّد ساخراً هتلر وهو يخطب. ثم كان هناك رجلٌ إنكليزي له شارب أكبر حجماً وطبعاً كان هناك موسوليني لكنّه لم يُبدِ أنه يشاركُ في الحرب. للوهلة الأولى بدا الأمرُ مثيراً، وكانت تظهر عناوين كبيرة عنها. ولكن مع حلول نهاية شهر أيلول فقَدَ جيم اهتمامه بالحرب لأنه لم تكن تقع معارك. بالإضافة إلى أنَّ وقته أصبحَ مشغولاً بتعليم كرة المضرب لرجال ونساء أثرياء ليسوا مُهتمِّين كثيراً بدورهم بشؤون الحرب.

أعجبَ شيلنغ بجو، وبعد أن لعبا معاً مرات عدَّة، سمحَ له بالتعليم. وشجَّعه أيضاً على الاشتراك في الدورات، لكنَّ جيم كان قانعاً بالاستمرار كما هو. كانت حياته رخيَّةً وصحّية. واكتسب بعض الوزن؛ وتضخَّمَ جسمه بالعضلات؛ واكتسبَ شعبيّةً بين المتردِّدين على الملعب، خاصةً الصبايا المُقيمات في الفندق. كنَّ يغازلنه، وكان دائماً يتجاوبُ معهنَّ بأدب، ولكن بتملُّص، مما جعلهنَّ يعتقدنَ أنه حسّاس بقدرِ ما هو وسيم.

كان قد تعوَّدَ على مرأى المشاهير من الممثلين والممثلات وهم يلعبون كرة المضرب ويتشمَّسون بجوار البركة. في الحقيقة، كانت هناك ممثلةٌ عجوز

مشهورة (تبلغ حوالي الأربعين) تأخذُ دروساً على يديه كل يوم؛ وتقذف سباباً فاحشاً كلما ارتكبتْ ضربةً سيئة. ووجدها الأكثر إثارةً للاهتمام.

كان جيم أيضاً قد بدأ ينخرط في الحياة الاجتماعية. اشتركَ مرات عدَّة في حفلات مع الخدم. أرادَ معظمهم أن يُصبحَ ممثلاً، مما فسَّرَ سبب أدائهم أعمالهم حول الفندق. وهم شاردون والكثير منهم كانوا مولعين بجيم لأنه لم يكن يريد أن يصبح ممثلاً؛ وأيضاً بدا صادقاً في إعجابه بهم. وجيم لم يكن يخلو من مكرٍ إجتماعيّ. ومع ذلك كان رفاقه الجدُد يُحيّرونه؛ فحديثهم كان غالباً مُلغَّزاً، وعيونهم سريعة الحركة، باحثة. ينزعجون من الدخلاء، ويتشاجرون مع بعضهم البعض والشيء الوحيد الذي يجمع بينهم كان رغبتهم في أن يظهروا بعظمة بين الآخرين، ويعيشوا بعظمة إلى الأبد، وألاّ يموتَ ذكرهم.

كان لديهم الكثير من الأصدقاء الأثرياء الذين يُقيمون حفلات، وهم في الغالب من نساءٍ في منتصف العمر، أرامل أو مُطلّقات، ورجال بدينين لديهم عادات كريهة حين يسكرون. وقد تولّعتْ النساء خاصةً بجيم وكثيراً ما سمعَ مَن يقول له إنه " شخصٌ حقيقي " وليس كالآخرين، كائناً ما كان معنى ذلك. الرجال البدناء أيضاً كانوا لطيفين معه ولكن حين لا يستجيب، جهلاً منه، لطقسِ حديثهم غير المحتشم، يتركونه وحده.

حذَّرَ أوتو شيلنغ جيم من باقي الخدم، وشرحَ له قائلاً إنه بما أنهم شبان شاذين فإنهم سيحاولون أن يُفسدوه. كان أوتو صارماً وهو يشرح هذه المسائل لجيم، الذي نجحَ في أنْ يُظهِر الانصعاق وعدم التصديق (كان مندهشاً فعلاً) حتى أنَّ أوتو وفَّرَ عليه إيراد شرحه الكامل لما عنى.

مرَّ جيم بمراحل عِدَّة قبل أن يكتشفَ أنَّ هناك بالفعل العديد من

الرجال الذين يميلون إلى رجال آخرين. كانت ردّة فعله الأولى الشعور بالاشمئزاز وبالرعب. تفحّص كلاً منهم بعناية. أهو منهم؟ بعد فترةٍ وجيزةٍ من الوقت أصبحَ يميِّز الواضحينَ منهم من سلوكهم المتوتِّر. وبعد مرورِ بعض الوقت، بعد أن تعوَّدَ الشبان على جيم، أصبحوا يتحدثون بصراحة عن أنفسهم. وأخيراً، حاولَ أحدهم أن يغويه، ففقدَ جيم أعصابه تماماً، وكان عنيفاً في رفضه. غير أنه بعد ذلك واظَبَ على حضورِ حفلاتهم، ولو فقط ليكونَ قادراً على أن يُجرِّب من جديد متعة الرفض.

في وقتٍ متأخِّر من بعد ظهر أحد الأيام، وَلَجَ أحد فتية الخدم واسمه ليبر مركز كرة المضرب في الوقت الذي كان جيم يكادُ ينتهي من أخذ الدش. دخلَ ليبر إلى غرفة الاغتسال، وهتفَ " هيه، جيم "

أزالَ جيم الصابون عن عينيه، وأجاب " هاي! "، وعلى الرغم من أنَّ ليبر كان أحد الذين رَفَضَهم، إلا أنهما بقيَا على علاقةٍ طيّبة.

" أتريدُ أن تذهب إلى إحدى الحفلات؟ "

" أين؟ "، وأغلقَ جيم صنبور الدش، والتقطَ منشفته وانضمَّ إلى ليبر في غرفة تغيير الملابس. وبينما هو يُجفِّفُ نفسه، كان يعرف أنَّ الآخر يتفحَّصه باهتمام شهوانيّ. كان الأمرُ بالنسبة إليه مُسلّياً أكثر منه مثيراً للحنق.

" في منزل رونالد شو. في بيفرلي "

دُهِشَ جيم. " الممثل السينمائي؟ "

" هو بعينه، يُقال إنه " ودود " "، وقامَ ليبر بإيماءةٍ نسائيّة. " طلبَ من أحد أصدقائي أن يجمعَ له بعض الوسيمين ففكَّرتُ فيك. طبعاً قد تكون الشاب السويّ الوحيد هناك، ولكن مَنْ يدري، قد توجد هناك فتاةٌ

ذات شعر أحمر بين المجموعة ". كان جيم قد أصبح ذا سُمعةٍ أسطوريّة بأنه يحبُّ الفتيات ذوات الشعر الأحمر. أخذَ ليبر يُثرثرُ بمرحٍ حول رونالد شو بينما جيم يرتدي ملابسه.

" لا شك في أنَّ حضورَ إحدى حفلات شو أمرٌ رائع. إنه نجمٌ سينمائيّ حقيقي، والفتيات في كل مكان مجنونات به! هذه نكتة، أليس كذلك؟ حين عملتُ معه في أحد الأفلام في مترو... ". كان ليبر، كغيره من فتية الخدم، يقومُ بأعمالٍ إضافيّة في الأفلام السينمائيّة وكثيراً ما كان يتكلّم عن نجوم " عملَ معهم ". " تلك المرشدات جئنَ ليُقدِّمنَ له جائزة من نوعٍ ما فقال : " هلاَّ أخذتَ هذه الوحوش البالغة ووضعتهنَّ في الفناء الخلفي". وطبعاً تمَّت تغطية الحدث بالكامل، تماماً كما حصلَ عندما ضربَه ذلك الجندي البحري من بندلتُن في إحدى الحانات في سانتا مونيكا. أوه، ذلك الرجل رائع! "

" إنه صغير السن، أليس كذلك؟ ". فَرَقَ جيم شعرَه في المرآة.

" لعلّه في الثلاثين. هؤلاء الرجال لا يمكن فهمهم. على أي حال، يجب أن أحذِّركَ، سوف يغويك، وأنت طبعاً لن تُمانع في ذلك البتّة "

زمجرَ جيم في وجه المرآة. " فليجرؤ على فعل ذلك "، مُدركاً أنَّ وجهه المسفوع بأشعة الشمس جعله يشبه أحد سكان الجزر الجنوبية الذين يظهرون في السينما. قال، مُبدياً استعداداً لخوضِ المغامرة، " سوف آتي حتماً "

- ٢ -

كان رونالد شو، وهو في سن الخامسة والثلاثين، وسيماً إلى درجةٍ تثيرُ الاضطراب، ويحملُ قَسَمات وجه عاديّة جداً إلى درجة أنها، ويا

للمفارقة، فريدة من نوعها؛ وله شعرٌ أسود مجعَّد ينهمرُ فوق جبينٍ كلاسيكي منخفض أضفى عليه مظهراً يصِفه مُعجبون بالـ " شيطاني "، ويصفه منتقصوه بالـ " همجي ". كان يبدو، بعينيه بلونهما الأزرق الفاتح، " أيرلندياً أسود " نموذجياً، نَمَطاً يظهرُ غالباً بين اليهود. كان رونالد شو مولوداً باسم جورج كوهن. وكان في وقتٍ من الأوقات قد ظنَّ أنَّ حملَ اسمَ جورج. م كوهان قد يكونُ مُجزياً. لكنه لم يكن كذلك، وهكذا أصبحَ جورج كوهن رونالد شو، شاباً أيرلندياً، وسيماً، ملتهباً، تُدخِّلُ أفلامه أموالاً. وكان جورج كوهن من بالتيمور شديدَ الفقر أما الآن بعد أنْ أضحى رونالد شو ثرياً لن يعود أي منهما إلى الفقر من جديد. كان شو بخيلاً بخلاً شائناً، إلاّ مع أمه في بالتيمور. وكما يعلم كل قارئ لمجلات السينما، كانت أمه هي " أفضل فتاة " لديه وسبب بقائه عازباً، وهذا صحيح تماماً، ويوافقُ عليه أي فرويديّ.

على الرغم من أنَّ شو كان نجماً منذ خمس سنوات، فإنه لم يشترِ منزلاً في هوليوود، وفضَّلَ أن يستأجرَ منازلَ نائية يُقيمُ فيها حفلات لشبّانٍ خلف جدرانٍ سميكةٍ وفي ظل نظامِ إنذارٍ ضد اللصوص. وكان متحفِّظاً، على طريقته الخاصة. ومع ذلك فكل شخصٍ في عالم المثليّة الجنسية يعلمُ أنه أحدهم. وطبعاً كانت هناك شائعات تدور حول ممثلين آخرين، ولكن في حين أنه في حالاتٍ أخرى كان هناك قدرٌ من الشك الحقيقي في عقول حتى أشد المدافعين عن الإثم السقراطي حماساً، فلم يكن هناك أي أثرٍ له في حالة شو. كان دائماً يَردُ ذكره في الأخويّة بفخرٍ، وحسَد وشهوة. ولحُسن الحظ، ظلّتْ نساءُ أميركا جاهلات بأمره كراوٍ لشهوة الحب، لا يمكنُ بلوغه ولكنه مفيدٌ كرفيقٍ في الأحلام، فرجل

الإعلانات خرجَ إلى الحياة ثلاثين مرةً بحجم الحياة على شاشة السينما.

لقد حقَّقَ رونالد شو ذلك. ولمّا لم يكن إلا بشراً فإنه وجدَ أنَّ مُعظم العلاقات الإنسانية مُخيّبة للآمال. كان شركاؤه في الجنس يتمُّ انتقاؤهم لِما يتَّصفون به من جمالٍ جسَديّ وذكورة خشنة. وكل علاقة جنسية كانت تبدأ وكأنَّ خلقَ العالم يوشكُ أن يحدث، وكل منها ينتهي عادةً في وقتٍ أقصر مما استغرقه خالق العهد القديم في رفع السماء. لم يكن هناك أي شيء يُسعِد شو طويلاً. فإذا ما عشقه فتى (متجاهلاً الأسطورة) كان شو يشعر بالإهانة وبأنه مُعرَّض لخطر؛ ولكن إذا ما استمرَّ أحد العشّاق بالافتتان بالتفكير فيه، سرعان ما يناله الضجر. ومع ذلك، كان شو رجلاً سعيداً، ولو لم يكن قد سمع عن الحبّ الرومانسي لما نظرَ إلى الجِماع بجدّية.

أُعجِبَ جيم كثيراً بروعة منزل شو. كان مهندس ديكور قد نَفَّذَ الديكور مجّاناً؛ ولكن لسوء الحظ انتهتْ العلاقة بينهما قبل انتهاء إعداد غرف النوم. ولكن الطابق السفلي تمَّ تنفيذه بنجاح، كان قصفاً من الزخرفة الباروكيّة الأسبانيّة مُزوّداً بغرفة استقبال تطلُّ نوافذها على لوس أنجلوس، تتلألأ جهة الغرب. وفوق موقد واسع الغور عُلِّقَتْ لوحةٌ شخصية لرونالد شو، ومرةً أخرى كادتْ تكون بحجم الحياة. وأصلُ هذا العمل الفني الفاتن، الموضوع في مركز الغرفة، وتعمل بجمال على توجيه خط سير الحفل. كان مؤلَّفاً من مجموعةٍ غريبة. فأولاً، كان هناك من الرجال والنساء ثلاثة أضعاف ما يحضر عادة. وتعرَّفَ جيم على شخصيات ممثلين عِدّة؛ ولم يكن رونالد شو بحاجة إلى أقل دعم. النساء

كلّهنَّ كنَّ أنيقات، وذوات أصوات عالية، ويتزيَّن بحُلي ضخمة، ويعتمرن قبعات يعلوها الريش. وقد أكَّدَ ليبر العارف بالأمور أنهنَّ لسنَ سُحاقيات. كنَّ ببساطة قد تجاوزنَ السن التي يستطعنَ فيها أن يجذبن الرجال الطبيعيين وهكذا انجرفنَ، وما زلنَ يتُقنَ إلى جذب الانتباه، إلى عالم مُزيِّنيَ الشعر والـ couturiers (مُصممي الأزياء النسائية). هنا كان في إمكانهنَّ أن يُثرثرنَ ويُمارسن الحبَّ المسرحي ويتجنّبنَ الملل، إذا لم نقُل اليأس.

غمغمَ ليبر " أليس هذا رائعاً؟ "، وقد نسيَ في غمرةِ رهبته دوره كشخصٍ مُحنَّك وكمُرشد.

هزَّ جيم رأسه موافقاً. " أين رونالد شو؟ "

أشارَ ليبر إلى مركز الغرفة. في أول الأمر شعرَ جيم بالخيبة. لقد كان شو أضألَ حجماً مما توقَّعَ. لكنه كان وسيماً، لا شكَّ في ذلك. وخلافاً للآخرين كان يرتدي بذلةً داكنة اللون أضفتْ عليه جلالَ القامة النحيلة. في تلك اللحظة كان مُحاطاً بالنساء. كان الشبّانُ أكثر حذراً، ولبثوا عند محيط الحفل، ينتظرون.

قال ليبر " يُستحسنُ أن تقابله "

سارا نحو مجموعةٍ من النساء وانتظرا إلى أن انتهى شو من سرد حكاية. ثم أسرعَ ليبر، وسطَ نوبةِ الضحك الحادّ العالي، إلى القول " ألا تذكرني يا شو؟ ". بدا وجه شو خالياً من أي تعبير لكنَّ ليبر استمرَّ في الكلام. " لقد طلبَ مني السيد ريدجواي أن أُحضَرَ هذا المساء، وجلبتُ معي صديقي هذا، جيم ويلارد. إنه شديد التوقِ إلى لقائك... "

ابتسمَ رونالد شو لجيم. " كيف حالك؟ ". كانت يده باردة وقاسية.

قال جيم " إنني... أحبُّ تمثيلك في الأفلام ". ارتعبَ ليبر؛ كان قولاً سيئاً سوءاً هائلاً . فمع نجوم السينما من المفترض بالمرء أن يبدو لا مبالياً.

لكنَّ الإعجاب لم يكن أبداً يزعجُ رونالد شو. ابتسمَ، كشفاً عن صفٍ من الأسنان البيضاء. " لطفٌ منك أن تقولَ هذا. هيا، فلنشرب كأساً ". تحرَّرَ شو، بلباقةٍ، من النساء وسارا معاً إلى الركن القَصيّ من الغرفة.

كان جيم، وقد سربله الارتباك الشديد، مدركاً لمراقبة الكثير من العيون له. لكنَّ شو كان هادئاً تماماً حين استوقفَ نادلاً وتناولَ كأساً من الصينية. " آملُ أن تحب المارتيني "

" في الواقع، أنا لا أُسرِفُ في الشرب "

كان صوتُ شو منخفضاً كَمَنْ يُفضي بسرّ. " ولا أنا "، وكأنَّ الشخصَ الوحيدَ في العالم الذي يسعى إلى صُحبته والحصول على رأيه السديد هو جيم المبهور. وعلى الرغم من أنه لم يكن يطرح إلا الأسئلة المعتادة، إلاّ أنَّ صوته الدافئ جعلَ تلك العبارات المألوفة تبدو ذات مغزى، بل ولا غِنى عنها، " هل أنتَ ممثل؟ "

أخبره جيم على عَجَل ما هو.

رسمَ شو ابتسامةً عريضةً. " رياضيٌ! يا سلام... تبدو أصغرَ سِنّاً من أن تكون مُدرِّباً ". كانا واقفَين حينئذٍ عند إحدى النوافذ الكبيرة. ولاحظَ جيم من زاوية عينه أنَّ باقي الضيوف يستعدّون لاكتناف شو وإعادة أسره. لم يكن لديهم مُتَّسعٌ من الوقت. وهذا ما شعَرَ به شو، أيضاً. " ماذا قلتَ لي اسمك؟ ". أخبره جيم. قال شو، وهو ينظر إلى المدينة من تحته مُتفكِّراً، " يجب أن تأتي لزيارتي ذات يوم. متى تكونُ حراً؟ "

قال جيم، وقد ذُهِلَ لسرعة استجابته، " إنني لا أعملُ بعد ظهر يوم الخميس "

" إذن لِمَ لا تأتي إلى هنا في يوم الخميس. إذا وجدتني ما أزالُ أمارسُ الصيد، في إمكانك أن تسبح إلى أن أعود. إنني أنتهي عادةً عند الساعة الخامسة "

" حتماً، أودُّ ذلك ". شعرَ جيم انقباضاً في معدته من فرط الخوف والترقُّب.

" إلى اللقاء في يوم الخميس "، ثم سَمَحَ رونالد شو للشبان بالإحاطة به، بإيماءةٍ مهذَّبةٍ عن بُعد قُصدَ بها تضليل جمهوره.

انضمَّ ليبر إلى جيم. " إذن انضممتَ إلى المجموعة ". كانت عيناه تومضان. " لقد تولّه بك مثل... "

" ألا خرِست؟ "، وأشاحَ بوجهه بعيداً بغضب.

" لا تخدعني. لقد أوقعته في شباكك. الكلُّ لاحظَ ذلك. أنت لا تعلمُ مَنْ أنت. كنتُ أخبرهم أنكَ سويٌ كالموت، مما أسالَ لعابهم أكثر من ذي قبل. أنتَ مضمونُ النجاح، يا فتى. انظرْ إليهم كيف يُحدِّقون جميعاً إليك ". ألقى جيم نظرةً لكنّه لم يرَ أحداً يُحدِّق. " عمَّ تحدَّثَ معك شو؟ "

" لا شيء "

" أه، حتماً! حسن، يحسُنُ بك أن تنبسط هذه المرة؛ يستطيع أن يفعل من أجلك الكثير "

" آسف، ليستْ لديَّ خططٌ للإقامة معه، أو مع أي شخص آخر "

ألقى ليبر إليه نظرةَ دهشة حقيقيةَ. " إذن قد لا تكون شاذاً، ولكن هذه حالةٌ استثنائيّة. في الواقع هذا ما يحلمُ به البشر. يمكنكَ أن تجمع ثروة من ورائه "

ضحكَ جيم وابتعدَ. حاولَ أن يبدو مرتاحاً وهادئاً، لكنه لا كان هذا ولا ذاك، فقريباً سيتوجَّبُ عليه أن يتَّخذَ قراراً، في يوم الخميس على وجه الدقَّة. ماذا سيفعل؟ أخذَ يتنقَّل طوال الأمسية بحركاتٍ آليّة، وقلبه يخفق بقوَّة. وعندما حان وقت الوداع، ابتسمَ له شو وغمزَ بعينه. احمرَّ وجه جيم وابتعد. لم يبُحْ بأي كلمة لليبر وهما يستقلان الحافلة.

- ٣ -

كانت حياة جيم الجنسية تجري كلها في عالم الأحلام حتى ذلك اليوم مع بوب على ضفَّة النهر كان يحلم بالنساء بقدر ما يحلمُ بالرجال، ولكن لم تكن هناك حدودٌ جليّةٌ بين الفئتين. ولكن منذ ذلك اليوم الصيفي أصبحَ بوب هو العشيق-الحُلُم، لم تعد الفتيات يتدخَّلنَ في أنشودتهما الذكوريّة المثاليّة. كان يدركُ أنَّ ما يحلمُ به ليس ما يحلمُ به الرجال الطبيعيون، لكنّه في الوقت نفسه لم يربط بين ما فعلَه مع بوب وما يفعله معارفه الجُدُد. كثيرٌ منهم كانوا يتصرَّفون كالنساء. وكثيراً ما كان يتفحَّصُ نفسه في المرآة، بعد أنْ يغادرهم، ليرى إنْ كان هناك أي أثر أنثويَ على وجهه أو في سلوكه؛ كان دائماً يُسرُّ لأنه لم يكن يعثرُ على أي أثر. وأخيراً قرَّرَ أنه إنسانٌ فريدٌ من نوعه. كان الوحيد الذي فعلَ ما فعلَ وشعرَ كما شعر. حتى الشبان الأنيقون، ذوو الشعور الطويلة كلهم اتَّفقوا على أنه ربما ليس مثلهم. ومع ذلك، كانت النسوة يتوقَّعن منه أن يغازلهنَّ، وحين لا يفعلُ (لمْ يكن ليستطيع أبداً أن يشرح لهُنَّ بوضوح سبب ذلك) كنَّ يشعرنَ أنَّ النقص يكمنُ فيهنَّ وليس فيه. لم تكن أي منهنَّ لتشكَّ في أنْ يحلمَ كل يوم بفتى ممشوقِ القامة على

ضفة نهر. ولكن بينما كان جيم يندمجُ أكثر فأكثر في عالمٍ ليبر وجدَ نفسه ينبهرُ بالقصص التي يحكونها عن علاقاتهم مع بعضهم البعض لم يكن ليتصوَّر نفسه يفعلُ الأمورَ التي يقولون إنهم فعلوها. غير أنه أرادَ أن يعرفها، حتى ولو من باب الرغبة المَرَضيّة في اكتشاف أنَّ ما هو طبيعيّ وتام بالنسبة إليه يمكنُ أن يكونَ فاسداً تماماً بالنسبةِ إلى تلك المخلوقات الأنثوية الغريبة.

في مِزاجٍ مُتردِّد ذهبَ جيم لُملاقاة رونالد شو، وقد حَدَثَ ما توقَّعَ حدوثه. سمحَ لنفسه بالاستسلام للغواية، متأثِّراً بشُهرة شو وبجماله الجسماني. كان الفعلُ مألوفاً غير أنه كان هذه المرة هو الطرفُ السلبيّ، بسبب شَدَّة حيائه من أن يكونَ المعتدي. مع بوب كان هو صاحب المبادرة، ولكن تلك كانت مناسبةً مختلفةً ووقتاً أكثر أهمية.

بدأتْ العلاقة. كان شو عاشقاً، أو على الأقلّ تحدَّثَ عن الحب، وكيفَ سيقضيان بقية حياتهما معاً (" مثلَ تينك اليونانيَين القديمَين – أنت تعرفهما، آخيل وما إلى ذلك – اللذَين كانا عاشقَين شهيرَين "). وهذا لا يعني أنَّ أمرهما سيُذاع؛ إنَّ هوليوود مكانٌ لا رحمةَ فيه وينبغي عليهما أن يكونا كتومَين. ولكن بالنسبة إلى مَنْ لم يعرفهما فسوف يفتَنُ بهما بوصفهما زوجاً مُبهراً، شابَين مثاليين، يُمثِّلان من جديد أحلامَ الطفولة خلفَ الجدران المجصَّصة للمنزل القائم في الملهوند درايف.

على الرغم من أنَّ جيم استحسَنَ ما أبداه شو من حبٍ له، إلا أنَّ جَسَدَ الرجلَ الأكبر سناً منه لم يُثره. كان جيم يكره بشكلٍ غريب أن يلمسَ لحمَ الرجل الناضج، مهما بلغَ من الوسامة. يبدو أنَّ مَنْ هم في مثل سنِّه فقط كانوا قادرين على اجتذابه. ولكن حين كان يُغمِضُ عينيه

يستمتعُ، لأنه حينئذٍ كان يفكّرُ في بوب. وهكذا بدأتْ علاقةُ الحب، أو "العلاقة "، على حدّ قول الذين خضعوا للتحليل. كانت تجربةً جديدةً بالنسبة إلى جيم وليستْ ممتعةً تماماً.

أول تصادم مع العالم حَدَثَ حين أخبرَ جيم أوتو شيلنغ أنه سيرحل.

دُهشَ شيلنغ. قال " أنا لا أفهم، لا أفهم لماذا تريد أن تتركني. هل ستحصل على أجرٍ أعلى في مكانٍ آخر؟ "

هزَّ جيم رأسه إيجاباً.

ألقى شيلنغ عليه نظرةً حادةً. " أين؟ كَمْ؟ "

انزعجَ جيم. " في الواقع إنَّ رونالد شو، الممثل، وأولئك الآخرين " (هكذا أضافَ بغموض) " يُريدونني أنْ أقومَ بالتدريب في ملاعبهم، وقد وافقت "

" وأين ستُقيم؟ "

أحسَّ جيم بالعَرَق يجري على جنبه. " سأقيمُ في منزل شو ".

هزَّ شيلنغ رأسه وهو متجهِّم وندمَ جيم لأنه لم يكذب عليه. إنَّ الجميعَ يعرفون بأمر شو. وشعرَ جيم بالخجل. قال شيلنغ ببطء " لمْ أكنْ أعلم أنك هكذا. إنني أشفقُ عليك. لا مانعَ في أن تُقابلَ شخصاً مثل رونالد شو، ولا خطأ في ذلك، ولكن أن تكونَ فتاهُ، فهذا هو الأمرُ السيّئ "

مسحَ جيم جبينه بظاهرِ يده. " هل هناك أي شيء تريدني أن أقومَ به قبل أنْ أرحل؟ "

قالَ شيلنغ بضجر " كلا، فقط أخبرْ السيد كيركلاند أنكَ راحل "، واستدارَ وابتعد.

ذهبَ جيم إلى غرفته وهو يرتجف وباشرَ حزم أمتعته. انضمَّ ليبر إليه. هتفَ " تهانيَّ! إنه حظُّ المبتدئ، ولا يمكنُ قهره "

" عمَّ تتحدَّث؟ "، وأخذَ جيم يحزمَ الأمتعة بحركاتٍ حانقة.

" هيا، الجميعُ يتكلمون عن أنكَ ستُقيمُ مع رونالد شو! فكيفَ وجدتُه؟ "

" لا أدري ". شعرَ جيم بالواجهة الطبيعية التي يتلبَّسُها تنهار.

" وماذا ستصبحُ، طبَّاخهُ؟ "

" سأعلِّمه لعب التنس ". بدا ذلك حماقةً حتى لأُذُنَيّ صديقه. وأخذَ يُعبِّرُ عن امتعاضه بشكلٍ شنيع. لكنَّ جيم تمسَّكَ بعنادٍ بما قاله، شارحاً كيف أنَّ شو سيدفعُ له خمسينَ دولاراً، وكان ذلك صحيحاً.

قال ليبر بينما كان جيم يُكملُ حزمَ أمتعته، " استدعِني أحياناً؛ يمكننا أن نلعبَ زوجياً "

اكتفى جيم بالتحديق غضباً. ولكن ثمة شيئاً واحداً في هذا كله أدهشه : إنَّ ليبر، الذي يعتقدُ أنَّ جيم طبيعيّ جنسياً، سلَّمَ بأنَّ أي فتى طبيعيّ يمكنُ أن يُقيمَ مع ممثلٍ مشهورٍ، إذا أُتيحَتْ له الفرصة. في عالم ليبر كلُّ الرجال عاهرون وكلُّ العاهرون خنثويون.

*

كان شو جالساً عند بركة السباحة عندما وَصَلَ جيم. وكانت بركةُ السباحة قد أعدَّتْ لتكونَ أشبهَ بالسُرَّة في مسطبةٍ من الآجُرِّ الأحمر يحفُّ بها حمَّامان يُشبهان صوانين بأبراجٍ يخصّان فارساً من القرون الوسطى. لوَّحَ شو بيده لجيم وهو يقترب.

" هل قطَعتَ علاقتكَ تماماً معهم؟ ". كان في الصوت العميق نبرةٌ ساخرة.

" قطعتُها كلها. أخبرتُ شيلنغ أني ذاهبٌ لأعلِّمَكَ وأناساً آخرين التنس "

" أذكَرتَ اسمي؟ "

" نعم. تمنَّيتُ لو أني لم أفعل. آسف. لأنه عَرِفَ بالضبط ما يجري بيننا. لم يقُلْ الكثير لكني شعرتُ أني قذر "

تنهَّدَ شو. " لا أعلمُ كيفَ عرفوا كل ذلك القدر عني. هذا أسوأ ما في الأمر ". كان شو كأغلب الشواذ جنسياً، مُندهشاً لأنَّ أي شخصٍ يستطيعُ أن يرى ما يجري وراءَ قناعه. " اعتقدُ أنَّ السبب يعودُ إلى أنَّ الكثيرَ من الناس ينطوونَ على غيرةٍ لعينةٍ مني ". بدا صوتُه حزيناً وفخوراً. " لأنَّ الجميعَ يعرفون مَنْ أنا ولأني أكسبُ الكثيرَ من المال، كلهم يعتقدون أني غايةً في السعادة، وهم يمقتون ذلك وهو غير صحيح. أمرٌ غريب، أليس كذلك؟ إنني أملكُ كل ما أردتُ ولستُ... يعني. إنَّ الوحشة شعورٌ فظيع. أوه، لقد حاولتُ أن أُحضِرَ أمي لتعيشَ معي لكنَّها رفضَتْ أن تغادرَ بولتيمور. وها أنا ذا، وحيد، كما تقولُ الأغنية. على الأقلّ هذا حالي حتى الآن "، ورسَمَ ابتسامةً مُشرقة. ردَّ جيم عليه بابتسامة، اغتصبَها غصباً. لم يسعه إلا أنْ يعتقد أنَّ الرجلَ قد امتلك فعلاً كل شيء، وإذا كان لم يعثُر على عشيقٍ حتى الآن فالخطأ خطأه دون أدنى شك.

فكَّ جيم أزرارَ قميصه. كان الجو دافئاً والشمسُ ممتعةً. جلسَ بسكونٍ تامّ، يحاولُ ألاّ يستغرقَ في حزنِ حياة رونالد شو. لكنَّ شو كان مثابراً. قال " في الواقع، أعتقدُ أني لم أتعرَّف إلى شخصٍ مثلك؛ شخص طبيعي جداً و... حسنٌ، وبريء. أيضاً أعتقدُ أنه لا يمكنُ دفعكَ إلى أن تكونَ عكس ذلك؛ لا تبدو أنكَ من هذا النمط ". سُرَّ لسماع هذا، لقد استعادَ إيمانه برجولته برهةً من الزمن. ابتسمَ شو. " لكني سعيدٌ لأنَّ الأمورَ اتَّخَذَتْ هذا المنحى ".

ابتسمَ جيم بدوره. " وأنا كذلك "

" إنني أكره أولئك الآخرين، أولئك الشاذين القذرين ". رفعَ شو أحد كتفيه وهزَّ جَسَدَه هزَّةً أنثويّة غريبة، ساخراً بإيماءةٍ واحدةٍ من الفئة كلها.

" بعضهم لا غبارَ عليه "

قال شو " إنني لا أتكلّم عنهم كأناس؛ أنا أعني من الناحية الجنسية. إذا كان الرجلُ يحبُ الرجال، فهو يريدُ رجلاً، وإذا أحبَّ النساء فهو يريدُ امرأةً، فمَنْ الذي يرغبُ في شخصٍ استثنائيّ لا هو هذا ولا ذاك؟ أجدُ الأمرَ مُبهَماً ". تثاءَبَ شو. " ربما كان يجدرُ بي أنْ أكونَ محلّلاً نفسياً "

" لماذا ؟ "

تفحَّصَ شو عضلات أعلى ذراعه بحركةٍ مُنتقدة : كان مظهره هو مصدر رزقه. " لا أدري. أحياناً أ... " لكنَّه لم يُكمل الفكرة. تراخَتْ ذراعاه. " إنهم ثُلَّةٌ من الزائفين، كلهم، يخبرونكَ أشياءَ تعرفها مُسبقاً. كلا، المهمّ هو أنْ تكونَ قوياً. يجب أن تكونَ قوياً في مثل عالمنا هذا. لا مكانَ فيه للضعيف، كما كانت أمي تقول. وقد كانت على حق. هكذا وَصَلتُ إلى ما أنا عليه؛ لأني قويّ ولا أرثي حالي "

أُعجِبَ جيم بصرامة خطابه، وتذكَّرَ وضعه الخاص. قال " لقد أفادتكَ صرامتُكَ هذه. كنتَ موهوباً، وتعرفُ ما تريد. ولكن ماذا عني انا؟ لستُ أكثر من لاعب كرة مضرب مستواه فوق المتوسط. فماذا أفعلُ أنا؟ لن تساعدني الصرامةُ على اللعب بصورةٍ أفضل "

نظرَ شو إليه، محاولاً كما كان واضحاً أن يفكِّرَ في الحالة. " في

الواقع، لا أدري ". زاغتْ العينان الجميلتان قليلاً. " هل ترغبُ في... أن تمثِّل؟ "

هزَّ جيم كتفيه بلا مبالاة. " أنا؟ لماذا؟ "

" في الواقع، ليستْ هذه فكرتي عن الحماس المُتَّقد. كلا، يجب أن "ترغب بقوة" هذا الأمر إلى حدّ الألم ". ثم تابعَ شو مناجاته لنفسه وكان هذا أشدّ ما يسرّه، حكاية ارتفاع نجمه في هذا العالم، دون مساعدة أحد غير أمه. كان شو قانعاً وهو داخل دائرة حُبِّه لنفسه، وجيم لم يكره قط كونه واقفاً عند حافة ذلك الانغماس في الذات. جيم قبل شو بشكلٍ كامل وبلا انتقاد. فعلاقتهما، أولاً وقبل أي شيء، لم تكن إلا فترةَ توقُّفٍ وجيزةٍ على مسارِ رحلةٍ طويلةٍ توصله إلى بوب.

بعد أن انتهى شو من ترتيله للإنجاز، قال جيم، بإعجابٍ لا يشوبه أي زيف، " أعتقدُ أني لا أتحلّى بهذا. إنني لا أريدُ أي شيءٍ إلى ذلك الحد "

أخذ شو يلاطف الخط العمودي للشَعر الأسود على صدره. "نستطيعُ حتماً أن نُدبِّرَ عملاً لكَ عملاً كممثل إضافي. بعد ذلك مَنْ يدري؟ "

" مَنْ يدري؟ "، ونهضَ جيم وتمطّى. راقبه شو، مستمتعاً ومُثاراً.

قال " ارتدِ سروال الاستحمام "، وقادَ جيم إلى داخل صِوان الفارس.

- ٤ -

مرَّ شهران بسلام. استمتعَ جيم بالعيش في المنزل الكبير ذي الغُرَف الشبيهة بمشاهد سينمائية. في الأيام التي يعملُ أثناءها شو في الأستديو، يمارسُ جيم لعبة كرة المضرب مع عددٍ من الأصدقاء الذين

يريدون أن يقابلوا عشيق شو الجديد وأيضاً لكي يُحسِّنوا أداء ضربات ظاهر اليد. وفوجئ جيم بشكل ممتع حين وجدَ نفسه ما يشبه الشخصية الشهيرة، على الأقلّ في هذا العالم الواحد، والاهتمام الذي كان يُثيره كان يعوِّض عن الخجل الذي كان يشعر به مع شيلنغ.

استمتعَ جيم بحفلات شو وسرعان ما أصبحَ ذا فائدة. تعلَّمَ كيف يتعامل مع السكارى، ويمزج المشروبات ويُلمِّح خفيةً لشو إذا أرادَ أن يحكي حكاية. وكان جيم يُعجَب كثيراً بحضور ذوي الملابس الجميلة الذين يُسرفون في الشرب ولا يكفّون عن الحديث عن حياتهم الجنسية. وكانت صراحتهم الفظّة تصعقه وتسلّيه معاً. لم يكونوا يخشون شيئاً، على الأقلّ وهم خلف الجدران الجصّية العالية لعزبة شو.

لم يكن جيم يجد شو فقط رفيقاً مسلّياً، بل، والأهمّ من ذلك، مُثقِّفاً. لقد كَشَفَ له سرَّ هوليوود حيث، كما يُقالُ، كل الممثلين للأدوار الرئيسية تقريباً من الشواذ جنسياً والذين ليسوا كذلك مُعرَّضون دائماً للمراقبة. وكانت مجموعة من النساء تلعب كمرافقات راكبات لفئة الرجال الوسيمين، وكثيراً ما كُنَّ يُستدعين ليظهرنَ كمرافقات في المناسبات العامة. وكنَّ يُعرفنَ بالـ " اللحي ". لكنَّهُنَّ لم يكُنَّ دائماً موثوقات. ففي إحدى الأمسيات حاولت إحدى المرافقات الراكبات وهي سكرى أن تضاجعَ شو، وحين دفعها عنه، راحتْ تقذف الموجودين كلهم بأقذع السباب، ثم رحلتْ ولم يعد أحد يراها.

لأسبابٍ تتعلّق بالدعاية كان شو يظهر بانتظام في النوادي الليلية مع فتيات، غالباً من الممثلات الناشئات. وكان يفعل ذلك لكي يُرضي رئيس الأستديو، وهو رجلُ أعمال عصبيّ المزاج يُرعبه أن تقضي تلك الفضيحة على مستقبل أغلى ما يملك.

كان جيم مُعجَباً بشو، مع أنَّ جيم لم يصدِّقه أبداً حين كان يُخبره، وهما معاً في الليل، كم يحبه. والسبب هو أنَّ الكلام ينسابُ منه بسهولة شديدة بحيث أنَّ حتى جيم الغرّ لاحظَ أنَّ الممثل كان يمثِّل عليه. وهذا لا يعني أنَّ جيم انزعجَ، فهو لم يكن عاشقاً لشو، ولا ادَّعى ذلك. والسبب الوحيد لذلك هو أنَّ فكرة عشق رجل كانت فكرةً سخيفة وشاذة. وفي أحسن الأحوال يمكنُ للرجل أن يعثُر على توأمه، مثل بوب، لكنه أمرٌ نادر الحدوث ومختلف أيضاً.

ذات يوم، أخذَ شو جيم معه إلى الأستديو. وعادةً لم يكونا يظهران معاً عَلَناً أبداً، أما في ذلك اليوم رأى شو أنَّ الوقتَ قد حان لكي يُشاهده جيم وهو يعمل.

كان الأستديو مكاناً ضخماً تكتنفه منصَّات متينةٌ بيضاء، تشبه مرائب عملاقة. بينما شو يقترب من بوابة الأستديو بسيارة، حيَّاهُ حارسُ البوابة باحترام، بينما أطلَقَتْ ثُلَّةٌ من الفتيات زعيق التعرُّف عليه ولوَّحنَ له بدفاتر التوقيع.

خلفَ البوابة كان هناك عالمٌ آخر، مسكون بممثلين ثانويين يرتدون أزياءَ مختلفة، ومسؤولين إداريين، وفنّيين وعمّال. كان يُنفَّذ عشرونَ فيلماً سينمائياً في وقتٍ واحد.

لا شيء آخر يهمّ هنا.

ركنّا السيارة أمام كوخ من البنغالو يحفُّ به نبات الخبيزة.

" هذه غرفة تغيير ملابسي ". كان شو قد بدأ يبدو عليه جوّ الانهماك في العمل. في الداخل كان هناك رجلٌ أصلع ضئيل يتمدَّدُ على الصوفا.

" لقد تأخَّرتَ يا عزيزي. إنني هنا منذ نصف ساعة، كما اتفقنا. وحتى الآن قرأتُ مجلات " فارايتي " و " ريبورتر" وحتى المخطوط "

" أنا آسف، ساي ". قدَّمَ شو جيم إلى الرجل المتمدِّد على الصوفا. " ساي هو مخرج فيلمي "

" إذا كان هذا ما تستطيع أن تُسمّي ما أفعله في هذا المكان البائس". أنَّ ساي. " لماذا غادرت نيويورك؟ لماذا لمْ أبقَ مع " جماعة المسرح "؟ "

" لأنهم لم يُريدوك، يا عزيزي ". ابتسمَ شو وهو يخلع سترته.

" ها هو ذا، بلحمِه وشحمِه، أسوأ ممثل في أميركا ". التفَتَ ساي نحو جيم. " كل رأس ماله هو تلك الابتسامة الرائعة وذلك التكوين الصدري ...pectorals أو pectorials، كما يقولون هنا "

" أتغار، يا عزيزي؟ ". تعرَّى شو إلا من بنطاله القصير وأخذَ يمطُّ عضلات صدره الشهير. أنَّ ساي باشمئزاز وأغمضَ عينيه.

" لا أكادُ أتحمَّلُ هذا! "، وأشارَ إلى الباب. " ارتدِ زيَّكَ. المساحيق تنتظر منذ الساعة السابعة "

خطا شو إلى داخل الغرفة المجاورة، تاركاً البابَ مواربأ. " إذن ماذا في البرنامج؟ "

" يوجد مشهد جديد. الكتَّاب عملوا عليه طوال الليل. كتبوا هذا المشهد الجديد الرائع على لائحة أطعمة في " نادي القطن ". سيعجبك "

" هل أقومُ بدور الشجاع؟ "

" وكيف لا؟ لقد أضفوا عليكَ مظهرَ المِقدام، والعضَل المفتول... وكل شيء "

" العضل الماذا؟ "

" سأقول شيئاً واحداً، لو أنهم ثقّفوا واحداً منكم أنتم الأغبياء لكانت تلك هي نهاية الحلم الأميركي. ألا تتّفق معي، يا عزيزي؟ ". رمى ساي جيم بنظرة حادة.

قال جيم " حتماً "

قَلَّدَه ساي ساخراً " حتماً "، ثم سالَ السقفَ " ما الذي أفعله هنا؟ "

جاء صوتُ شو من الغرفة المجاورة " تُدخِّلُ ألفاً وخمسمائة دولاراً في الأسبوع، وهذا مبلغٌ تافه بالنسبة إلى مُخرِج جيد، أما بالنسبةِ إليك... "

" أهذا جزائي لأني جئتُ إلى هنا لأحاولَ أن أساعدك في تنفيذِ هذا المشهد الجديد الحرِج بحيث تعرف حين تواجه بروني الكبير ماذا تفعل؟ نعم، هذا هو جزائي، وسوفَ تكتفي بإطلاق الكلمات كما تفعل دائماً، وتسقطُ آلةٌ أخرى تضعُ النقودَ في حجر صُنَّاع السينما الأميركية. أتريد بدورك أن تصبح ممثلاً؟ ". مرةً أخرى التفتتْ عيناه الحادّتان إلى جيم.

" في الواقع... "

" في الواقع، طبعاً تريد! وأين في أي مكانٍ آخر في العالم غير هنا يستطيعُ الرجلُ المُجرَّدُ من العقل والموهبة أن يصبحَ ثرياً ومشهوراً فقط لأنَّ... "

دخَلَ بزيٍّ كاملٍ يعودُ إلى القرن الثامن عشر. قال بمرح " فقط لأني رمزٌ جنسيّ. انظُرْ إلى هاتين الساقين، يا عزيزي. إنَّ التفكيرُ فيهما يُسيلُ اللعاب ". وربَتَ شو على الفخذ المُدجَّج بالعَضَل بحبٍ ظاهر. "هذا ما يُريده الجالسون هناك في الظلام وأنا أملكه "

" حافظ عليه، أرجوك "

لم يكُن جيم قد شاهدَ من قبل ممثلاً مُثقَلاً بالمساحيق. تملّكه رُعبٌ حقيقيّ من التحوُّل الناتج. ليس هذا هو الرجل الذي عرفه بل شخصٌ آخر، غريب فاتن. وكالمعتاد، كان شو مُدرِكاً للتأثير الذي يخلقه، وابتسمَ لجيم ابتسامةً متآمرة.

سأله جيم " أي نوعٍ من الأفلام هذا ؟ "

قال ساي، بهدوء " خراء! "

قال شو " تسلية شعبيّة سوف تغلُّ أربعة ملايين مشاهد في الداخل. إنه إعادةُ إنتاجٍ لتلكَ الرواية الفرنسيّة الكلاسيكيّة التي ألّفها ألكسندر دوما الابن ". أضافَ هذا بصوتٍ يتدرَّبُ، مناسب لإرشاد الصحفيين في مطعم الاستديو.

"لقد كان دوما الابن رونالد شو عصرَه، فليساعده الربّ ". نهضَ ساي واقفاً. "لننزل إلى مكان التصوير. العاهرة الإلهة موجودة هناك "

شَرَحَ شو لجيم أنَّ الإلهة العاهرة هي التي تشاركه بطولة الفيلم، وهي سيدة مشهورة ووجودها فيه ضمانٌ لنجاحه. وكان لمزيج شو وتلك السيدة فعاليّة خاصة.

سأل شو وهما ينتقلان من البنغالو إلى الشارع الرئيسي للاستديو، " أهي ثملة؟ "

قال ساي كالحالم " عند الفجر كانت عيناها أشبه بياقوتتين، وكانت أنفاسها تُذكِّر برياحِ الصيف التي تهبُّ على سهول جيرزي "

كشَّرَ شو اشمئزازاً. " هل لدينا مشهد حب؟ "

" ما يشبه هذا "، وسلّمه ساي صفحتين. " هذا هو. مأخوذٌ مباشرةً من لائحة طعام نادي القطن. ستحبّه "

أثناء سيرهما دَرَسَ شو الصفحتين بتأنٍ. لاحظَ جيم أنَّ الناس ذوي الملابس الرائعة الذين احتشدوا في شارع الاستديو حدَّقوا إلى شو بحَسَد؛ وشعرَ جيم بفخر المنتصر بهذا الانتباه. وأمام مسرح الصوت، سلَّم شو ساي المخطوط. قال " لقد حفظته "

" تعني أنكَ عَلِمتَ بأمره، وهذا لا يعني بالضبط أنكَ حفظته "

التفَتَ شو إلى جيم. " إنها أسرع دراسة في هذا المجال. إنني أتمتَّع بهذه الذاكرة الفوتوغرافية. أستطيعُ أن أرى الصفحة داخل رأسي وأنا أمثِّل "

" وهذا أقصى ما يحدثُ ". كان ساي يسخرُ. " بل إنَّ شو يحفظُ الأخطاء المطبعية. أتذكُر حين قلتَ ذات مرة : " ولكن أين زوجك "؟ "

قال شو " كفى "، وانتهى المزاح حالما ولَجا مسرح الصوت حيث يكونُ في مملكته. كانت الإلهة العاهرة تتمدَّد على لوحٍ مائل، وتبدو ذات جمالٍ خارق، لكي لا تفسد زيّها المعقَّد. حين رأتْ شو هتفَتْ بصوتها الشهير الأجشّ. " هيه، بوتش! "

" هل حصلتِ على المشهد الجديد؟ ". كان شو فاتراً.

رفَعَتْ شريكته في البطولة الصفحات، " إنها أسوأ حتى من المشهد السابق "

قال شو بخفّة " حان وقت نيل جائزة الأوسكار "

" جائزة الأوسكار؟ سنكونُ محظوظَين إذا لم ينتهِ بنا الأمر إلى الإذاعة حين ينزل هذا العمل الفاشل إلى دور السينما المجاورة "، ورَمَتْ بالمخطوط.

ثم جاءَ ساي. " مستعدون، يا جماعة؟ ". تبعاه، طائعَين إلى مركز

الموقع، ثم أخذ يُكلّمهما بصوتٍ منخفض، كأنه مُدرِّب ملاكمة قبل بدء المباراة. بعد أن فَهِما القوانين صرخَ ساي " كلٌ يأخذُ مكانه! ". وقفَ كلُ ممثل ثانوي في موقعه، بعضهم يتحدثون ضمن مجموعات من ثلاثة أشخاص أو أربعة، والبعض في حالة استعداد للمشي ببطءٍ متنقِّلاً من مجموعةٍ إلى أخرى حين بدأ العمل. صَدَرَ صوتُ أزيزٍ وصرخَ ساي "تحرّكوا، يا أطفال! امشوا!". وسادَ الصمتُ مسرحَ الصوت . حين اقتَرَبَتْ الكاميرا من نجمة الفيلم، التفتتْ، مبتسمةً، وحين رأتْ شو واقفاً إلى يسارها، بدتْ عليها الدهشة.

" لماذا جئت؟ ". كان صوتها صافياً؛ والسؤال حيوياً.

" كنت تعلمين أني قادم ". كان صوته رنّاناً ودافئاً. حتى أنَّ جيم بالكاد تعرَّفَ عليه.

" ولكن... زوجي... "

" لقد تدبَّرتُ أمره. ارتدِ ملابسك. بسرعة! يجب أن نغادر هذه الليلة إلى كاليه "

زَعَقَ ساي " قف! ". عاد الضجيجُ إلى المكان. " لنُعِدْ هذا المشهد. شو، تذكَّر أن تجعل كتفك الأيسر منخفضاً حين تدخل إلى مجال التصوير. وأنت يا عزيزتي حاولي وتذكَّري أن تُبدي الدهشةَ حين ترينه. فأنتِ تعتقدين، قبل كل شيء، أنَّ زوجَكِ كان قد حبَسَه. أوكيه، سوف نصوِّر من جديد "

راقبهم جيم وهم يؤدّون هذا المشهد طوال ساعات عِدَّة. وفي نهاية النهار كان قد فَقَدَ كل اهتمام بالتمثيل.

ـ ٥ ـ

حلَّ شهر كانون أول ولم يكد جيم يُصدِّقُ أنه في فصل الشتاء، فقد بقيتْ الشمسُ دافئةً والأشجارُ نَضِرَة الخُضرة. كان في استطاعته أن يلعب كرة المضرب في كل يوم. وكان قد بدأ يكسب نقوداً، ويكتسب سمعةً كمُدرِّب جيد. وحين جاءَ مصوِّرٌ تابع لإحدى المجلات ليلتقط صوراً لمنزل شو، التقطَ صوراً لجيم أيضاً. وقد نُشِرَتْ في إحدى مجلات المُعجَبين. ونتيجة ذلك، حصلَ جيم على عروضٍ عِدَّة لإعطاء دروسٍ، وقَبِلَها؛ وعلى عروضٌ من نوع آخر رَفَضَها بصرامة.

على الرغم من أنَّ شو حبَّذَ كسبه للنقود، إلاّ أنه كان يكره أنْ يُغادر جيم المنزل. وذات ليلة عندما لم يعُد جيم إلى المنزل إلاّ بعد العشاء، اتَّهَمَه شو بأنه عاقّ وطائش. وتبادلا الصراخ إلى أن دخلَ جيم إلى غرفته، غاضباً لأنه عوملَ كقطعةٍ من الممتلكات. وقد تفاقمَ الوضعُ لاحقاً حين جاءَ شو إلى غرفته ليعتذر له، وليضاجعه، ويُعبِّر له عن مدى حبّه له ومبلغ يأسه من الوضع كله لأنه يعلمُ أنه لا يجدُ صدى لهذه المشاعر عنده. ولم يستطعْ جيم إلاّ أنْ يعتقد أنه لعلَّ ما عند شو هو أقلّ مما ظنَّ.

بينما كان جيم مستلقياً بسكونٍ في الظلام، وذراعه توسِّد رأسَ شو، تساءلَ إنْ كان عليه على الأقلّ أنْ يتكلَّم ويقولُ إنه يريدُ أن يكونَ حراً في تنقلاته كما يشاءُ وأنْ يقابل الناس الذين يريدُ أن يراهم دون أن يُقدِّم أعذاراً إلى عشيقٍ لا يحبّه. لكنَّ شو تكهَّنَ بما يدورُ في خَلَده.

" أنا آسف لأني شديد الغيرة، جيمي، لكني أكره أنْ أتصوَّرَكَ مع شخصٍ آخر. إنني أعتمدُ عليك كثيراً حين أكون مُتعَباً وأرغبُ في الابتعاد عن كل هؤلاء الطفيليين. أنت مختلف عن البقية جميعاً. أنت

كـذلك حـقـاً. ويا إلهي، كم أودُّ لو أترك هذا العـمل كله ذات يوم؛ أن أغـادر هذه المدينة المملوءة بالزيف وأنطلقُ إلى مكانٍ مـا من الريف وأشـتـري ربما مـزرعـة. حينئذٍ يمكنُ لأمي أن تأتي وتعـيش معنا. طبعـاً سوف يتوجَّب أن نكونَ حريصين وهي بيننا، ولكن يمكننا أن نتدبَّر أمرنا. نعم، أودُّ أن أفعل ذلك، ألا تودّ أنت؟ "

تململَ جيم في الظلام بانزعـاج. كـانت ذراعـه قـد بدأتْ تخلد إلى النوم تحت رأس شو؛ شدَّ على قبضته محاولاً أن يُعيدَ حركة الدم إليها.

" لا أدري، روني، لا أدري إنْ كنتُ أودُّ أن أستقرَّ منذ الآن "

" آه ". كان تنهُّد شو مريراً ومسرحياً. " لا أظنكَ تحبُّ هذا كله؟ إنه الروتين القديم نفسه : قُدُماً إلى الأمام. يا عاهرات العالم، اتَّحدن. بفضلي، تستطيعُ الآن أن تكسب عيشك من دروس كرة المضرب تلك، إذا كان هذا حقاً ما تفعل. إذن فأنا لا أعني لك شيئاً ". انتقلَ شو إلى الجانب المقابل من السرير وشعرَ جيم بالارتياح لإحساسه بالدم يجري من جديد في ذراعه.

" هذا غير صحيح، يا روني، أنا أرتاحُ إليك كثيراً ولكن لم يكن لدي كمٌ هائلٌ من التجارب في هذا المجال من قبل. لا أزال مستجداً غراً فيه " (لم يكن قد أخبر شو أي شيء عن بوب)، " ولا أعتقدُ أنكَ كنتَ مُنصفاً. لا يمكنكَ أن تتوقَّع مني أن أتخلّى عن حياتي كلها وأنا أعلم أنكَ قد تفتِّش عن شخصٍ يعجبكَ أكثر مني، فماذا سيحدثُ لي عندئذٍ؟"

" ماذا ستفعل إذا غادرتني؟ ". كان صوته نائياً.

" قد أفتتحُ مدرسةً لتعليم كرة المضرب. لهذا أنا أدَّخر ". أدركَ جيم أنه باحَ بأكثر مما ينبغي عليه؛ لم يكنْ يُريدُ شو أنْ يعرفَ أنه يدَّخرُ النقودَ بحرص؛ وبلغَ الكمُّ حتى ذلك الحين ثلاثة آلاف دولار.

قالَ شو بحزن " لا أظنّكَ تُخطّطُ حقاً للرحيل؟ "

قال جيم ببساطة، معوِّضاً عن الخطأ الفادح الذي ارتكَبَه، " لن أفعل إلا إذا سمحتَ لي "

*

بعد تناول طعام إفطارِ صباحِ يومِ عيد الميلاد اتَّصَلَ شو بأمّه في بولتيمور وتحدَّثَ معها مدة نصف ساعة، متجاهلاً الكلفة، ثم منحَ هدايا أمام الشجرة. تلقّى جيم مضربَ كرة مضرب أسترالي غالي الثمن. ثم حانَ وقت الغداء في الساعة الواحدة، عند منتصف النهار.

كان شو قد دعا حفنة من الضيوف، وأصدقاء قُدامى، ورجالاً بلا عائلات لا مكانَ يذهبون إليه في عيد الميلاد. كان جيم يعرفهم جميعاً ما عدا واحد، شاب رمليّ لونِ الشعر كان منهمكاً في حديثٍ جادّ مع ساي. لمحَ جيم، من خلال النافذة، شجرة نخيل. كلا ' إنَّ الوقتَ لا يشبه عيد الميلاد، هكذا قال لنفسه وهو يُسلِّم على ساي، الذي بدا أشبه بوزيرٍ فارسيّ خرجَ من إحدى صِوَرِه. قدَّمَ جيم، وهو سكران ومرح، إلى ذي الشعر الرمليّ اللون.

" جيم ويلارد، هذا بول سليفان العظيم ". تصافحا وتساءلَ جيم لماذا كان بول سليفان عظيماً. ثم استأذنَ وساعدَ شو في تقديمِ شراب البيض. كان وجه شو متورِّداً؛ كان مرِحَ المزاج.

" حفلٌ جميل، أليس كذلك يا جيم؟ "

هزَّ جيم رأسه إيجاباً. " مَنْ هذا المُسمَّى سَليفان؟ أينبغي عليَّ أن أعرفه؟ ". كان شو في المعتاد حريصاً على أنْ يُخبرَ جيم عن الناس وعن طبيعة عملهم لكي يُعاملهم وِفقاً لذلك. كان ذلك هو التقليد المُتَّبَع في

هوليـوود. في التسلسُل الهَرَمي على أساسِ النقود كان الاحترامُ الذي يُعامَل به كل رجل يختلف باختلاف حجم راتبه.

" إنه كـاتبٌ يؤلِّفُ كـتبـاً وقـد جاءَ إلى هنا ليـعـمل مع سـاي على تحضير فيلم. إنه عالي الجبين حقاً؛ أي أنه مزعجٌ جداً، ودائماً يشكو من هوليـوود. أمـثـال هذا الرجل يأخذون مـالَ المهنة، ومن ثم يشتـكون. إنه نموذج لأمثاله ".

على مـائدة الغـداء، قـام شـو بتـقطيعِ الديك الرومي. وقُـدِّمتْ الشمبانيا. وكان الضيوفُ سعداء. ووفقَ ما سَمِعَه جيم، كانت الأحاديث الدائرة تدلّ على ذكـاء على الرغم من أنَّ مُـعظمـهـا كـان يدورُ حـول السـينما: عمَّن تمَّ التعاقُد معه ولأي فيلم، ولماذا.

جلسَ سَليـفان إلى جوار جيم. كان رجلاً هادئاً، ذا عـينين سوداوَين وأنفٍ متَّجه قليلاً نحو الأعلى. كان فـمه ممتلئاً أكثر مما ينبغي وأذناه كبيرتين أكثر من اللازم. لكنه كان جذاباً.

" أنتَ كـاتب، أليس كـذلك؟ ". تكلَّمَ جيم باحـترام، أمـلاً في أن يتركَ لديه انطباعاً جيداً.

هزَّ سليـفان رأسـه إيجاباً. " جئتُ إلى هنا لأعـملَ على إنجاز فـيلم ولكن... ". كان صوته خفيـفاً وصبيـانياً. وقد تركَ الجملةَ ناقصةً عن عمد.

" ألا تحبّ العمل لصالح السينما؟ "

ألقى سَليـفان نظرةً على ساي الجالس قِبالته. قال بصوتٍ منخفض "كلا، لا أحبه أبداً. هل تعمل أنت في السينما؟ "

هزَّ جيم رأسه نفياً. " أنت تؤلِّف كتباً، أليس كذلك؟ "

هزَّ سَليفان رأسه إيجاباً.

" روايات؟ "

" روايات، شعر. أظنكَ لم تقرأ أياً منها ". قال هذا بحزن، وليس بنبرة الدفاع عن النفس.

قال جيم صادقاً " لا أعتقد أني سأفعلُ. لا أجدُ وقتاً للقراءة "

" ومَنْ يقرأ في هذه المدينة اللعينة؟ "

قال جيم بتردُّد " اعتقدُ أنهم يحبّون عملهم. إنَّ تفكيرهم كله تقريباً مُنصبٌّ على السينما "

" أعلم ". كان سَليفان يأكلُ سويقاً من الكرَفس. راقبه جيم، وهو يتساءلُ إنْ كان أحبَّه. بدا أغلب مَنْ زارَ شو مُعجَباً به. كانوا يبوحون بآرائهم حول كل شيء، بما في ذلك أنفسهم، وعادةً هم يحبّون أنفسهم أكثر مما يُحبّهم الآخرون. ومن ناحيةِ ميلهم الجنسي كانوا واضحين، خِلافاً لسَليفان الذي بدا سوياً تماماً.

سأله جيم " هل أنتَ من الشرق؟ "

هزَّ سليفان رأسه إيجاباً. " من نيوهامبشر في الأصل لكني أقيمُ في نيويورك "

ثم طرَحَ سَليفان أسئلةً كثيرةً على جيم وأجابَ عن أغلبها بصدق. كان الأمرُ أشبه بالاستجواب، لم يكن جيم قد تعرَّفَ حتى ذلك الحين إلى أي شخصٍ يسألُ كل ذلك القدر الكبير من الأسئلة. ومع حلولِ وقت تقديم فاكهة بعد الطعام كان جيم قد حكى لسَليفان مُعظَم وقائع حياته. أما سَليفان، فكان في الثامنة والعشرين من العمر (حَسبَ جيم أنه أكبر سنا)، تزوَّجَ مرةً وطلَّقَ، وهو إنجازٌ ضخمٌ يفسِّرُ سببَ عدمِ إعجابه بأغلب الشبان الحسّاسين الذين يزورون شو. كان جيم سعيداً بصورةٍ غامضة.

انتهى تناولُ وجبة الغداء، وتجمَّعَ الضيوفُ في غرفة الجلوس، وكالمعتاد تحلَّقَتْ مجموعةٌ حولَ شو. لكنَّ سَليفان لم يكن بينهم، بل جلسَ وحيداً على عتبةِ النافذة، ويداه الكبيرتان تعبثان بكسلٍ بعُلبة ثقابٍ فضّية. فانضمَّ إليه.

قال سَليفان " مكانٌ جميل "

" تعني هذا المنزل أم... "

" كل شيء. أحبُّ طابعها الرَعَويّ. الأمرُ أشبه بالصعود إلى السماء قبل الوقت المُحدَّد. مناخٌ مثاليٌّ، ألوانٌ برّاقةٌ، منازلُ فخمة وأناسٌ جميلون لَفَحَتهم الشمس، أسنانهم بيضاء، ورؤوسهم فارغة "

" مثلي! "

" نعم. كلا! ". ضحكَ سَليفان. فجأةً أصبحَ فتى صغيراً، وفُتِنَ جيم. قال سَليفان " مثل مُضيفُنا. أنا آسف، ما كان ينبغي أن أقولَ هذا. أنت تقيمُ معه، أليس كذلك؟ "

" نعم "

" أذن فلابدَّ أنَّ لا غبارَ عليه "

قال جيم، مُدركاً أنَّ عليه أن يقولَ أكثر لكنه لم يستطع، " هو كذلك "

" وتُعطي دروساً في لعبة كرة المضرب كعملٍ جانبيٍّ؟ "

" هكذا أكسَبُ عيشي ". حاولَ جيم ألاّ يبدو خاضعاً لرعاية أحد. ولكن لا فائدةَ. كان الأمرُ جلياً بما فيه الكفاية.

" ماذا تريدُ أن تعمل في نهاية المطاف؟ "

" أريد أن أرسِّخَ نفسي كمُدرِّب، وأشتري بعضَ الملاعب. ولكنَّ هذا يُكلِّفُ الكثيرَ من المال "

" وخلاف هذا، هل تعرفُ ما تريد؟ "

قال جيم بدقَّة " كلا، لا أعرف ماذا أريد "

" ولا أنا أعرف ". ابتسمَ سَليفان، وذكَّرَ جيم ببوب. ثم نهضَ واقفاً ليرحل.

تجرَّأ جيم فسأله " أتحبّ أنْ تلعبَ كرةَ المضرب في وقتٍ ما؟ ". اتَّفَقا على موعدٍ ورحلَ سَليفان. لم يكن جيم حتى ذلك الحين قد أدركَ أنَّ شو كان يُراقبهما.

الفصل الخامس

- ١ -

أصبحَ جيم وسَليفان يتقابلان في كل يوم، بغير علمِ شو، الذي كان يشكُّ، ولكن دون أن يعلمَ علمَ اليقين، فيما يحدثُ. كان العاشقان يتقابلان في الفندق الذي ينزلُ سَليفان فيه عند ظهيرة كل يوم، وهو الوقت الوحيد من النهار الذي كان في استطاعة سَليفان أن يُغادر فيه موقع التصوير. ولما كان جيم في المعتاد يصلُ أولاً، كان يتوجَّه مباشرةً إلى الغرفة ويغتسلُ بعد تمارين كرة المضرب الصباحيّة، ثم يتمدَّدُ على السرير وينتظرُ قدومَ سَليفان، وقلبه يخفقُ بسرعةٍ، ويُدهَشُ لاكتشافه أنه مُثارٌ ليس فقط بمضاجعتهما ولكن أيضاً بشخصِ سَليفان. كان مفتوناً لأنَّ سَليفان لم يُفشِ أبداً أمرَ علاقتهما، ودمَّرَ نظريةَ جيم القائلة إنَّ الشواذ جنسياً لا يكفّون عن الحديث عن الحب، مثل شو. كان التكتُّمُ مُريحاً، إذا دام. لكنَّ الكلامَ، في نهاية المطاف، يصبحُ ضرورياً. فقد أوشكَ عقد سَليفان مع الاستديو أن ينتهي. وقريباً سوف يغادرُ كاليفورنيا. وهذا يعني أنه كان عليهما أن يتفاهما قبل وضع الخطط، إذا كانت هناك خطط.

كان سَليفان سريعاً حين سأله " كم مرة فعلتَ هذا من قبل؟ ". تردَّدَ جيم، ثم قال الحقيقة. " ثلاث مرات. مع ثلاثة مختلفين "

هزَّ سَليفان رأسه. " هذا ما حسبته "

" ماذا تقصد؟ أهو مديحٌ أم قذف؟ "

" فقط أردتُ أن أقول إنكَ لم تتبع النمط المعتاد. لقد أدركتُ ذلك فوراً. وكذا فعلَ شو. وأعتقد أنَّ هذا هو السبب في رغبته في إقامتكَ معه ". كانت تلك أول مرة يأتي فيها سَليفان على ذِكرِ شو.

" فما هو النمطُ المعتاد؟ "

استندَ سَليفان بظهرِه على السرير، وركَّزَ بصَرَه على السقف. " يبدأ الأمرُ من المدرسة. أما معكَ فالأمرُ يختلف قليلاً عمّا يحدثُ مع الآخرين. أحياناً تكونُ حيياً وهشّاً قليلاً؛ أو لعلَّكَ شديد النضج قبل الأوان، شديد الوسامة، ورياضيّ، وعاشق لنفسك. ثم تبدأ الأحلام الجنسية تراودكَ حول فتى آخر - مثلك - وتتعرَّفُ إليه وتحاولُ أن تكونَ صديقه. وإذا كان هو متناقضاً بما يكفي وأنتَ عدوانياً بما يكفي فسوفَ تقضيان وقتاً رائعاً وأنتما تستكشفان أحدكما الآخر. وهكذا يبدأ الأمر. ثم تقابلُ فتى آخرَ ثم آخرَ، ومع تقدُّمَكَ في العمر، إذا كانت تلك طبيعة غالبة، تصبحُ صياداً. وإذا كنتَ سلبياً، تصبحُ زوجة. إذا كان تخنُّثكَ واضحاً، قد تنضمُّ إلى مجموعةٍ أخرى من أمثالك وتقبلُ كونكَ مكشوفاً ومعروفاً. هناك حفنةٌ من الأنماط ونماذجُ كثيرةٌ مختلفةٌ ولكن هناك دائماً تقريباً البداية نفسها؛ الاختلاف عن الآخرين ".

قال جيم، يكادُ يصدِّقُ نفسه، " إنني عاديٌّ جداً "

" أحقاً؟ ربما. على أي حال لقد بدأتَ متأخِّراً وأعتقد أنكَ لستَ متورِّطاً كثيراً مع الآخرين. اعتقدُ أنكَ غير قادر على عشقِ أي رجل. لذلك آملُ أن تعثُرَ على المرأةَ المناسبة لك ". سكتَ سَليفان. ولم يُجِب

جيم. لم يكن قد حكى له عن بوب، ومع ذلك كَشَفَه سَليفان أمام نفسه تماماً كالآخرين، لا يختلفُ عن النمط المعتاد. ومع معرفة الذات يأتي الرعب. فإذا كان حقاً مثل الآخرين، فأي مستقبلٍ ينتظره؟ انجرافٌ لا ينتهي، تشوُّشٌ، هزيمةٌ؟ كلا. مستحيل. إنه مختلف. وبوب مختلف. فقبل أي شيء، أما كان في استطاعته أن يخدع الجميع، حتى الذين يشبهونه، حتى سَليفان؟ لقد أبعَدَ عن عمد الكشف غير المنشود لذاك الجزء من عقله حيثُ تخلَّصَ من الذكريات غير السارَّة ومن ثم، بعد التخلُّص من الحقيقة، وَجَدَ أنه تأذَّى من شيءٍ قاله سَليفان. أحقاً أنه مجرَّدٌ من الشعور في علاقاته؟ لعلَّ الأمرَ كذلك مع شو وسَليفان ولكنَّ ليس مع بوب. لا أحدَ حتماً شعَرَ بذلك اليأس والوحشة مثله حين رحَلَ بوب عنه. نعم، لقد كان قادراً بكل ما في الكلمة من معنى على الحب، على الأقلّ مع شخصٍ يمكنُ أن يكونَ بمثابة أخٍ له. وعلى الرغم من أنَّ سَليفان هو أبعد من أن يكونَ توأمه الحبيب، على الأقلّ هو أكثر حكمة من شو وأقلُّ تطلُّباً وكان جيم يرتاح معه، إذا لم نقُل إنه كان صريحاً بل وحنوناً.

" أعتقدُ أنكَ من النمط الأقلّ حظاً ". تقلَّبَ سَليفان على بطنه ونظرَ إلى جيم، " سوف تجذب إليك كل إنسان، ومع ذلك سوف تقف عاجزاً عن فعل أي شيء. ليس فعلاً حقيقياً. أو، قد تعثُر ذات يوم على امرأةٍ تناسبكَ، وليس رجلاً. أنتَ لا تشبه بقيَّتنا الذين يُريدون مرآة. الأمر مُثيرٌ بصورةٍ ما لكنَّه مُحزنٌ أيضاً "

قال جيم " لا أفهمُ ما تعني "، وكانَ يفهمُ بدقَّةٍ لكنه قرَّرَ أن يحتفظَ بسرِّه : ذكرى كوخٍ ونهرٍ أسمر. ذات يوم سوف يعيشُ هذا كله من جديد وسوف تكتملُ دورةُ حياته. وفي تلك الأثناء سوف يتعرَّفُ على العالم

ويستمتع بوقته ويُخفي بارتياب سرَّه عمَّن يريدون له أن يكونَ عاشقاً. في شهر شباط لم يتجدَّد خيار سَليفان. بعد مرورِ بضعة أيام اتَّخَذَ شو له، بشكلٍ متزامن، فتى جديداً. حاولَ جيم أن يتجنَّب حدوثَ مشهدِ فِراقٍ لا مفرَّ منه، لكنَّ شو كان قد انتظرَ شهرين من أجل تلك اللحظة وهكذا تمَّت اللعبة حتى آخرها.

لمّا كان جيم يعلمُ بما سيحدثُ، حَزَمَ أمتعته في صباحِ ذلك اليوم وحاولَ أن يُغادرَ المنزل، لكنَّ شو كان قد ألحَّ على أنْ يتناولا " العشاء الأخير " معاً، مع جيم الذي يُمثِّلُ يهوذا. ومكثَ جيم.

لزمَ شو الصمتَ طِوالَ فترة تناول الطعام، وإكليلٌ من الشوك يستقرُّ ثقيلاً على جبينه. لم ينطق إلا حين قُدِّمَتْ القهوة. باشرَ الكلامَ بصوتٍ منخفض، بنبرةٍ هي أقربُ إلى الحزنِ منها إلى الغضب، " أعتقدُ أنكَ وسَليفان ستغادران البلدة؟ "

هزَّ جيم رأسه إيجاباً وابتسمَ شو برقَّة. " أمرٌ مؤسفٌ يا جيم. كنتُ بحقّ مُعتمداً عليك. كان شعوري الحقّ هو أنكَ الشخصُ الذي يُناسبني، الشخص الحقيقي الذي سيلازمني. وبطريقةٍ غريبة، كنتُ ساذجاً؛ حسبتُ أنكَ مختلفٌ، لكنكَ لم تكن كذلك ". ثم أسرعَ فأضافَ، تواقاً إلى الإنصاف، " وهذا لا يعني أني ألومكَ. أعلمُ أنَّ العيشَ مع شخصٍ مثلي أمرٌ صعب؛ وكل المحيطون بنا يحاولون أن يحطِّموا ما بنيناه. أعلمُ، وحقّ الله أعلمُ، ما هي المُغريات. وحده القويّ يستطيعُ أن يُقاومَ؛ صاحب الشخصيةُ القويةُ حقاً - أو شخصٌ عاشق. وهذا ما لم نكُنه. وهذا لا يعني أنَّ اللومَ يقعُ عليك. أنا لا ألومك. كيف يمكنني أن أفعل؟ ". ولمّا لم يكن يريدُ أن يقاطعَ، حرِصَ شو على أن يتوجَّه إلى كِلا الجانبَين في

كلامه. " أولاً، الحبُّ لا يقدرُ عليه إلا قليلٌ من الناس. أنتَ صغيرٌ جداً. وكان يجب أن أدركَ هذا. أنتَ قادرٌ فقط على حب نفسك، والآن بعد أن استنزَفتَ علاقتنا، أصبحتَ مُستعداً للانتقال إلى هذا الكاتب، هذا اللامتكيِّف العاجز عن الشعور مثلك تماماً. نعم، لقد سمعتُ الكثيرَ عن سَليفان ". قال شو هذا بغموض. " وطبعاً لن تصدِّق ما سمعته. يجب أن تكتشفه بنفسك. إنني أخبركَ بهذا الآن فقط لأني ما زلتُ مولعاً بك، على الرغم مما فعلت، ولكي أُبيّن لك أني لا أشعرُ بالمرارة. في الحقيقة، أنا سعيد لأني عثرتُ على بيتر الذي سيأتي ليعيشَ معي ". سكتَ، استعداداً لاتخاذ موقف الدفاع. ولكنه لم يتعرَّض لأي هجوم. حدَّقَ جيم إليه بأدب، متسائلاً متى يستطيع أن يغادر بكياسة.

لمّا خابَ أمل شو، جرَّبَ أن يسيرَ على الماء. " أنا متأكدٌ من أنَّ بيتر يستطيعُ أن يبادلني حبي له. على الأقلّ هذا ما آمله. كان يجب لسوء حظي أن ينتهي ذات يوم. آه، كم أكره أنْ أبدو كأني أتّهمكَ، يا جيم. أنا لا أتّهمكَ؛ إنني أعرفُ كم كان الأمرُ صعباً عليك. أنتَ لم تحبِّني قط وعلى الأقلّ كنتُ صادقاً؛ لم تقُلْ قط أنكَ أحببتني. ولكن ما دمتَ لم تقُل هذا جهاراً، كنتُ آملُ بل وأحياناً صدَّقتُ أنك أحببتني قليلاً. الآن فقط، وبعد أن حصلت على بيتر، أستطيعُ أن أنظرَ إلى ما فعلناه معاً، علاقتنا الجنسية، بتجردٍ وبتفهُّمٍ تام. إنني أرى أنك لم تكن ناضجاً بما يكفي ولعلَّ خطأي أني حاولتُ أنْ أبلُغَ المستحيل ". لاحظَ جيم أنَّ هذا القول الأخير مأخوذٌ من أحد أفلام شو الأخيرة. كانت أجزاءٌ من مخطوطات الأفلام تشقُّ طريقها إلى حديثه.

تابعَ شو قائلاً، مُديراً وجهه إلى الناحية الأخرى، " آمل أنْ تدركَ

هذه الأشياء عن نفسك قبل أن تؤذي سَليفان، أيضاً. نعم، أعترفُ بأني قد تأذَّيتُ؛ لقد آذيتني وآلمتني، لكني لا أتحاملُ عليك؛ هذه السمةُ لن تجدها عند أي شخص آخر : إنني دائماً أغفر. فهل سيفعلُ سَليفان؟ ". حاولَ جيم أن يُبدي اهتمامه بهذا السؤال الجديد، الذي كان يعلمُ أنه سيتمُّ الجوابُ عليه سريعاً. وقد حصل. " في الواقع، إنَّ بول سَليفان شخصٌ غير عاديّ، ولا شكَّ في ذلك. إنهم هنا يعتبرونه بمثابة نداء النفج[٨]، أو هكذا يعتقدون. إنه " مفكِّر " ، وأعتقدُ أنَّ اليساريين في غرينتش فيليج يعتقدونَ أنه رائع، على الرغم من أنه لم يؤلِّف كتاباً ناجحاً واحداً أو أي شيءٍ قرأه أحد. أنا حتماً لم أقرأه؛ ليسَ لديَّ مُتَّسعٌ من الوقت للقراءة، لكني على الأقلّ قرأتُ الكلاسيكيات كلها - والتر سكوت، دوما، مارغريت ميتشل، كل ذلك الحشد، وهؤلاء كانوا رائجين... ". سكتَ، وقد أدركَ أنه جعلَ من المؤلفات الرائجة قضية. " على أي حال، ليس مُهمّاً إنْ كان كاتباً جيداً أم لا. المهمّ ما إذا كان قادراً على الإحساس، ما إذا كان ناضجاً بحيثُ يستشرفُ نقائصكَ. لقد عاملَ أحدُ الفتية بقسوةٍ، كما سمعت. لكني واثقٌ من أنَّ حظَّكَ سيكونُ أفضل. أريدكَ أن تكونَ سعيداً. أريد لكَ هذا حقاً. فعلاً ". كادت ابتسامةُ شو المُشعَّة أن تُخفي الحقدَ البادي في عينيه.

سُمِعَ صوتٌ في الصالون ثم ظهرَ الشابُ ذو الشعر الداكن من ممر الباب.

نهضَ شو من بين الموتى. " ادخل، بيتر، وتناول بعضَ القهوة. جيم يهُمُّ بتوديعنا ".

٢٠

كان سَليفان هو أوَّلُ شخصٍ قابله جيم وَجَدَ مُتعةً غامضةً في ألمه الخاص. كان ممسوساً بالفشل، المهني والخاص، ويعجزُ عن أن يجدَ راحةً في ثوراتِ الغضبِ مثل شو، كان متنفَّس بول الوحيد هو الكتابة. ومع ذلك حتى في عمله كان شديد التأنّي والكبح لنفسه بحيث أنَّ كل ما استطاعَ أن ينقله هو مرارةٌ خفيفةٌ، وغضبٌ عابرٌ من العالم الذي استفادَ منه تماماً. كانوا عائلةً من المُخرِّفين، إلى أنْ كفَّ عن أن يكونَ كاثوليكياً في سن السادسة عشرة. حينئذٍ دارَ جدلٌ كثير، لكنّه لم يتزحزح عن قراره. حتى قسيسُ العائلة نَفَضَ يديه منه في نهاية المطاف، بعد أن وقَعَ في حيرةٍ تامة من تلك الردَّة غير المنتظرة. لا أحد ارتابَ في أنه إنما نبذ الكنيسة بسبب شذوذه الجنسي. لقد حاولَ على مدى فترةٍ طويلةٍ أن يطردَ الروح الشاذة، سائلاً الله بغضبٍ أن يُحرِّره من ذلك الميل الفظيع. كان يصلّي بلا انقطاع. ولكن في النهاية خذله الله، فتحوَّلَ إلى الجحيم؛ قرأ كتاباً في السحر، وترأسَ قداساً أسود، وحاولَ أن يبيعَ روحه إلى الشيطان لكي يتحرَّر من شَبَق الشهوة. لكنَّ الشيطانَ أيضاً لم يَفِده في شيء، وهكذا نبذَ بول سَليفان كلَّ تديُّن.

عرفَ بول السعادةَ بعضَ الوقت. لقد أظهرَ على الأقلّ أنَّ في استطاعته أن يتحرَّر، ولو فقط من خلال هذا العمل الوحيد. لكنَّ تلك السعادة لم تدُم طويلاً. ففي المدرسة وقعَ في حبِ شابٍ رياضيّ، ومرَّتْ شهورٌ طويلةٌ قبل أن يستجمعَ شجاعته ويتحدَّث إليه. خلال ذلك الوقت لم يكن يجرؤ إلا على أنْ يجلسَ إلى جواره في غرفة الدرس، ويراقبه وهو يلعبُ كرةَ القدم، وينتظر. وأخيراً، في وقتٍ متأخِّرٍ من بعد ظهرِ أحد

الأيام، بعد أن ذهبَ الجميعُ على منازلهم، تقابلا أمامَ المدرسة. تحدَّثَ الفتى أولاً. بعد ذلك أصبحَ الأمرُ سهلاً. وعلى الرغم من أنَّ بول كان نحيلاً وحييّاً، كان دائماً مقبولاً بين الفتية. ولما كان يُثيرُ الإعجابَ لشُهرته بأنه يقرأ كثيراً، فإنَّ شخصاً رياضياً لن يفقدَ اعتباره إذا ما أصبحَ صديقاً له. وهكذا بدأت العلاقةُ. وجرَّبا معاً الجنسَ وكان بول سعيداً سعادةً لم يَفُقها أي شيءٍ آخر في حياته، وسُرَّ أيَّما سرور لأنَّ النعيمَ والجحيمَ نَبَذاه.

ولكن في العام التالي تغيَّرَ كل شيء. أصبحَ الرياضيُّ يميلُ إلى الفتيات ومالت الفتيات إليه، وهكذا وجدَ بول نفسه منبوذاً وعانى جرّاء ذلك. أصبحَ أشدّ حياءً، وعزلةً، من ذي قبل. لم يعقدَ صداقات. وانتابَ القلقُ والديه. كانت أمه واثقةً من أنَّ حزنه نابع من نكرانه الله والكنيسة. وتركها تظن ذلك، بما أنه لم يكن قادراً على إخبارها سببَ انعزاله عن الآخرين وجَعْله يشعر بأنه مُتعالٍ بغموضٍ عن عالم الشذوذ الجنسي، ولو حتى لأنه ينطوي على سرٍ لا يستطيعون التكهُّن به وبصيرةٍ في الحياة لا يملكونها. لكنه في الوقت نفسه كَرِه نفسه لحاجته إلى جسدِ رجلٍ آخر ليكتمل به.

كانت النساءُ تجذبه، خاصةً الأكبر سنا منهُنّ، وكنَّ لطيفات معه. ونتيجةً لذلك، عرفَ الكثيرَ عن النساء في وقتٍ كان مُعاصروه يتعرَّفون فقط على أجساد الفتيات. لكن كان لتلك المعرفة ثمنها. تلك الرفيقات المُحبّبات بدأنَ بالافتراض، دون وعيٍ منهن، أنَّ الأحاديث الوديّة قد تؤدي إلى شيءٍ آخر. حين حدثَ ذلك، كان لابدَّ من الفرار.

في سن السابعة عشرة التحقَ بول بجامعة هارفرد. وللمرة الأولى في حياته وجدَ نفسه وسطَ بيئةٍ متسامحة. وسرعان ما عَقَدَ عدداً من الصداقات، وكلهم يؤلفون كتباً. وركَّزَ، بدفعٍ منهم، على الكتابة. وحين اقترحَ عليه والده أنْ يستعدَّ للالتحاقِ بمدرسة إدارة الأعمال، كانت ردَّةُ فعله من القوَّةِ بحيث لم يعد يحدثه بذلك أبداً.

في الجامعة ألَّفَ بول روايته الأولى، وتدورُ حول شابٍ أرادَ أن يصبحَ روائياً. (في ذلك العام كان توماس وولف[9] رائجاً) وقد رَفَضَ الرواية كلُّ الناشرين الذين قرأوها. وكتبَ أيضاً قصائد، نُشِرَ عددٌ منها في مجلاتٍ صغيرة. ولما أصبحَ واثقاً من أنه شاعر، تركَ الجامعةَ دون الحصول على الشهادة، وذهبَ إلى نيويورك، وقطع كل صِلاته مع عائلته، وقامَ بأعمالٍ غير نظامية وألَّفَ روايةً تدورُ حول شابٍ يشعرُ بالمرارة يقومُ بأعمالٍ متفرِّقة في نيويورك. كان أسلوبه فجّاً، وسياسته ماركسية، وكراهيته للكاثوليكية أصيلة. ونُشِرَ الكتابُ ووجدَ نفسه حاملاً سمعةَ شخصٍ واعدٍ، يعيشُ في نيويورك مع أشخاصٍ واعدين آخرين.

ذات يوم، وبروحٍ متمرِّدةٍ على طبيعته، تزوَّجَ بول من فتاةٍ في مثل عمره. ولم يتمَّ الزواج بالدخول. لقد كان يشمئزُّ من أجسادِ النساء. كان يحبُّ وجوههنَّ ولكن ليس أجسادهنَّ. تذكَّرَ أنه في طفولته كان يُراقبُ أمه وهي تخلعُ ملابسها فيُصيبه الرعبُ من مرأى جسدها الرخو. منذ ذلك الحين أصبحتْ النساءُ كلّهنَّ مرتبطات بأمه؛ فهنَّ لسنَ فقط مُحرَّمات بل وخاليات من الجمال. تركته زوجته وأبطلَ الزواج.

قامَ بول بعِدَّةِ علاقات جنسيةٍ، بعضُها بغَرَضِ التنفيس الجسدي،

والبعض الآخر جراءَ الضجر، وعددٌ قليلٌ منها كان مرتبطاً بالحب أو ما ظنَّ أنه حب. هذا كله انتهى نهاية سيئة؛ ولم يعرف السبب الدقيق لذلك. وطبعاً كان الرجال الذين يروقون له عادةً من الأنماط الرياضية البسيطة، ثنائيي الجنس، الذين يُفضِّلون أمانَ الحياة العائلية على المُتَع القاطعة للعلاقات الجنسية الشاذة، وهكذا تحوَّلَ إلى تلك الحانات التي يمكنه فيها دائماً أن يعثُرَ على فتى يقضي الليل معه، هكذا بكل دمٍ بارد، بكل قسوة، بمنحه الألمَ الذي يتوقّعه ويحتاجه سراً. عاشَ وحيداً ولم يرَ إلا قلّةً من الناس. سافرَ كثيراً وألّفَ روايات. وضعَ كل شيءٍ في رواياته. إلا أنَّ النتيجةَ كانت مُخيّبة. فقد احتُفيَ بكُتُبه لكنَّها لم تؤخذ بعين الجد. كَسَبَ نقوداً تكفيه للعيش لكنه لم يكن رائجاً. كان يكنُّ اشمئزازاً حقيقياً للروايات الرديئة، التي تبيعُ جيداً لكنه كان يحسد مؤلّفيها في سرّه؛ الذين يلعنهم النُقّادُ لكنَّهم أثرياء. ومع ذلك، واصلَ الكتابةَ. لم يكن لديه أي شيءٍ آخر يفعله، ولا حياة أخرى تنتظره غير حياةِ تدوين الكلمات على الورق.

مع تقدُّم بول في السن، أصبحَ ينفتحُ واسعاً وعن عمدٍ لتلقّي الألم، ولم يخُب أمله. بل إنه اكتسَبَ قوة. لكنَّ الإحساسَ بالمرارة لم يفارقه، وبقيَ في قرارته الفتى الحانق نفسه الذي أقام قُدّاساً أسود. كان مُقتنعاً في سرّه بأنَّ الشيطانَ، عاجلاً أو آجلاً، سوف يمنحه حبّاً كاملاً ومُتبادَلاً، مع رجلٍ أو امرأةٍ لا فرق؛ سوف يُبادلُ روحه بهذا.

بعد مرورِ فترةٍ من الوقت أصبحَ بول متعوِّداً على وضعه الخالي من الحب، إلى درجةِ أنه اكتشَفَ أساليبَ جديدة ومُرهفة أكثر لتعذيب نفسه.

وهكذا قـرَّرَ أن يسـيـرَ على خُطى كل أولئك الأرواح الملعـونة الأسطوريّة الذين تخلّوا عـن فنّهم من أجل المعـاناة الغنيّـة بين كـروم البـرتقـال في كاليـفورنيـا. وبعد تفـاوضٍ طويل (لم يكن البيعُ سـهلاً) وافَقَ استـديو السـينمـا على إعطائه السـعـرَ الذي حدَّده وكـيله وانتـقلَ إلى هوليـوود وهناك أحزنه أن يكتشفَ أنه يستمتعُ حقاً بوقته. ولكن لحُسنِ الحظ قابلَ جيم ووجَدَ أنه ما يزالُ مُعرَّضاً للغواية. وبدا أنَّ علاقتهما تَعِدُ بالكثير، مع إمكانياتٍ لا حدودَ لها لحدوثِ كوارث.

*

بعد أن قطَعَ جيم وسَليفان علاقتهما بشو توجَّها إلى نيـو أورلينز. هناك نزلا في فندقٍ كـبيـرٍ يقعُ في القِطاع الحـديث من المدينة، ثم أخـذا يستكشفان الحيَّ الفرنسي بشوارعه الضيّقة والقذرة، وأبنيته المنخفضة العلوّ، والشرفات الحديدية، والنوافذ الطويلة الموصدة، وطبعاً ألفُ حانةٍ ومطعمٍ، خاصـةً على طولِ شـارع بوربون، الذي تتـردَّدُ منه ليـلاً ونهـاراً أصداءُ موسيقى الجاز والبلوز، بينما الجميعُ يجوسون في المكان : رجالٌ من السـفن ورجـالٌ من الريف، يبـحثون عن فـتيـاتٍ سمراواتٍ، بشعـورٍ شبيـهةٍ بالأسلاك، يقهقهنَ وينظُرنَ إليهم بوقاحةٍ ويلمِّحنَ إلى ما ينتظرهم من " وقتٍ ممتعٍ ".

على الرغم من الحـرارة، كـان الليلُ في نيـو أورلينز مـثيـراً؛ فـالجـوُ العامُ يَعِدُ بالكثير، الكثير من المتعة. قامَ جيم وسَليفان بزيارة الحانات، المصطفّة واحدةً إثر أخرى كمراحل الصَلب[١]، يُصغونَ إلى المُغنّين الزنوج، ويراقبـون الرجالَ والعاهرات. كـانت طريقة ممتعة لتـمضيـة الوقت، دون شعورٍ بالذنب أو بأي إحساسٍ بالمستقبل.

في أوقات الصباح كان سَليفان يعملُ على تأليفِ رواية (قصة تحكي عن حبٍ من طرَفٍ واحد تُروى بنبرةِ مرارةٍ خفيفة) ويذهبُ جيم لمشاهدة ما يستحقُّ المشاهدة، وبعد الظهيرة يذهبان إلى جمعيةِ الشبيبة المسيحية للسباحة.

في المساء يزوران حانات الشاذين، متظاهرَين بأنهما سائحان بريئان ولا يُصدِّقهما أحد.

كانت حانة شينونسو خاصةً تفتنهما. كانت تقعُ على أطراف الحيّ، في شارعٍ هادئ، وتشغلُ مبنى حجرياً قديماً بأكمله وَقَعَتْ عن جدرانه أغلب المُلصقات. في أحد أركان المكان ثمة نارٌ صغيرة تشتعلُ في موقدٍ حجريّ، بينما شموعٌ تحترقُ وصندوق الموسيقى يصدحُ بأغانٍ ناعمة رائجة. والنتيجة جوٌ مُهدهدٌ يجعلُ حتى أعنفَ الزبائن يسلكُ سلوكاً مُهذَّباً عند البار، وتخفُتُ هتافاتهم، ويتحوَّلُ صفيرهم إلى همسٍ، وتحرُّكهم إلى اتِّزانٍ واحتشام.

كان جيم وسَليفان دائماً يجلسان بالقُربِ من النار، لكي يتمكَّنا من مراقبةِ الرجال والنساء رائحين غادين، يؤدّون طقوسَ الغَزَل المختلفة لصالح الغرباء.

بينما سَليفان يراقبُ مجموعةَ الوحوش، كان يتكلَّمُ بصوتٍ منخفض، يقولُ أشياءَ كثيرةً لا تُقالُ في أماكنَ أخرى، ويُصغي جيم إليه، منتظراً كعهدِه دائماً أن يتعلَّمَ شيئاً جديداً عن نفسه. لكنَّ سَليفان كان يتكلَّمُ فقط عن الآخرين.

*

في شهر آذار بلغَ جيم سنَّ العشرين، وألفى نفسه يتفكَّرُ بحزنٍ في أمورٍ شتى فَعَلَها وشاهدها منذ أن غادرَ فيرجينيا؛ وكأنه يعمدُ إلى اكتسابِ تجارب غريبة لكي يستطيع أن يقصَّها حين يغدو رجلاً عجوزاً، وهو جالس في مخزنٍ في فيرجينيا مع عجائز آخرين، لم يخُص أيٌّ منهم كل ذلك الكمّ من المغامرات. وهذا لا يعني أنه سيستطيعُ أن يقصَّ كل شيء. أحياناً كان يتساءلُ إنْ كان بوب يعيشُ نمطَ الحياة نفسه. هل بوب مثله؟ كان يأملُ ألاّ يكون كذلك. ولكن إذا كانا توأماً متطابقاً، فإنه مثله. لم يكن سهلاً البتَّ في ذلك. ولكن ذات يوم سوفَ يعرفُ الجواب. أما الآن فقد كرَّسَ حياته للتجربة.

تمَّ الاحتفالُ بعيد ميلاد جيم في حانة شينونسو بمبادرةٍ من صاحب المحل، وهو رجلٌ بدينٌ عطوف كان ذات يومٍ مُصمِّمَ ديكور في نيويورك لكنَّه الآن " أُعيدَ تشكيله ". وعلى الرغم من أنه كان يعرفُ فقط اسميهما الأوَّلين، توهَّمَ أنهما من الشخصيات الثريّة أو الهامة أو كليهما، لكنه كان من فرطِ التكتُّم بحيث لم يطلب أي معلومات لا تُعطى طوعاً. ثم إنَّ تينك الشابين كانا محطَّ إعجاب باقي الزبائن الدائمين، وكان ذلك لصالح عمل المحلّ.

" بول، جيمي، كيف حالكما هذه الليلة؟ ". ابتسمَ لجيم المفضَّل لديه، وردَّ جيم له الابتسامة. كان يحبّ صاحب المحل على الرغم من أسلوبه الأمومي معه.

" ماذا ستتناولان؟ ". طلبا بيرة وجلبها لهما بنفسه. ثم جلسَ إلى طاولتهما.

سألَ بول " ما الأخبار؟ "

" في الواقع، لن تحزرا، ولكن ذلك الفتى الممشوق، أنتما تعرفانه ذاك الذي كان يضع عينه على جيم... حسنٌ، إنه يضاجعُ سائقَ شاحنة "زنجي"! إنَّ مشاهدة هذين الاثنين معاً هو أغرب مشهدٍ يمكنُ رؤيته. إنهما يلتصقان معاً وأنا أعلمُ أنَّ الزنجي يدقّه بانتظام. إنه حقاً أغرب شيء! ". واتَّفقوا على أنه بالفعل أمرٌ غريب، وأرادَ جيم أن يعرف إنْ كان زنوجٌ كثيرون على تلك الشاكلة؛ كان دائماً يظنُّ أنهم ليسوا كذلك.

أدارَ الرجلُ البدينُ عينيه في محجريهما. قال " كثيرٌ منهم كذلك، كثيرٌ منهم دون مبالغة؛ طبعاً، أعتقدُ أنَّ وجودَ زنجي في أميركا يكفي لجعلِ أي إنسان عُصابياً. لذا فهذه الزيادة القليلة، هذه الرفسة الإضافيّة، لا تُدهشُ. ثم إنَّ الكثيرين منهم طبعاً بدائيين حقاً، والبدائيون يبدو أنهم لا يُمانعون في فعلِ أي شيء ما دامَ ممتعاً "

قال سَليفان " علينا جميعاً أن نكونَ كذلك "

عبسَ الرجلُ البدينُ؛ كان التفكيرُ من أي نوعٍ يشكّلُ جهداً مُضنياً. " ولكن يجب أن يكونَ لدينا بعضُ التقاليد؛ بعض النظام، وإلا انطلقَ كل شخصٍ بوحشيةٍ ليرتكبَ الجرائمَ بأنواعها كافة "

" أقصد فقط المُحرَّمات الجنسية، التي يجب أن تكونَ خارجَ سيطرة القانون "

" لعلّها هكذا يجب أن تكونَ لكنّها ليستْ كذلك! المناسبات التي انتقاني فيها رجال شرطة وقاموا هم بالعروض كلها، كانت فظيعة. أحياناً يُكلّفُ الأمرُ مائة دولار أو أكثر. إنهم محتالون كبار، خاصةً هنا"

" وهذا كله وضعٌ خـاطئ! ". لاحظَ جـيم أنَّ بول غـاضب. " لماذا ينبغي على أي منا أن يختبئ؟ إنَّ ما نفعله طبيعي، إذا لم أقُلْ "عاديّ"، مهما كان معناه. على أي حال، إنَّ ما يفعله الناسُ مع بعضهم بمحض إرادتهم الحرَّة هو شأنهم وحدهم "

ابتسمَ الرجلُ البدينُ. " ولكنْ هل لديكَ الشجاعة أن تخبر العالمَ كله عن نفسك؟ "

تنهَّدَ بول ونظرَ إلى يديه. قال " كلا، ليست لدي "

" فماذا في وسعنا أن نفعل، إذا كان الرعبُ يمسسنا ؟ "

" أن نعيشَ بكرامة، في اعتقادي، ونحاولَ أن نتعلَّم أنْ نحبَّ بعضنا، كما يُقال "

قال البدينُ " قولٌ منصف. يجب أن أعودَ إلى البار "، وغادرهما.

سألَ جيم " أحقاً أنتَ تهتمّ؟ أحقاً تهتم إلى هذا الحد بباقي العالم؟"

هزَّ بول كتفيه. " أحياناً، نعم. أحياناً أهتمُّ كثيراً "

شربوا البيرة وراقبوا الناس.

من نواحٍ كثيرة، كانت النسوةُ هنَّ الأكثر إثارةً للشفقة، خاصةً تلك العجوزُ المعروفة باسم الرئيسة؛ بيضاء الشعر، تقصّه على طريقة الرجال وترتدي سترةً مع تنورة مع ربطةِ عنقٍ كئيبةٍ. كانت تُثيرُ ضجَّةً كبرى حول الفتيات الجميلات، خاصةً الخجولات منهنَّ والملتصقات ببعضهنّ.

قال جيم، مشيراً إلى الرئيسة، " هناك، يوجدُ شخصٌ صادقٌ مع نفسه. أتريدُ أن تكونَ هكذا ؟ "

" ليسَ هذا ما عنيتُ. إنني أريدُ فقط مقداراً قليلاً وبسيطاً من

الصدق، والقبول. إنَّ كونَ الإنسان أي شيء هو لغزٌ، وليسَ من شأن القانون "

غيَّرَ جيم الموضوع. " كم ستمكث في نيو أورلينز؟ "

" لماذا تسأل؟ أأنتَ ضجِر؟ "

" كلا، ولكنْ يجب أن ألتحقَ بالعملِ آجلاً أو عاجلاً... لتنفيذ عقد لعبة كرة المضرب. لقد أخبرتُكَ عنه من قبل "

" اهدأ. أمامكَ سنونٌ عديدةٌ لتقومَ بهذا كله خلالها. وَفِّر نقودكَ. استمتعْ بوقتكَ. انتظر "

ارتاحَ جيم لأنه لا هو ولا سَليفان تظاهرا بأنهما سيظلان معاً إلى الأبد، ولكن لم يدرك كم يؤلِمُ سَليفان، الذي كادَ يكونُ عاشقاً، أنْ تكونَ العلاقةُ عارضةً هكذا. ولمّا لم يكن أي منهما يعي ما يجولُ في خاطر الآخر، كان في وسع كلٍ منهما أن يحملَ وهماً عن الآخر، وهي البداية الاعتياديّة للحب، إذا لمْ نقُلْ الحقيقة.

انضمَّتْ إليهما سحاقيّةٌ شقراء جميلة بدتْ أشبه بنسخةٍ من الجصّ لتمثال أبولو الجميل. كانت مطلوبةً ورائجة.

" مرحبا، شباب! ألا تقدِّمان مشروباً لفتاتكما المفضَّلة؟ "، وتناولوا مشروباً.

-٣-

مرَّتْ الأيامُ سريعاً واستمتعَ جيم بالعيشِ دون هدف. كان يستيقظُ في الصباح وهو سعيد؛ ويكونُ سعيداً حين يأوي إلى السرير ليلاً يصبو

إلى بزوغ فجرِ يومٍ جديد. كان يعلم أنَّ حياته تسيرُ بلا هُدى، وما كان لأي شيء آخر أن يُرضيه أكثر من ذلك.

فجأةً شَغَلَتْ الحربُ الدائرةُ في أوروبا انتباه حتى زبائن حانة تشينونسو. تجادلوا حول ما إذا كان سيتمُّ اجتياح بريطانيا، بدا أنَّ الجميعَ يحملون بعض الذكريات العاطفية عن ستراتفورد أو القوس الرخامي أو حرّاس نايتسبريدج. وانغمَسَ الناسُ، بحياء، في المرحلة التاريخية التي يمرُّ بها القرن.

مع نهاية شهر أيار بدأتْ نيو أورلينز تثيرُ فيهما الضجر. تحدَّثَ جيم عن التوجُّه إلى نيويورك ليعملَ هناك، في حين أنَّ بول رأى أن يذهبا إلى أميركا الجنوبية، لكنه لم يلحّ؛ اكتفى بالإشارةِ إلى أنه يودُّ أن تستمرَ علاقته بجيم مدةً أطول. ثم، فجأةً، وجدا أمامهما مساراً مُعداً لهما.

ذات ليلة في حانة تشينونسو، بينما كان جيم يتحدَّث إلى صاحب المحل شاهدَ امرأةً تلجُ الحانة، وحدها. كانت أجنبية، سمراء، حسَنَة الملبَس، يستحيلُ تصنيفها. طَلَبَتْ بحياء. لفتَتْ انتباه صاحب المحل. "أوه، يا إلهي! "، بدا ذاهلاً. " هذه المرأة جاءتْ إلى الحانة الخطأ. أستطيعُ أن أدركَ هذا على بُعد ميل! ". نهضَ واقفاً على قدميه. "سوف نفقد سمعتنا، إذا بدأ المدنيون بالتوافد إلى هنا ". عَبَرَ المكانَ إلى البار، متجهِّماً. ثم لاحظَ سَليفان وجودَ المرأةَ في نفس الوقت الذي لاحظَتْ هي وجوده.

هتفَتْ " بول! " وتناولَتْ كأسَ المشروب من البار وانضمَّتْ إليهما. وكائناً مَنْ كانت فإنَّ بول ابتهجَ لمرآها. حين قَدَّمها إلى جيم ابتسمتْ له

ابتسامةً صادقة، مُبديةً اهتماماً وليس فضولاً، وشعرَ بالامتنان له.

راقَبَ جيم وجهها وهي تتكلَّمُ؛ حاجبان رقيقان مقوَّسان طبيعيان، وعينان كستنائيتان، وشعر فاحم. كانت تتنقَّلُ، بقوامها النحيل غير البارز، كأنها راقصة.

تحدَّثَتْ عن أميليا، زوجة سَليفان السابقة. سألها بول " وأين هي الآن؟ "

" أعتقدُ أنها ما زالت في نيويورك ". كانت لكنَةُ ماريا خاصة بها، رقيقة وتثيرُ المشاعر.

" أتعتقدين أنها ستُعيدُ تجربة الزواج؟ "

" أشكُّ في ذلك. ولكن مَنْ يدري؟ إنها تعملُ في إحدى الصُحُف. قابلتُها قبل أسبوع فقط. أصبحت الآن ذات... وعيٌ عالميّ شامل. لم تعُد تهتم بأمورٍ صغيرةٍ كالزواج مرةً أخرى. إنها تفكِّرُ فقط في الجماهير وفي روح التاريخ. حالياً هي تناهضُ بعنفٍ الروسَ لأنهم يؤيدون هتلر. قبلَ عشرة أشهر كانت ستالينية. أخشى أنها تخلَّتْ عن كل تفكير في الحياة الخاصة. إنها مشاع بكل معنى الكلمة، وبشكلٍ رائع "

أصغيتُ باهتمامٍ. كان سَليفان نادراً ما يأتي على ذِكر زواجه القصير الأمد. أخيراً قال سَليفان " مسكينة أميليا، لم تكن سعيدةً بزواجها. هل تكسبُ نقوداً؟ "

أومأتْ ماريا برأسها " أعتقدُ ذلك. إنَّ لها سُمعةً طيّبةً في هذا المجال "

" وأنتِ، ماريا، ماذا تعملين؟ "

ضحكتْ. " لا شيءَ، كالمعتاد. ولكن ذلك يُبقيني مشغولة. كنتُ في فرنسا حتى فصل الخريف. ثم اندلعَتْ الحرب فعُدتُ إلى نيويورك، حيث مكاني المناسب "

" ألديك أخبار عن فرلين؟ "

عَبَسَتْ قليلاً وأخذَتْ ترسمُ أشكالاً على الطاولة بأصابعها الطويلة. " علِمتُ أنه التحقَ بالجيش. كلا، لا أسمعُ أي شيءٍ عنه. لم أره منذ سنين "

" أما زلتِ ترسمين؟ "

قالتْ " كلا. كيف وجدتَ هوليوود ؟ "

رسمَ بول ابتسامةً واسعة. " كانت ممتازة، إلى أن طلبوا مني أن أؤلِّفَ شيئاً لأجلهم وعندئذٍ كان لابد لي طبعاً أن أرحل "

ضحكَتْ ماريا. " أما زلتَ دون كيخوته؟ "

" أخشى أني ما زلتُ كذلك ". كان جلياً أنَّ سَليفان ابتهَجَ لأنه يُعتَبَرُ غير عمليّ ولكن نقيّ القلب.

صَمَتا. راحَ جيم يتفحَّصُ وجه ماريا فرلين الناعم، المُعتَنى به جيداً، مُدركاً أنه كلما أطالَ النظرَ إليها صارتْ أجمل. أخيراً سألها سَليفان عمَّا كانت تفعله في نيو أورلينز.

" مرورَ الكِرام "

" أإلى مكانٍ معيَّنٍ، أم لا على التعيين؟ "

" لا على التعيين. لكني متوجِّهةٌ فوراً إلى يوكاتان "

" مكانٌ غريب "

" لدي سبب لذلك. لقد توفي والدي في الشتاء الفائت وتركَ لي مزرعةً يزرعون فيها ذلك الشيء الذي يصنعون منه الحِبال. الآن لدي عرضٌ لبيع المكان، ويحتاجونَ إلى ذهابي إلى هناك "

" أهو مكانٌ متحضِّر؟ "

" كلا، لكنه قريبٌ من ميريدا، وهي مدينةٌ مناسبة "

التَفَتَ سَليفان إلى جيم فوجَدَه يتأمَّلُ ماريا فرلين. تجهَّمَ، ولكن لم يلاحظه أيٌ منهما. سألتْ ماريا " وأنت، هل تمرُ مرورَ الكِرام؟ "

هزَّ سَليفان كتفيه. " لا هَدَفَ مُعيَن لي. أنا وجيم نتنقَّلُ "

" فهمت ". بدا أنها قد فهِمَتْ. ثم أضافت " لِمَ لا تنضمان إليّ؟ يقولون إنَّ مدينةَ ميريدا رائعة، مملوءة بالآثار القديمة وإذا وجدتما المناظر مملّة يمكنكما دائماً أن تطيرا إلى مكسيكو سيتي. أوه، أرجوكما تعالا! سوف تنقذان حياتي ". وهكذا قرَّروا السفرَ معاً.

في غرفتهما سألَ جيم سَليفان عن ماريا. كان سَليفان صريحاً بصورةٍ غير عاديّة. " كانت متزوجة من فرنسي، كان أقرب إلى الجيغولو. وتطلَّقا. أقامَتْ علاقات عديدة، عادةً مع فنانين، وكانت دائماً تفشل. طبعاً هي من نوعِ إيزولد[11]. وأيضاً هي تنجذب إلى الرجال الصعبين. خاصةً الشاذين جنسياً، وهم، أيضاً، يجدونها عادةً جذابة. ألا تراها كذلك؟ أنا أراها. بل إني قبل سنوات عديدة ضاجعتُها "

تساءلَ جيم إنْ كان هذا الكلام صحيحاً. قال بحذَر " تبدو لطيفةً جداً "

" ستعجبك. هذا وعد ". ثم أويا إلى السرير. كان سَليفان سعيداً

إلى أقصى حد معه. وها هو الآن قد عرَّضَ علاقته به إلى الخطر. لقد عَمَدَ إلى تقديمه إلى المرأة الوحيدة التي يمكنُ أن تعجبه. وتتوفَّر الآن فرصة ممتازة لأنْ يفقدَ جيم، وهذه الفكرة مَنَحَته متعةً عميقةً ومريرة. سوف يُعاني. سوف يعرف الألم. وطَفَقَ، بعناية فائقة وبصبر، يُحطِّمُ سعادته.

الفصل السادس

- ١ -

يوكاتان هي أرضٌ منبسطةٌ من الشجيرات المنخفضة وحقول السيزال. مدينةُ ميريدا العاصمة قريبةٌ من خليج مكسيكو. مزارعُ السيزال تحيطُ بالمدينة، وعند النظر إليها من الجو يمكنُ للمسافرين أن يشاهدوا أهرامات تشيتشن إتزا و أكسمال البيضاء، ومدن المايا القديمة. وهذا أكثر مما يحتويه الدليل.

أثناء انتقالهم بالسيارة من المطار إلى الفندق في وسط المدينة، أشار السائقُ إلى الكاتدرائية، وهي كنيسةٌ على الطراز الباروكيّ تملأ الشروخُ جدرانها الجصّية، تطلُّ على ساحةٍ كبرى مملوءةٍ بأشجارٍ ظليلةٍ. هنا جلسَ السكان على مقاعد حجرية، ضئيلون وسُمر بوجوهٍ هندية أكثر منها أسبانيّة. وصبيةٌ صغارٌ بملابس رثّة يعدونَ حول الساحة، يُلمِّعونَ الأحذية ويلعبون معَ أقرانهم من الراقين.

كان الفندق، الذي كان ذات يوم منزلاً خاصاً، بناءً ضخماً مُربَّع الشكل ورديّ اللون، تفوحُ من داخله رائحة تشبه رائحة صندوق سيجار قديم، عتيق وبائت. رحَّبَ بهم قاطع طريق طويل القامة ذو شاربٍ ضخم. كان المدير وكان يعرفُ والد ماريا فرلين. عاملهم وكأنهم من العائلة المالكة وهو يُريهم غُرفهم.

كان نصيبُ جيم وسَليفان جناحاً من ثلاث غُرَف، مزيَّناً بصورة مبغى فرنسي ريفي، ومزوَّداً بشمعدانٍ من الزجاج مسودٍّ من الدخان، وذا أرضيّةٍ من الآجر وسريرين كبيرين مغطيين بناموسيتين. " ستحبّان النومَ فيهما ". نعم سيحبانه. وقد فعَلا. بل إنَّ جيم كان متعوِّداً على النومِ في منتصف النهار. أما ماريا، فقد ابتعدتْ أخيراً عن العالم الذي كان يُضجِرها؛ إلى جانب أنها كانت تستمتع برفقة جيم، مدركةً أنَّ الغزَل بينهما بات أمراً لابدَّ منه. هو أيضاً انجذَبَ إليها لكنه لم يكن متأكداً بأي طريقة. كانت اللعبة جديدةً عليه. كان عليه أن يتعلَّم قواعدها مع مرور الوقت. في تلك الأثناء كانت الخطوة الأولى قد اتُّخذت.

عرِفَ سَليفان ببصيرةٍ غريبةٍ ما سيحدثُ بالضبط. كان أشبه بالله؛ رتَّبَ مجموعةً من الظروف، والآن كل ما كانَ بحاجةٍ إلى فعله هو أنْ ينتظر حدوثَ الذروة المتوقَّعة.

بعد أسبوعٍ من مشاهدة الأماكن، لم يكونا قد تجوَّلا كثيراً في المدينة. كان الناسُ يأتون في الصباح ليتحدثوا مع ماريا في شؤون العمل. كان سَليفان يقرأ ويذهبُ جيم ليسبحَ في مسابح من المياه المعدنية. لم يكن هناك ما هو أكثر مشقَّة من ذلك، وكانت شدَّة الحرارة مرهقةً جداً.

ثم بدأ سَليفان يُسرِفُ في الشرب. وصُعِقَ جيم؛ إذ كان سَليفان نادراً ما يشرب قبل ذلك. الآن أصبحَ يشربُ باستمرار طوال النهار بحيث أنه مع حلولِ العشاء يكونُ مستعداً للنوم. ويستأذنُ، بأدبٍ، وهو يتمايلُ، مُصراً على أنْ يمكثَ جيم مع ماريا ويلازمها.

ذات أمسية، وبعد ذهاب سَليفان إلى السرير، جلسَ جيم مع ماريا

في الفناء. كان الهلال يسطعُ أبيضَ صافياً في الليل البهيم، وهبَّ النسيم وجعلَ سعف أشجار النخيل تُصدرُ حفيفاً.

خمَّنَتْ ماريا مزاجه. " أعلمُ مدى صعوبة الأمر. إنَّ بول رجلٌ غريب، يشعرُ بالمرارة حيال كل شيء، وكل شخص. عندما تمدح كاتباً آخر يتأذَّى، حتى وإنْ مَدَحْتَ شيكسبير. إذا قلتَ إنكَ تحبّ ذوي الشعر الأسود، سوفَ يتأذى لأنَّ شعره ليس أسودَ اللون، والآن ها هو قد ابتعدَ تماماً عن الناس. لا أدري لماذا. في السابق كان مختلفاً؛ كان أكثر... حيوية. كان يشعرُ أنه وهبَ بصيرة عظيمة، تفوقُ في عَظَمَتها بصيرةَ أي إنسانٍ آخر واعتبرها هبَةً مقدَّسةً، وهي كذلك فعلاً، على الرغم من أنَّ الهِبَةَ لم تكن ربما بالعَظَمَة التي اعتقَدَها "

" لكنه جيد جداً، أليس كذلك؟ ". أرادَ جيم أن يعرف.

قالت ماريا على عَجَل " نعم، إنه جيد جداً. ولكن ليس بالقدر الكافي. ليسَ بالجودة التي أرادها. وأعتقدُ أنَّ هذا يؤلمه "

" هل كونُ المرء كاتباً يُعتَبَر شيئاً هاماً؟ "

ابتسمَتْ. " إنه هام بالنسبة إلى مَنْ يعتقدون أنه هام، الذين تخلّوا عن كل شيء لكي يكونوا عُظماء "

" هل تخلّى بول عن أشياءَ كثيرة؟ "

" مَنْ يدري؟ هل هو قادرٌ على الحب؟ "

كان السؤال مباشرةً، واحمرَّ جيم خجلاً. " أنا... لا أدري. أعتقدُ ذلك ". غير أنَّ جيم لم يكن متأكداً البتّة من أنه يعرفُ ما هو الحب. افترَضَ أنه لابد شيءٌ يشبه ما يشعرُ به نحو بوب، شعورٌ يقوى مع التقدُّم في العمر، وكأنَّ الغيابَ يحفظه نقياً بصورةٍ ما. أيضاً ما شعرَ به

يتميَّزُ بأنه غير مُعلَنْ؛ سرٌ خاصٌ به. ابتسمَ، وهو يفكِّرُ في هذا، وقالتْ ماريا " ما الذي يجعلك تبتسم؟ "

" كنتُ فقط أفكِّرُ في المسافة التي تُبعدني عن فيرجينيا، عن البلدة التي نشأتُ فيها. كنتُ أفكِّرُ في مدى اختلاف حياتي عن حياة الناس جميعاً هناك "

لم تفهم. " أيزعجكَ كثيراً، أن تكونَ مختلفاً؟ "

كانت تلك المرة الأولى التي تشيرُ إشارةً مباشرة إلى علاقته الجنسية، وقد كرهها لأنها أتتْ على ذِكرها، وحنقَ لأنَّ أمره كُشِفَ. "لستُ مختلفاً إلى هذا الحد "

" أنا آسفة "، وقد أدركتْ خطأها، ولَمَسَتْ ذراعه. " كنتُ خرقاء "

سامحها جيم، ولكن ليسَ بشكلٍ كامل. أرادَ، بصورةٍ غامضة، أن يؤذيها، أن يرميها على السرير ويغتصبها بعنف، لكي يُقنِع نفسه ويُقنعها ويُقنع الجميع بأنه ليسَ كالآخرين. وأسرعَ النبضُ في حنجرته. كان خائفاً، حتى وهما يتحدَّثان بخِفَّةٍ في شؤونٍ أخرى.

*

كان سَليفان يقرأ حين صعَدَ جيم إلى الطابق العلوي. بدا وهو تحت الناموسية مخيفاً. " أقضيتَ وقتاً ممتعاً؟ "

" ماذا تعني بهذا؟ ". كان جيم مستعداً للقتال.

"حين تكونُ مع ماريا، تعرفُ ماذا تريد. إنها جذَّابة، أليسَ كذلك؟"

" طبعاً. طبعاً ". تركَ جيم ملابسه تسقطُ على الأرض؛ كان الليلُ حاراً؛ فجأةً شعرَ بالإرهاق والضجر.

" انتظِرْ حتى تعرفها بصورةٍ أفضل. إنها عاشقة رائعة "

" اخرس "

" فقط انتظر. هذا كل شيء. فقط انتظر ". ابتسمَ ابتسامةَ سكرانٍ واسعة. لعنَهُ جيم. ثم أطفأ الأنوار واندَسَّ في سريره الخاص. لم يواتيه النوم إلا بعد مُضيّ ساعات عِدَّة.

- ٢ -

كانت ماريا فرلين امرأةً فضوليّة، ماكرةً، ليسَ مِنَ السهل فهمها. كانت وهي في سن الأربعين تبدو كفتاة صغيرة، نحيلة، مترقّبة، حالمة، حياتها كلها مُكرَّسة لتلك الرغبة في الكلّ والسعي إليه الذي يسكنُ الرومانسيين ويُربِكُ الباقين. كانت تنتقلُ من علاقةٍ عاطفيةٍ إلى أخرى. يجذبها الحسَّاسُ، والرقيقُ، والمستحيلُ. كان في وسع مخيّلتها أن تُحوِّلَ أشدّ الرجال عاديّة إلى عاشقٍ حالم، إذا ما سَنَحَتْ الفرصة المناسبة وتوفَّرَتْ الاستجابة الكافية. لكن أحياناً تذوي المخيّلة، ويتطفَّلُ الواقعُ، وتنتهي العلاقة، بالهروب عادةً. إلا أنها استمرَّتْ في حياتها كمُحاربٍ شهم يُكرِّسُ حياته لقضيةٍ خاسرة؛ فقبلَ كل شيء، كانت أسطورتها المفضَّلة هي قصة دون كيخوته والبحث العبثيّ. وقد صدَّقَته وجعَلَته نبراسَ حياتها. ولكن مع مرورِ الوقت، وجدتْ أنها تنجرفُ أكثر فأكثر نحو شبانٍ أصغرَ منها سناً، شبان تكاد تكونُ رِقَّتهُم أنثويّة. كان في وسع المراهقين أن يبادلوا الرِقة برقةٍ مقابلة، ووعيٍ عالٍ، وطبعاً هم أيضاً آمنوا بالحب. لكنّها في المعتاد كانت تبتعدُ عن الشاذين جنسياً. كانت قد مَكَثَتْ أطولَ مما ينبغي في أوروبا. كثيرٌ من معاصريها وَقَعوا في أسرِ مجموعةٍ من الخياطين ومُهندسي الديكور، وأقسَمَتْ هي على ألاّ تقعَ في

فخّهم، على الرغم من أنهم كانوا يسلّونها، ويضحكونها، ويعاملونها كصديقةٍ حميمة. لكنهم حاولوا، من باب اللطف، لا الخبث، أن يُفقدوها أنوثتها ويجعلوها واحدةً منهم. لحُسن الحظ كانت عبقريةً في الهروب؛ تعرفُ متى تغادرُ دونَ أن تُسبِّبَ الألم. وهكذا منحوها تأشيرةَ دخولٍ إلى عالمهم، واستمتعَت هي بكونها مجرَّد سائحة.

الآن هي منجذبة إلى جيم؛ إنه أجنبي بالنسبة إليها، فلم يحدث قط من قبل أنْ انجذَبَتْ إلى رجلٍ عاديّ، وأقلّ من ذلك إلى صبي. من الناحية الجمالية كان يسرّها. ولطالما انجذَبَتْ إلى الآلهة الشماليين. كانت العيونُ الزرقُ، والشعرُ الأشقرُ، والبشرةُ الشاحبةُ تفتنها. هل كانت لأولئكَ الشماليين البرّاقين أية مشاعر؟ هل كانوا من البشر؟ ولكن قبل ذلك كله، لَمَسَ شغافَ قلبها. كان منغلقاً تماماً على نفسه، معقودَ اللسان، مُجرَّداً من وسائل الاتصال، ليسَ لديه ما يقدّمه غير جسده الذي كان يستخدمه كأضحية استرضاءٍ لإله خطر. لقد أرادته. إذا كان هناك وجودٌ للغزٍ شماليّ فضيّ، فإنها تريدُ أن تتقاسمَ معرفته. لم يكبحها إلا وجودُ بول. كانت تكفي إشارةٌ منه حتى تتراجع. لكنَّ تلك الإشارة لم تصدر، وفهمَتْ ذلك على أنه إذعان.

بعد ظُهر ذات يوم استقلّتْ مع جيم عربة يجرّها حصان إلى بركة كانا غالباً ما يسبحان فيها. وكان سَليفان قد بقي في الفندق.

سألها جيم " بعدَ كَمْ من الوقت في اعتقادك سينتهي عملك؟ "

" لا أدري. حقاً لا أدري. إنهم بطيئون جداً هنا. ربما في غضونِ بضعة أسابيع. لابد أنكَ تشعرُ بضجرٍ هائل "

" كلا، لستُ ضجراً. ليس حتى الآن، على الأقل. بل إني أحبُّ الجوَّ الحار. لكني أريدُ أن أذهب إلى نيويورك قبل حلول فصل الخريف "

" لكي تعودَ إلى لعب كرة المضرب؟ "

" نعم، أحبُّ أن أعمل "

" هل ستعيشُ مع بول في نيويورك؟ " سألته.

لزِمَ جيم السكوت. " ربما. لكني مستقلّ "، هكذا أجاب.

" ماذا فعَلتَ في هوليوود ؟ "

" علَّمتُ كرة المضرب. ليس كثيراً "

" لابدَّ أنَّ هوليوود مُثيرةٌ للاهتمام. لم أذهب إلى هناك منذ أمَدٍ بعيد. هل تعرَّفتَ إلى... "، وذكَرَتْ له أسماءً فأجابَ بـ " نعم " و " لا". وفجأةً سألتْ عن شخصياتٍ شاذّة جنسياً، فأجابَ بـ " نعم " على العديد من أسئلتها. وأخيراً تحدَّثا عن شو.

" قابلته مرةً في نيويورك. أعتقدُ أنه كان رجلاً حقيراً وتافهاً "

" حين تتعرَّفين إليه لن تجديه بهذا السوء ". كان جيم وفياً. " إنه تعسٌ، يعلمُ الله لماذا؛ إنَّ لديه كل شيء "

" إلاّ ما يريد "

" أعتقدُ أنه لا يعرفُ ماذا يريد، مثلنا جميعاً "

سُرَّتْ ماريا؛ كانت تبخسُ جيم حقَّه. " أعتقدُ أنكَ على حق. ليسَ الكثيرين يعرفونَ هذا. وحتى حين يفهمون فليسَ من السهل اكتشافُ ذلك "

قال جيم " أعتقدُ أني أريدُ مالاً؛ ما يكفي لكي أعيش به، على الأقل "

" فقط؟ "

" يعني، هناك شيءٌ واحد آخر "

" وهو؟ "

ضحك. " سرّي "

*

انقضى فصلُ الصيف، وانتهى عملُ ماريا لكنّهم لم يُغادروا. ظلَّ سَليفان يشربُ، وجيم يسبحُ مع ماريا ويتفرَّجان على الآثار القديمة. كان الحَرُّ واضحاً. كان مجرَّد عبور الشارع يجعلُ المرءَ يتبلّل من فرط التعرُّق. لكنهم مكثوا، ولم يأتِ أيٌّ منهم على ذِكرِ الرحيل، ولا حتى جيم.

كان الثلاثةُ ينتظرون.

وذات يوم زاروا أطلال تشيتشن إتزا وأمضوا الليلة في نُزُلٍ قريب وهناك التقوا زوجاً من سياتل من آل جونسن. آل جونسن كانا شابين، حيويين وبريئين. فرحَتْ السيدة جونسن (" أنا أقرأ كل شيء ") بلقاء سَليفان. في الحقيقة، لم تكن قد قرأتْ إلا كتاباً واحداً من كتبه ونسيتْ عمّا يدور. ومع ذلك، فرِحَتْ بلقاء كاتبٍ حقيقي.

في تلك الليلة، بعد تناول طعام العشاء، جلسوا في الخارج بين أشجار النخيل وأمسكتْ السيدة جونسن بزمام الحديث كله تقريباً. كان النعاسُ يغلبهم بشكلٍ ممتع. جلسَتْ ماريا ويداها متشابكتان في حجرها، وتتأمّل الأطلال عن بُعد : أهرامات، وأبنية مربَّعة منمَّقة الزخرفة تبدو رهيبة الشكل تحت ضوء النجوم. حاولَ جيم أن يُخفي تثاؤبه. أرادَ أن يأوي إلى السرير. وشرَبَ سَليفان التكيلا ومديح السيدة جونسن.

" إنني بحقّ أحسدكم أنتم معشر الكُتَّاب. إنكم تقضون وقتاً ممتعاً وأنتم تنتقلون من مكانٍ إلى آخر. أتدري، كنتُ أعتقدُ أني سأكون كاتبة. يعني، مثل فاني هيرست[١٢]. ولكن أعتقد أنه كانت هناك أعمالٌ أكثر أهمية يجب تنفيذها "، ونظرَت بولَهٍ إلى زوجها.

قال سَليفان " نعم، أنا واثقٌ من أنكَ فعلت "

" هل أنتَ متزوج، سيد سَليفان؟ وعُذراً لأني أتدخَّل في أمورك الشخصية "

" أنا مُطلَّق "

" أوه، هذا مؤسف. قد يُدهشكَ ما سأقول، لكني لم أكن حيّةً إلى أن تزوَّجتُ من جورج. لكني أتوقَّع أن تتزوج من جديد، سيد سَليفان. أقصد أنَّ رجلاً بارزاً مثلك وما زالَ شاباً... "

" لا أعتقدُ ذلك "

" هذا ما يقوله كلهم! "، وأخذتْ السيدة جونسن تثرثرُ بمرح عن الزواج ومسرّاته المتهوِّرة.

كان جيم دائماً يشعرُ بأنه متفوِّق بصورةٍ غريبة حين يكونُ مع أناسٍ عاديين يفترضون أنَّ الجميعَ يشاركونهم ميولهم. قال في نفسه، وهو يبتسم لنفسه في الظلام، ليتهم فقط يعلمون الحقيقة. ألقى نظرةً على ماريا فرآها جالسةً لا تُبدي حراكاً كالتمثال الذي شاهدوه في ذلك اليوم بين الأطلال، لإلهةٍ تضعُ قناعَ جمجمة. وكان بول قد ضحكَ حين رأى التمثال الحجري؛ وَجَدَ أنَّ الإلهة الوحيدة في التسلسل الهَرَمي لحضارة المايا هي الموت.

" هل أنتِ أيضاً كاتبة يا سيدة جونسن؟ ". كان الثنائي جونسن قد قرَّرا أنَّ هؤلاء الثلاثة يتَّسمونَ بشيءٍ من الغرابة، يسافرون معاً ولكن ربما " لا غبار عليهم ". ولو أنَّ هناك ما يُريبُ فيهم، لكانَ الأمرُ أكثر إثارة للاهتمام.

قالت ماريا " كلا، أنا نكرة "

" أوه "، والتفتت السيدة جونسن إلى جيم، لكنها قرَّرت ألا تستجوبه؛ بدا أصغر كثيراً من أن يكون قد اقترَفَ ما يستحقّ الكلام عنه.

" ألا تجد الهنود هنا رائعين إلى أقصى حد يا سيد سَليفان؟ "

" من أي ناحية؟ "

" إنهم، في الواقع، بدائيون جداً ومع ذلك... غامضون. أعتقد أنهم ربما سعداء تماماً حتى وإن كانوا فقراء. لا شك في أنَّه من الخطأ تثقيفهم. لن يجلب ذلك لهم إلا البؤس، لا أكثر ". تحدَّثت قليلاً عن الهنود. ثم، طبعاً، تحدثوا عن الأفلام السينمائية.

لقد شاهدت السيدة جونسن من الأفلام السينمائية قدرَ ما قرأتْ من الكتب. وتكون أسعد حالاً عندما تشاهد فيلماً سينمائياً مأخوذاً عن كتاب كانت قد قرأته. إنها دائماً تتذكَّر كل شخصية وتكره العرض غير الوفيّ للنص. " طبعاً الممثل المفضَّل لدي هو رونالد شو. إنه " مفعمٌ بالطاقة ". ذات مرةً كنتُ أقرأ في مجلةٍ للسينما - وجدتها عند الحلاّق، تجدها هناك دائماً - وقرأتْ عن المكان الذي سيتزوج فيه تلك الممثلة الأسبانية كارلوتا ريبوللو التي تكبره في السن بسنوات. أمرٌ مؤسف، أليس كذلك؟ "

ألقى سَليفان نظرةً على جيم الذي احمرَّ وجهه. ماريا أيضاً كانت تتسلّى. كان هناك ثلاثة أشخاص يمثلون مسرحية لجمهورٍ لا يعرفُ نوعية الأداء الجيد ولا يُقدِّره.

فجأةً قالت ماريا " أحبُّ أن أشاهدَ الأطلال "

قال سَليفان ساخراً " على ضوء النجوم؟ حسن، ولم لا؟ اصحبها يا جيم "

" حسنٌ... ". نظرَ إلى ماريا.

قالت " أعتقدُ أنَّ علينا جميعاً أن نذهب "

" كلا. اذهبا أنتما الاثنان. أيها الرومانسيان "

نظرَ آل جونسن إلى الثلاثيّ، وقد أدركا ما يكمنُ خلفَ ما يُقال. ثم غادرت ماريا الطاولة وتبعها جيم. خرجا من المربع الصغير المُضاء بالنور الكهربائي إلى الظلام. لم يكن ضوءُ النجوم يترك ظِلالاً في الليل البارد. سارا، كروحَين أثيرين، على جادةٍ من العشب المجزوز ثم جلسا في اللحظة نفسها، ودون أن ينطقا بحرف، جنباً إلى جنب على بقايا إله منسيّ ومهشَّم.

رفَعَ جيم بصرَه نحو النجوم، متلألئة وبيضاء في السماء السوداء. تنفَّسَ بعمق. كان الجو يعبقُ برائحةِ الحكمة بالإضافة إلى العبق الجاف للحَجَر المسفوع بأشعة الشمس.

التفتَ إلى ماريا فرأى أنها تنتظر. ودُهِشَ لأنه لم يشعر بالخوف.

" يشعرُ المرءُ هنا أنه ميت ". كان صوتها نائياً بعيداً بين الأطلال.

" ميت؟ "

" ميِّت بسلام. كل شيء ينتهي، محتوم، كأحد هذه الحجارة : لن يكون هناك أي شيءٍ آخر.

" هذا إذا كان الموتُ هو كما تقولين "

" لابد أن يكون كذلك "

صَمَتا مدةً طويلة. أخيراً تكلَّمتْ ماريا. " لقد كنا نمثِّل "

" نعم "

" وغير صادقين "

" مع بول؟ "

" مع بول. مع أنفسنا ". تنهَّدتْ. " أتمنى لو أني أعرفُ المزيدَ عن الناس. أتمنى لو أفهم لماذا الأشياء هي كما هي "

" لا أحد يعرف ". ذُهلَ جيم إذ وجدَ نفسه يعزف على أوتار الحكمة. " لا أعرفُ لماذا أفعلُ ما أفعل أو حتى مَنْ أكون "

" بل إني حتى لا أعرفُ مَنْ أنتَ ". تبادلا النظر، بوجهَين شاحبَين وغير واضحَي الملامح.

" أنا نفسي. لا أكثر. محدود "

" محدود ؟ ليس حقاً. في الواقع أنتَ كل شيء، رجل وامرأة وطفل. تستطيع أن تكونَ ما تشاء "

" ماذا أنا الآن؟ "

" حتى قبل بضع لحظات كنتُ طفلاً "

" وماذا أنا الآن؟ "

" لا أدري "

بدأ يرتعشُ؛ بدأ الأملُ يحدوه. قد يحدثُ الأمر.

" أأنتَ خائف؟ "

" كلا، لستُ خائفاً ". لم يكن كذلك في تلك اللحظة.

" أتستطيع أن تُقبِّلَني؟ "

قال " أستطيعُ أن أقبِّلكِ "، وفعل. قبَّلَ إلهة الموت.

*

بعد ذلك أصبحَ كل شيء مختلفاً؛ مختلفاً ولكنه هو نفسه. إذ في نهاية المطاف لم يحدث أي شيء. لقد فشلَ جيم. لم يستطع أن يؤدي

العمل. كان غير مؤهَّل. لكنَّ علاقته بماريا كانت علاقةَ حب، على طريقتها الخاصة. كانا يتلازمان قدر استطاعتهما. كل منهما كان موضع ثقة الآخر. ولكن حين يصلُ الأمرُ إلى الاتصال الجسدي، فيما عدا القبلة الأولى، كان جيم لا يحتملُ رِقَّة ونعومة أي امرأة. أصابت الحيرةُ ماريا. لأنه كان معاً ذكَراً ومُنجذباً إليها، مما جعلها تجد فَشَلَه أشدَّ غموضاً. لم يبقَ أمامهما إلا أن يبقيا عاشقَين لا يتلامسان. غير أنَّ سَليفان قبلَ العلاقة السطحية على أنها علاقة حقيقية، والألم الذي سبَّبَته له كان حاداً.

حلَّ شهر تشرين ثاني ولم يرحلا عن ميريدا.

كان جيم يُلازمُ ماريا مُعظم الوقت. كان سَليفان يرفضُ أن ينضمَّ إليهما خلال النهار. كان يبدأ بالشرب بعد تناول طعامَ الإفطار؛ وبحلول أوَّل المساء غالباً ما يصبحُ مرحاً ومسلّياً ولكن مع انتهاء تناول وجبة العشاء يصبحُ حتماً مُثقلاً بالهمّ والمرارة. ظلَّتْ حياتهم متوقّفة حتى شهر كانون أول حين اشتبكَتْ الولايات المتحدة في حربٍ مع اليابان، ومرةً أخرى وجدوا أنفسهم جزءاً من العالم. توقَّفَ سَليفان عن الشرب، ووضعوا خططاً أثناء جلوسهم في الفناء بعد تناول طعامَ العشاء. فرِحَ كلٌ من جيم وسَليفان؛ دبَّتْ الحياة فيهما. وحزنتْ ماريا. قالت " لا أحبّ أن أفكر في الأمر. طوال حياتي وأنا أعيشُ حالةَ حرب، إمَّا بدأتْ للتو، أو انتهتْ للتو. يبدو أن لا مهرب "

توقَّفَ سَليفان عن دورانه العَصَبي حول الفناء. قال لجيم " يجب أن نعود "

أومأ جيم موافقاً، وقد أخذته دراما الأحداث الجديدة. " أريدُ أن أتطوَّع قبل أن أُطلَب ". قال هذا، وسُرَّ بالكلمات إذا لم نقُل بالفكرة.

قالت ماريا بحميّة " إنه أمرٌ لا معنى له. لو كنتُ رجلاً لفررتُ، اختبأتُ، تخلّيتُ عن كل شيء، تحوّلتُ إلى خائن "

ابتسمَ سَليفان " قبل خمس سنوات كان يمكنُ أن أفعلَ هذا بالضبط"

" ولِمَ لا تفعله الآن؟ "

" لأنَّ هذا... شيءٌ يستحقُّ أن نقومَ به "

التفتَتْ إلى جيم. " أهذا شعورَكَ أنتَ أيضاً؟ "

" إنه يحلُّ مشاكلَ كثيرة "

" ربما ". بدتْ غير مُقتنعة.

قال سَليفان " يجب أن نعودَ في أسرع وقت ممكن "

سألته ماريا " ماذا ستفعل؟ "

" سأصبحُ جندياً. أو مُراسلاً. أي عمل أستطيعُ أن أحصلَ عليه "

قالت ماريا " يبدو أنَّ عطلتنا المكسيكية قد شارفَتْ على نهايتها. لقد استمتعتُ بها "

" وأنا أيضاً ". نظرَ جيم إليها وشعرَ بدفءٍ مفاجئ يسري فيه؛ لقد قرَّبه تهديدُ الحربِ والرحيل منها.

حاكاهما صوتُ سَليفان بسخرية " وأنا أيضاً. لقد استمتعتُ بكل دقيقة فيها. كنا نشكّلُ ثلاثياً مُثيراً للاهتمام، أليسَ كذلك؟ "

" أحقاً؟ ". كانت ماريا مُكتئبة.

تقرَّرَ أن يعودوا إلى الولايات المتحدة عبر غواتيمالا سيتي.

*

طاروا بارتياح فوق السحاب، والجبال، والغابة المظلمة. كان ممتعاً الانسيابُ فوق الأرض الحارة المُتبخِّرة وكأنهم لم يعودوا ينتمون إلى

مخلوقات الأرض وإنما أصبحوا شيئاً يتفوّقُ على البشر، والعناصر، لا وجودَ لأي مصاعب لا يستطيعون التغلُّبَ عليها بأجنحةٍ فضّيةٍ صَلبة.

كان جيم يتخيَّلُ نفسه برؤى براقة منخرطاً بسلاح الجو، طائراً عبر القارات والمحيطات، قادراً على التحرُّك بسرعةٍ فوق الأرض من دون أن يُخلِّفَ أي أثرٍ وراءه. وتاقَ إلى الطيران.

كانت غواتيمالا سيتي مُريحةً بعد مغادرة يوكاتان. كانت المدينة باردةً وشوارعها بدتْ وكأنها قد نُظِّفَتْ حديثاً. وكان الناسُ مرحين، والجوّ ممتعاً. وكيفما نَظَرتَ ترى براكين تنفثُ أدخنة حادَّة، يتخللها اللون الأزرق وتتركُ ظِلاً، وتُخيِّمُ فوقها سُحُبٌ مطريّة.

في الفندق أرسلَ سَليفان برقيات إلى صحفيين من أصدقائه يمكنهم أن يساعدوه للحصول على مهمَّةِ مُراسلٍ حربي. ثم، بعد أن أقاما اتصالاً حقيقياً مع العالم، عادَ جيم وسَليفان إلى غرفتهما.

وقفَ سَليفان عند النافذة وقال " لقد انتهت ". وهو يتأمَّلُ الجبال، وحلَّ جيم الحقائب.

" تعني الرحلة؟ "

" الرحلة، طبعاً "

قال جيم، الذي فهِمَ ما عناه، " نعم، أعتقد أننا سنفترق حال وصولنا إلى نيويورك "

ابتسمَ سَليفان " أشكُّ في أن يرسلنا الجيش معاً إلى الحرب "

" لابد لكل شيءٍ من نهاية. أتساءلُ لماذا "

" ألا تعلم؟ ". كانت لهجة سَليفان مؤنِّبة. " ألا تعلم؟ "

" أتعلمُ أنت؟ "

" حتماً. حين تعشَق شخصاً آخر، فسوفَ يُنهي ذلك العلاقةَ السابقة، أليس كذلك؟ "

" تعني ماريا ؟ "

" نعم، أعني ماريا "

" إنه... أمرٌ مُعقَّد جداً، بول. ليس كما يبدو ". لكنَّ جيم فشِلَ في أن يقول الحقيقةَ كلها؛ لأنها تُسبِّبُ مهانةً كبرى.

لحسن الحظ لم يكن سَليفان يهتم بالوقائع؛ كان يكتفي بحدسه الخاص؛ ومهما كانت التفاصيل، فإنَّ النتيجة واحدة. " على أي حال، كنتُ أعلمُ طوال الوقت أنَّ هذا سيحدثُ. أنا تركته يحدث "

" لماذا ؟ "

لكنَّ سَليفان لم يكن ليعترف لأي إنسان بالسبب الذي دفعه إلى اتباع ذلك السلوك. قال، وكان يعلمُ أنه ليس مُقنعاً، " لأني حسبتُ أنه أفضل ما يمكنُ أن يحدث لك. إنها امرأة رائعة. تستطيع أن تخرجكَ من هذا العالم "

" ولماذا ينبغي أن أخرجَ منه؟ ". للمرة الأولى اعترَفَ جيم بما هو عليه.

" لأنكَ لن تتلاءم أبداً مع هذا النوع من العلاقات، ولذلك كلما أسرعت بالعثور على سبيل يؤدي بك إلى شيءٍ آخر كان ذلك أفضل لك"

" ربما ". نظرَ جيم إلى سَليفان. كانت الدوائر السوداء قد زالتْ من تحت عينيه. كان ما زال جذاباً في عيني جيم، حتى الآن، بعد أنْ انتهى كل ما بينهما، كانا يتحدثان معاً بلطف. ومع ذلك، أخيراً أصبحَ كل منهما أبعد ما يكونُ من الصدق مع الآخر بحيث لم يكن أي منهما قادراً على الشعور بأوهى أسفٍ على ما يُشرِفُ على نهايته.

*

في الليلة الأخيرة تناولا طعامَ العشاء في مطعمٍ يوصى به خاصة للّذين يرغبون في تناول طعامٍ محلّي دون الإصابة بالإسهال. كانت جدرانه تُشرقُ بمشاهد بدائية تُبيّن براكين، وفاتحين، وأزهار، وبحيرات. كان المكان يضجّ بموسيقا تصدر عن فرقة ماريما صغيرة. ورقصَ السيّاح أزواجاً.

طوال فترة تناول طعام العشاء شعرَ جيم بأنه متهوِّر وسعيد، كطفلٍ خارج من المدرسة.

شربوا نبيذاً تشيلياً وحتى ماريا كانت مرحة. ولكن مع نهاية العشاء أصبحتْ الموسيقا حزينة ورومانسية، وكانوا جميعاً قد أفرطوا في شرب النبيذ الأبيض، وغَلَبهم الحزن والمزاج الرومانسي أيضاً. لكنه كان حزيناً من النوع الشديد القُرب من السعادة. عندئذٍ استكانَ كل منهم آمناً في فشله الخاص. وزال الشك. ورُسِمَتْ الحدود وقُبِلَتْ.

قالت ماريا بينما الفرقةُ الموسيقية تعزفُ لحنَ " لا بالوما "، " ما أشدّ حزنه! لقد أمضينا معاً فترةً طويلةً جداً معاً، ومارسنا ألعاباً كثيرة "

" هذا صحيح ". كان سَليفان مُتقلِّب المزاج. " ولكن أيضاً من المُريح أن تكونَ للأشياء نهاية "

" بل بعض الأشياء "، ودحرجَتْ ماريا كأسَ النبيذ بين يديها. "أعتقدُ أنَّ الحبَّ هو دائماً أمرٌ مأساوي، بالنسبة إلى الجميع، دائماً "

" ولكن هذا ما يجعلُ الحياةَ مثيرةً للاهتمام. كيف يمكننا أنْ نُقيِّمَ أي شيء قبل أن ينتهي؟ "

" تعني لا نور دون ظلام؟ "

" نعم. ولا ألمَ دون متعة "

" أسلوبك غريب في التعبير عن هذا "، ونظرَتْ إليه، وقد أدركَتْ تقريباً سرَّه.

أسرعَ بالقول " ومع ذلك، ثمة أشياء أخرى في الحياة غير الحب. انظري إلى جيم. إنه لم يعشَق قط، أليس كذلك؟ "

" طبعاً أعشقُ؛ أعشقُ ما أريد ". كان جيم يفكّرُ في بوب.

أصابت الحيرةُ ماريا. " وماذا تريد؟ "

أجابَ سَليفان نيابةً عنه. " ما لا يستطيعُ الحصولَ عليه، مثلنا جميعاً "، والتفتَ إلى ماريا. " هل عثرتِ أنتِ مرةً على ما أردتِ؟ "

" مرةً، حتماً "

" ولكن ليس لفترةٍ طويلة "

" كلا، ليس لفترةٍ طويلة. لقد فشَلتُ كما يفشلُ الجميع "

" لماذا؟ "

" أعتقدُ أني أريدُ أكثر مما يهتمُّ أي رجلٍ في منحه. وأحياناً أعطي أكثر مما يريد أي رجل في أخذه "

فجأةً قال جيم " شو كان هكذا. أقصد انه : اعتقدَ " أنه كذلك "

قال سَليفان " شو كان أبله "

قالت ماريا بحزنٍ " كلنا هكذا، في نهاية المطاف "

شَمَلَهم الصمت. كان لحنُ الماريمبا يقرقعُ في القاعة. شربوا مزيداً من النبيذ. وأخيراً نهضَ سَليفان واقفاً وتوجَّه إلى المرحاض. وللمرة الأولى منذ وصولهم إلى غواتيمالا انفردَ جيم بماريا. التفتت إليه وقالت "سأغادرُ غداً "

" ألن تأتي معنا؟ "

" كلا. إنني لا أتحلّى بالقوة الكافية. في الواقع، إنني أحياناً أؤمن بوجود إله، إله حقود، يعتقد أنه الأقوَم ويُنزِل العقاب بالسعادة. كنتُ

سعيدةً معك حين حسبتُ... ". لم تتمكَّن من إكمال الجملة. " على أي حال، ستمرُّ سنون طويلة قبل أن تتمكَّن من عشق امرأة. أما أنا فليسَ لديّ مُتَّسع من الوقت لأنتظر "

" لكنكِ تعلمين كيف أشعر نحوك "

قالت " نعم "، بصوتٍ أصبحَ خالياً من الانفعال، " أعرفُ كيفَ تشعر "، ثم نهضَتْ واقفة. " سأعودُ إلى الفندق "

نهضَ بدوره. " هل سأراكِ قبل أن ترحلي؟ "

" كلا "

" ولا في نيويورك؟ "

" ربما "

" سوفَ أتمكَّنُ من رؤيتكِ حينئذٍ. سوف أتوقُ على رؤيتك. ثم إني لا أريدُ أن أفقدك "

" حين سأَصبحُ أسعد حالاً، سوف نلتقي. أسعدت مساءً، جيم "

" تصبحين على خير، يا ماريا ". غادرتْ المطعم على عَجَل، وتخريم ثوبها الأسود يحفُّ بساقيها.

عاد سَليفان. " أين ماريا؟ "

" ذهبَتْ إلى الفندق. إنها مُتعَبَة "

" أوه؟ حسنٌ، فلنشرب كأساً أخرى "، وشربا.

على الرغم من كون جيم حزيناً، إلا أنه شعرَ بارتياحٍ لهدوء المشاعر مؤقتاً. كان تينك الاثنان قد أرهقاه، أخرجاه من عمقه. الآن أخذ يصبو إلى الحرية؛ الآن بعد أن أعتقته حقيقةُ وقوعِ حربٍ سوف يزوِّده الفعلُ بالتصميم. لم يكد يطيقُ صبراً على بدء حياته الخاصة.

الفصل السابع

- ١ -

وصلَ جيم وسَليفان إلى نيويورك في منتصف شهر كانون أول. وعلى الفور تقريباً حصلَ سَليفان على عملٍ مع وكالة أنباء، في حين تطوَّعَ جيم في الجيش. لم يرَ أيٌّ منهما ماريا فرلين؛ كانت قد اختفت.

ذهَبَ جيم أولاً إلى مركز الاستقبال في ميريلند حيثُ أُسندَ إليه عملٌ يتعلَّقُ بالحرائق ريثما يبتُّ الجيشُ في أمره. كان الطقسُ الرديء والاستبداد الحقير يُبقيانه غاضباً بحيثُ لا يتوفَّرُ له وقتٌ لرثاء نفسه، وهو يتنقَّلُ بين الأيام السوداء بحسٍ مُتبلِّدٍ، دون أن يتعرَّف على وجود أي كائنٍ آخر.

في وقتٍ متأخِّر من بعد ظهر أحد الأيام، أفاقَ جيم، بعد أن كان قد أمضى الليلَ بأكمله في مراقبة أفران الفحم، وأخذ يتجوّل في غرفة استجمام ثكنة فرقة الإطفاء. كانت هناك ثلّةٌ من الجنود الجُدد يراقبون لعبة تجري في البركة وتُقَامُ بعد ظهر كل يوم، يؤديها اثنان من أفراد الفرقة الدائمين. شعرَ جيم بالوحشة وقرَّر أن يكسر صمته الطويل. التفَتَ إلى الجندي المجاور له، وكان في الأربعين من العمر، مدنيّاً بشكلٍ ميؤوس منه، وله شارب صغير وعينان حزينتان.

سأله جيم " منذ متى وأنتَ هنا ؟ "

نظرَ الرجل إليه بامتنان، وقد دُهِشَ قليلاً " في الواقع، منذ نحو الشهر ". كان صوته مُثقَّفاً، يختلف عن العواء الحَلْقي الذي يَصدِر عن العديد من الجنود الجُدُد، المجنَّدين من بين الغوغاء ومن عمق الريف. "وأنت "

" منذ أسبوعَين. أنا تطوَّعتُ في نيويورك. من أين أنت؟ "

" من آن آربر، ميتشغن. أنا كنتُ في الجامعة "

ثار إعجاب جيم. " أستاذاً؟ "

أومأ الرجل برأسه. "بروفسوراً في التاريخ، بروفسوراً مساعداً"

" إذن ماذا تفعل هنا ؟ كنتُ أظنُّ أنَّ أناساً مثلك يجب أن يكونوا برتبة رائد "

ضحكَ البروفسور بعصبيّة. " هذا ما حسبته أنا. لكنني كنتُ مخطئاً. في عصر الجماهير الغفيرة، وحدهم الفلاحون الجلف أمثال رقبائنا الأولين يرتقون إلى المراتب العليا "

" هل تطوَّعتَ؟ "

" نعم. أنا متزوج، ولديّ طفلان، لكني تطوَّعت "

" لماذا ؟ "

" كانت لديّ فكرة غريبة مفادها أني سأكونُ ذا فائدة "

للمرة الأولى منذ أن تطوّعَ جيم كان قادراً على الشعور بالشفقة على شخصٍ آخر. سُرَّ لهذا الظهور بمظهرِ صاحب الشخصية. قال " هذا ليس عدلاً؛ ماذا تظنهم سيفعلون بك؟ "

" سوف يُصنِّفونني في فئة الكَتَبَة. يبدو أنَّ هذا هو قَدَري "

" ألن تسعى لكي تكونَ ضابطاً؟ "

" ربما. لديّ أصدقاء في واشنطن. ولكن يبدو أني فقدتُ كل إيمانٍ بهذا العمل. طبعاً الأمورُ كانت أسوأ في جيش بوتوماك[١٣] ". ثم أضافَ بلهجة اعتذار " في الحرب الأهلية "

" وأسوأ في القتال الآن، أيضاً ". كانوا جميعاً قد سمعوا قصصاً مرعبةً حول ما جرى في الفيليبين، حيث مُنيَتْ القوات الأميركية بهزيمةٍ نكراء "

قال البروفسور " ربما، لكني لا أكادُ أصدِّقُ هذا. يبدو لي هذا أشبه بالجحيم، بصورةٍ ما، أو بكابوس لا مخرجَ منه. إنَّ حُكَّامنا مجانين "

اقتَرَبَ اثنان من فتيان الريف الضخمين، حُمر الوجوه. كانا أخرقَين وودودَين. " مرحبا، بروفسور، تبدو مُستنزفاً. هل أثبطوا همَّتَكَ؟ "

" مرحبا شباب. كلا، لم يثبطوا همتي بعد. إنني ببساطة أتحوَّلُ من السلام إلى الحرب بخطواتي البطيئة "

أحد الشابَين أطلَقَ نكتةً على كلمة " سلام "، وضحكَ البروفسور ضحكاً لا يقلُّ عن ضحكهما علواً، توقاً إلى أن يكونَ أضحوكتهما. شعرَ جيم بالحزن وهو يراهُ يقومُ بدور المهرِّج. كان من المهم أن يكونَ المرءُ ذاته. وعلى الرغم من أنه لم يتمكَّن من الاعتراف بما هو عليه، رَفَضَ أن يتظاهرَ بأنه مثل أي شخصٍ آخر. أصبحَ يؤلمه الآن أن يرى رجلاً آخر يُضحّي بكبريائه، خاصة حين لا يكونُ ذلك ضرورياً.

أبقى البروفسور الشابَين ذوي الوجهين الأحمرين يضحكان بأن حكى لهما حكايات مضحكة عن محاولاته على مدى أربعٍ وعشرين ساعة مع جندي مطبخ. كانوا بين حينٍ وآخر يلقونَ نظرةً على جيم ليروا إنْ كان

يضحك. لكنه لم يستجِب واستأذنَ منه. لحُسن الحظ كان أضخمَ جثَّةً منهم.

دخلَ رقيبٌ أول، قصيرُ القامة في الخمسين، فعمَّ المكانَ صمتٌ ما عدا قرقعةُ كرات البلياردو. قال " أريدُ رجلَين. أريدُ متطوّعَين لتنظيف المرحاض اللعين. لقد لوّثه أحد أولاد الحرام وأريدُ رجلَين ". فجأةً انقضَّ على جيم وعلى البروفسور. قال " أنتما "

قال البروفسور، قافزاً على قدميه " حاضر، أيها الرقيب. يسعدني دائماً أن أتطوَّع! "

استغرَقَ تنظيف المرحاض ساعتَين، تعلَّمَ خلالهما جيم الكثير عن التاريخ الأميركي وسيطرة الجيوش الديموقراطية.

- ٢ -

في شباط نُقِلَ جيم إلى جورجيا. وعلى مدى الأشهر الثلاثة التالية انشَغَلَ بتدريبه الأساسي. أعجبه الجانب الجسدي من الحياة العسكرية؛ استمتعَ بكونه فعَّالاً، على الرغم من أنَّ الإهانات الجانبية ظلَّتْ تزعجه.

في شهر أيار أُرسِلَ إلى سلاح الجو للخدمة العامة (وهو التصنيف المتعارف عليه لمَنْ تنقصهم المهارة)، أُرسِلَ إلى قاعدةٍ جويةٍ في كولورادو، حيثُ فُرِزَ إلى إدارةِ وحدةٍ كانت بدورها جزءاً من قيادةٍ تشكِّلُ بدورها جزءاً من القوى الجوية الثانية، المُخصَّصة إلى حدٍ بعيد لتدريب الطيارين والقاذفين. من بين مئتيّ رجل في وحدته، كانت الأغلبية من الإداريين. والذين من فئة ضباط الصف، الأكبر سناً من الجنود العاديين، كانوا يعيشونَ بعيداً عن المنصِب مع زوجاتهم في كولورادو سبرينغز.

استقبلَ جيم ورفاقَه من جنود المشاة رقيبٌ أول، وهو رجل طويل القامة ونحيل كان ذات مرة بائعاً للأدوات المنزلية.

حاولَ أن يكونَ مُنذراً بالشؤم. قال " أنتم الآن في سلاح الجو. لعلّكم سمعتم قصصاً مفادها أننا لسنا بالقسوة التي تتّصفُ بها بعض الفروع، لكن هذا هراء. أتسمعون؟ أتسمعون ما أقول؟ هنا لدينا انضباط، الكثير من الانضباط. لأنَّ هذه إدارةٌ هامة جداً فلا تنسوا ذلك أبداً. لدينا جنرال صارم. فالتزموا النظام وأدّوا أعمالكم وستكونون على ما يرام "

لكنَّ سلاح الجو لم يكن بأي حال بصرامة سلاح المشاة. كان الانضباط تشنجياً. كان الكَتَبَةُ كمثلهم في أي مكان، وكان جيم يمتعضُ منهم. على الرغم من أنَّ أبنية الثكنة الخشبية المغطاة بالقار كئيبةٌ والطعامَ رديءٌ، إلا أنَّ الحياةَ لم تكن مزعجة. خلال الأشهر الأولى لم يختلط هو وأفراد المشاة مع كَتَبَة قوات الطيران؛ احتفظوا بهويتهم باعتزاز، ولكن كان لابد من أن يذوبوا فيهم.

كانت الأيام كلها متشابهة. في الصباح الباكر كانت أسطوانة الاستيقاظ تعزف من خلال مُكبِّر الصوت. وبينما الرجالُ يتثاءبون ويسبّون، يُصدرُ الرقيبُ أول تعليماته في أرجاء الثكنة، ويجأرُ في الذين ما زالوا نياماً. ثم يهرعون في الهواء المُصقع إلى المرحاض الذي يبعُدُ مسافةَ عشرينَ ياردة منهم؛ ثم يأتي الإفطارُ في قاعة الطعام العمومية. يزدردُ جيم الطعامَ المشحَم بلا حماس، دون أن يعي ماذا يأكلُ. بعد ذلك يُسندُ الرقيبُ الأول عدداً من المَهام إلى رجال الخدمة العامة. وغالباً ما يكونُ العملُ شاقاً - إقامة ثكنات، تحميلُ الشاحنات بالقمامة، إصلاح المَدارج. عملٌ شاقٌ لكنّه ليسَ كثيراً. كان غالباً ما تتوفَّر لجيم أيام

بأكملها لنفسه حيث يذهبُ إلى المدارج لمراقبة طائرات ب-١٧ و ب-٢٤ وهي تقلعُ وتحطُّ. وكان فريقُ القاذفين مفتوناً بوضوح بما يفعلُ، خلافاً لباقي الرجال الذين يؤدون بفتورٍ مهاماً حمقاء. وقد فُتِنَ جيم على وجه الخصوص بأحد الطيارين، وكان فتى بهيّ الطلعة أشقر الشعر يتمتّعُ بشعبيةٍ خاصة بين الفريق الأرضي. كان يُغني أغانٍ شعبيةٍ بصوتٍ ذي نبرةٍ عالية، وينخرطُ في المزاح السمج، وبصورةٍ عامة كان يشيع السرور. وذات مرةٍ وَجَدَ جيم نفسه وجهاً لوجه معه. فحيّاه جيم، لكنَّ الطيار اكتفى برسم ابتسامةٍ عريضةٍ وربَتَ له على كتفه وقال كلٌّ منهما للآخر "مرحبا!". وبُهِرَ جيم. كان ذلك كل ما حدث. كانت الرتبةُ تُفرِّقُ بينهما. للأسف.

لم يعقد جيم أية صداقات. تجنَّبَ جلسات الذكور الليلية في الثكنة. بدلَ ذلك كان يشاهدُ الأفلام السينمائية ويقرأ الكتب. من بينها روايةٌ من تأليف سَليفان؛ بدتْ له كأنها عملُ شخصٍ غريب تماماً عنه؛ ولاشك في أنها كانت كذلك. وكان بين حينٍ وآخر يقومُ بزيارةِ كولورادو سبرينغز حيثُ كان يفهمُ تماماً أولئك الجنود الذين يبدو عليهم الانتباه، الباحثين أبداً عن استجابة. لكنَّ جيم تجاهلهم؛ لم يكن لديه أي اهتمامٍ بالجنس.

أخيراً أُعيدَ تصنيف جيم. فحين لاحظَ أحد الضباط أنه مُدرِّب كرة مضرب وَضَعَه ضمن الخدمات الخاصة كمُدرِّب للتمارين البدنية. وتطوَّرتْ حياته. كانت علاقته حَسَنَة بالقائد بانكس، ضابط الخدمات الخاصة، ولاعب كرة قدم كان طياراً، تخلّى عن الطيران لأسبابٍ صحيّة. كان القائد بانكس يتنقَّلُ بخطى حالمة في أرجاء غرفة مكتبه، يوقِّعُ على الأوراق الضرورية، غير مدركٍ لما يفعل. وكان، كغيره من ضباط القاعدة، قد تنازلَ عن كامل سلطته لرقيبه.

كان الرقيب كرفنسكي رجلاً أسمرَ نحيلَ القامة يضعُ خاتماً من الماس في إصبعه الصغير ويتكلّمُ بسرعة، وغالباً ما يحمرُّ وجهه. وقد بدا ابتهاجه حين انضمَّ جيم إلى قِسمِهِ جلياً حتى للعين البريئة. قال جيم في نفسه، جاءتْ المتاعب.

كانت مفرزةُ الخدمات الخاصة تتألّفُ من الذين يديرون مسرح الموقع ومكتبته العامة، يعدّون المسرحيات ، وبرامج الإذاعة، ويحرِّرون صحيفة. إلى جانب هذه الأنماط المتقلّبة كانت هناك حفنة من الشبان هادئي الطباع كانوا مُدرَّبين للتمارين البدنية. ولكن بما أنَّ كل الجهود المبذولة في الانضباط الجماعي كان يُحبطها الكَتَبَة على الدوام، كان جيم يقضي وقتاً سهلاً بسبب ذلك. لم يكن أحد يتفقَّد الألعاب البدنية، وكان المدرّبون يحتفظون بصالة الألعاب لأنفسهم، وكان ذلك يناسبهم لأنهم جميعاً كانوا يكرِّسون أنفسهم لبناء أجسامهم.

على الرغم من أنَّ الحياة كانت مقبولة، إلا أنَّ جيم كان يتوقُ إلى إرساله عبر البحار؛ وعلى الرغم من أنه كان يعلم أنه في الجيوش الحديثة نادراً ما تحدث تحركات ما عدا في رتل القوات وطياريّ الهجوم، إلا أنَّ التفكير في الخطر أثار حماسته. أراد أن يتحرَّر. قليلٌ من أفراد الخدمة العامة كانوا يتوقون إلى الشيء نفسه. هم أيضاً كانوا يكرهون الروتين والخمول، لكنهم لم يُمثّلوا الغالبية. كل كاتب إداري كان لديه على الأقلّ صديق ضابط يتعهَّد بأنْ يحولُ دون إرساله خلفَ البحار أو، إذا ما حدثَ ذلك، أن يُرسَل إلى مكان آمن مثل إنكلترا. والكَتَبَة لم يكونوا من الأبطال وكانوا صادقين بهذا الشأن. وحده الرقيب كرفنسكي كان مختلفاً. كان يحلمُ بأن يرسلوه إلى جزيرةٍ ذات شواطئ بيضاء وخالية من

النساء لكي يسترخي. وحين طلَبَ جيم أن يوضع اسمه ضمن أول قائمة شحن عبر البحار، أخبره كرفنسكي عن هذه الجنة، وأضاف " أعرفُ ما تقصد، بشرفي أعرف، وسوف أضعكَ في اللائحة. قد نرحل معاً، على البحار الجنوبية. هيا بنا نتناولُ طعام العشاء "

وقفا في الصف معاً ليستلما الوجبة الثقيلة المعتادة. ثم جلسا على مائدةٍ خشبيةٍ جماعيّةٍ واحدة. كان هناك تقويمٌ عليه صورة امرأة ضخمة الصدر مُعلّقاً فوق رأس كرفنسكي. نظرَ إليها بامتعاض. ثم التفتَ إلى جيم وقامَ بحركةٍ استكشافيّة. " يا لها من امرأة! "

كرَّرَ جيم بفتور " يا لها من امرأة "

" اعتقدُ أنه ليس لديك وقت لتحصل على امرأة، زوجة ". قال كرفنسكي بإشراق " أقصد بما أنك تسافر كثيراً ". كان يعرفُ طَرَفاً من قصة جيم.

" كلا، ليس لديَّ أي وقت ". كان المدخل أكثر إثارة للانقباض بسبب افتقار الرقيب للجاذبية.

" حسن، يقولون لا شيء يضاهي أن يكونَ للمرءِ زوجة. لكنَّ هذا لا ينطبقُ عليّ. أولاً، لأنَّ من الأرخص بكثير شِراءُ الحليب على الاحتفاظ ببقرة! أليس كذلك؟ "

نَخَرَ جيم.

" كيفَ وجدتَ هوليوود ؟ ". نظرَ كرفنسكي إليه بلهفة.

" مثل أي مكانٍ آخر ". كان جيم قد عَرَضَ على بعض الكَتَبَة مجلة عن السينما تحتوي صورةً له. وقد كان تأثّرهم من القوة بحيث أنهم كرهوه بعد ذلك؛ كان قد تعلَّمَ درسَه، ولم يعد يأتي على ذكر ماضيه.

قال كرفنسكي، وقد احمرَّ وجهه، " لقد علمتُ أنكَ تعرَّفتَ إلى رونالد شو ونجوماً آخرين غيره. كيف وجدته؟ "

كان العالم السفلي كله يعرف بأمر شو. قال جيم متململاً " لم أعرفه معرفة جيدة. أنا فقط لعبتُ كرة المضرب معه بضع مرات "

" في الواقع، لقد سمعت الكثير من القصص الغريبة عنه لكني لا أفهم كيف يمكنُ أن تكون حقيقية "

كان جيم خبيثاً " أوه؟ أي نوع من القصص؟ "

صارَ لون وجه الرقيب قرمزياً. " أوه... مجرد قصص من النوع الذي تسمعه دائماً عن العاملين في هوليوود. ولا أعتقد أنها صحيحة "

" الناس دائماً يتكلّمون "

قال كرفنسكي، وهو يتفحَّصُ قطعة خضراء اللون من الكرنب الرطبة " بالمناسبة، علمتُ أنَّ التقديرات سوف تُفتَح في هذا الشهر "

" أحقاً؟ "

" لقد أوصيتُ بكَ القائد لكي تحصل على شريط نفَر من الدرجة الأولى ". وضعَ الرقيب قطعة الكرنب في فمه.

قال جيم، وهو يخشى الأسوأ. " شكراً جزيلاً "

أخذ كرفنسكي يمضغ وهو يتأمل. " يجب أن نتناول طعام العشاء ذات أمسية، في المدينة. أعرفُ مطعماً رائعاً بالقرب من برود مور ". ثم أضافَ مع ضحكة صغيرة " نحن معشر العزّاب يجب أن نتلازم.

قال جيم، آملاً في أنه حين سيقولُ كلا في نهاية المطاف لن يزعج كرفنسكي، " سيكونُ ذلك أمراً طيباً "

قال كرفنسكي " أعرفُ بعضَ الفتيات اللطيفات، وأنا متأكد من **أنهنَّ** سيعجبنك. ألم تتعرَّف بعد على أي فتيات في المدينة؟ "

هزَّ جيم رأسه نفياً.

" إنك حتماً لم تمنح فتيات كولورادو فرصة! أينَ تلك الشهامة الجنوبية؟ "

تظاهرَ جيم بأنه أبله جنوبي. " في الواقع أنا لا أخرج كثيراً "

" بيني وبينك، ولا أنا. الفتيات هنا لا يتَّصفنَ بجاذبية البنات في الوطن ". وغمزَ بعينه فأثار ذلك اشمئزاز جيم. وعلى الرغم من أنه كان من المستحيل على أي شخص في الجيش أن يكونَ صادقاً في مثل هذه الأمور، فقد كان هناك على الأقلّ أساليب أكثر صراحةً في الغواية.

في حالة هذا الرقيب، كان سيستغرقُ منه عدَّة أسابيع للوصول إلى لب الموضوع؛ لعلَّ ذلك أفضل. وَعَدَ جيم الرقيب بأنه سيتناول معه طعام العشاء قريباً؛ ثم استأذنَ، وعاد إلى الثكنة حيث وجدَ مجموعةً من الرجال جالسين على سريره. غالبية الكَتَبَة لم تكن من الشبان؛ كانوا يعقدون جلسة ذكرية. وعلى الرغم من أنَّ جيم قام بإيماءة ودّية، إلا أنَّ الرجال انتقلوا إلى أسرَّة أخرى. نزعَ جيم قميصة واستلقى. لم يرَ أي شيء. وتواصلتْ جلسة الذكور. وكما يحدثُ دائماً، كانت نبرة الحديث الغالبة هي الشكوى. كان واضحاً أنَّ كل واحد كان يخسر مبلغاً ضخماً من المال أثناء خدمته في الجيش؛ وطبعاً الضباط كلهم كانوا غير عادلين والنساء كلهنَّ خائنات. تمدَّدَ جيم على الملاءة البنيّة الخشنة وأخذَ ينظر إلى الروافد الخشبية القاتمة. كانت الثكنة دائماً مظلمة؛ لم يكن هناك ما يكفي من الضوء ومن الحرارة. استدارَ نحو مدفأة الفحم فرأى أنَّ هناك رجلاً جديداً في الثكنة، عرّيفاً شاباً، جالساً على السرير الأقرب إلى المدفأة، يصغي بأدب، ومن الواضح أنه يعي أنه إذا ما أرادَ رجلٌ أن

يكونَ مقبولاً في الثكنة، فعليه أن يُنصت إلى الكثير من الكلام حول مواضيع قليلة جداً، وعليه أن يقبلَ، كلما أُثيرَتْ نقطةُ ما، أنَّ من قبيل القانون الثابت أنها ستتكرَّرُ مئات المرات، غالباً بالكلمات نفسها، كأغنية تؤديها أصواتٌ مختلفة.

أحدْ أهمّ الرُقباء (سكرتير ضابط إداري) كان يحكي لهم عن القائد. " إنه حقاً أغرب شخص في القسم الثامن. منذ بضعة أيام جاءَ إلى المكتب وقال لي " أيها الرقيب، كم لدينا من الرجال في ويذرلي فيلد؟ " فقلت له " ولا واحد. لقد خسرناهم جميعاً لصالح الجناح المقاتل بالأمس ". لم يكن يعلم أنَّ إحدى قواعده كانت قد نُقلَتْ في اليوم السابق. وقد حاولَ أن يخرج من هذا المأزق بالقول إنه حَسبَ أنه اعتقدَ أنَّ النقلَ لم يتمّ بعد. لكنَّ ذلك يعطيكم فكرةً بسيطة عن كيفيّة عمل تفكيره، هذا إذا عَملَ. إنه دائماً يبتكرُ أفكاراً لقَصَاص رجاله، وكأنما لا يكفينا العمل الذي نقومُ به لإدارة الجناح نيابة عنه. ولا يعلمُ بأمر نقل ويذرلي! "

وافقَ الآخرون على أنَّ القائد كان شديد الصرامة ولا يتمتَّعُ بالذكاء. كما عبَّرَ رقيبٌ آخر، كان ماضيه يكتنفه الغموض بنجاح غير محدَّد، حين قال " أودُّ لو أراه يتولى عملاً في الحياة المدنية. أراهن على أنه لا يستطيعُ أن يكسب خمسة وثلاثين دولاراً في الأسبوع "

اتَّفَقَ الآخرون برصانة على أنه في عالمهم سيكونُ القائد أقلّ قيمة بكثير منهم، ولن يستطيع أن يكسب خمسة وثلاثين دولاراً في الأسبوع"

ثم انتقلت دفَّةُ الحديث إلى النساء.

البعض كان يحبّ النساء الممتلئات؛ والبعض الآخر كان يحب النساء ضئيلات الحجم؛ والبعض يحب الشقراوات، والبعض الآخر السمراوات،

وقليلٌ منهم كان يحب ذوات الشعر الأحمر. ولكن الجميع اتفقوا على حبهم للنساء. وحين كانوا يتكلمون كانت عيونهم تشعُّ بذكرى زوجاتهم، وعشيقاتهم وأحلامهم. وتسلّى جيم وأصابته الحيرة: أكان أولئك الكَتَبَة ناجحين حقاً مع زوجاتهم؟ لا أحد منهم كان وسيماً في الشكل. كانوا إما مفرطي البدانة أو النحافة، وتساءل كيف يمكنُ لأية امرأة أن تهتم بهم. ومع ذلك تحدثوا دون توقُّف عن فتوحاتهم، متفاخرين لكي يُثيروا إعجابَ رجالٍ آخرين تفاخروا بدورهم - يجب أن يكون البرهانُ على ما يقولون صحيحاً. ومع ذلك، كان تخيُّل الكَتَبَة عاشقين يشيعُ في النفس الانقباض.

ثم أتى أحدهم على ذكر الشاذين جنسياً. وعلى حد علم جيم لم يكن في الثكنة أي منهم، ما عدا ربما الجندي الذي بدأ الحديث. كان ضئيل الحجم ومدوَّراً، وذا صوتٍ منخفض مزعج. " في يومٍ قريب أتاني شاذ وأنا في المرحاض في دارٍ للسينما في البلدة وطَلَبَ مني أنْ أذهب معه. أنا! فعبَّرتُ له عن رأيي فيه. قلتُ له إذا لم يخرج من المكان بسرعة فسوف أحطِّم عنقه، هذا ما قلته له، ويا إلهي، لقد خرج من هناك على جناح السرعة! ". أومأ الآخرون برؤوسهم برصانة حين سمعوا هذه القصة، وحكى كلٌ منهم حكاية مُطابقة لها، على الرغم من أنه في بعض الأمثلة التي وردتْ قام الرجل الحانق بخرق الشاذ. حاولَ جيم ألاّ يضحك. كان دائماً الأشدّ قبحاً بين الرجال والأكثر إثارة للريبة بينهم هو الذي يتلقَّى العرض.

تأمَّلَ جيم العرّيف الفتى. كان أسودَ الشعر فاتح لون العينين وذا جسم ضئيلٍ ونحيلٍ بدا قوياً. شعَرَ جيم، وهو يراقبه بعينين نصف

مغمضتين، برغبة فيه. وللمرة الأولى منذ شهر رغِبَ في ممارسة الجنس. لقد اشتهى العريف الفتى. اغتصبه، في خياله، وضاجعه، وعَبَدَه؛ سوفَ يتآخيان ولن يفترقا.

قال الجندي الأصلع بصوته الرتيب " هذه البلدة مملوءة بأولئك الشاذين الملاعين. لا يمكنُ للمرء أن يكون حريصاً جداً ". ولكنْ لمّا كان حديث آخرَ قد بدأ، لم يسمع ما قاله إلا جيم. نظرَ الجندي إلى جيم ملتمساً الدعم. " أليسَ هذا صحيحاً؟ "

قال جيم، ولا يزالُ ينظرُ إلى العريف، الذي تثاءبَ ناعساً، " معك حق "

*

سرعانَ ما عَقَدَ جيم صداقةً مع العريف الذي كان اسمه " كن وودرو"، من كليفلند، في الحادية والعشرين، منخرطٌ في الجيش منذ سنة ونصف. كان خرّيج كلية السكرتاريا؛ طموحه أن يعملَ لحساب أحد الصناعيين الهامّين. والأفضل أن يكونَ في ميدويست، " حيث الناسُ حقيقيون ". أخبره كِنْ بكل شيء عن نفسه وأصغى جيم بانتباه، مبهوراً، عاجزاً عن التفكير في أي شيء ما عدا كيف يجرّ كِنْ إلى السرير. ولم يكن قد أثاره أحد منذ أن فعلَ بوب. ولكن مع بوب كان هناك إحساسٌ بالهويّة، وبأنهما توأمٌ يُكملُ أحدهما الآخر؛ مع كِنْ لم يكن يشعرُ إلا بالشهوة العارمة. يجب أن يناله.

كانا يتقابلان يومياً. ومع ذلك كان يبدو أنَّ كِنْ غير مدركٍ بجلاء لما يريده جيم. كانت الأسئلة الرئيسية على الدوام تُحرَّف بأجوبةٍ بريئة. كان الوضعُ مُحبِطاً بشكلٍ هائل. في تلك الأثناء، انتبه الرقيبُ كرفنسكي

إلى ما يجري بينهما على نحوٍ غامض وتوقَّعَ الأسوأ؛ كان غاضباً خاصة من جيم الذي ظلَّ يرفض أن يتناولَ طعامَ العشاء معه في البلدة.

أخيراً، لمَّا لم يعُد قادراً على الانتظار لحظةً أخرى، تحدَّثَ جيم مع كِنْ حول الذهاب معه إلى كولورادو سبرينغز. كانت ليلةً قارسة من شهر تشرين ثاني. انتقلا إلى هناك أثناء الليل، وقرَّرا أن يناما في فندق. لابد أن يحدث شيء.

كانت كولورادو سبرينغز مزدحمةً بالجنود. لم يأتوا فقط من القاعدة بل ومن مُخيَّمٍ مجاور لكتيبة مشاة، وملؤوا الشوارع والحانات، ودور السينما، ومكاتب المراهنات، ومرابع لعب كرة البولينغ، بحثاً عن ممارسة الجنس وقضاء وقتٍ ممتع.

تناولَ جيم وكن وجبةَ العشاء في مطعمٍ إيطالي. على المائدة المجاورة لهما جلسَتْ فتاتان جميلتان تأكلان وحدهما. همسَ كن، مبتهجاً " أترى كيف تحدِّقُ تلك الفتاة فيَّ؟ أتظن أنَّ عليك أن تطلب منهما أن تنضما إلينا؟ "

قال جيم وكأنَّ الفكرةَ تثيرُ ضجره " أوه، لا، لستُ أهلاً لذلك. لقد عملتُ بجد اليوم، وأنا مرهق "

" يا إلهي، أعتقدُ أنك لا تخرج مع الفتيات أبداً، أليس كذلك؟ ". قال كن هذا وكأنَّ الفكرةَ خطرَتْ له للتو.

كان جيم في انتظارِ طرحِ هذا السؤال منذ أسابيع عديدة. وكانت لديه كذبة حاضرة. " لدي فتاةٌ واحدة في هذه البلدة، وأنا أقابلها بانتظام، وحدي "

أومأ كن برأسه بحِكمة. " فهمت ما تقصد. احتفِظ بها لنفسك.

أعتقدُ أنه يجب أن تكونَ لك علاقة كهذه، لأنكَ موجود هنا منذ فترةٍ طويلة وليسَ من الطبيعي ألاَ تكونَ لكَ فتاةٌ حلوة في مكانٍ ما "، أوماً كن برأسه مراتٍ عدة. وباشرا بأكل السباغيتي. ثم قال كن " أظنُّ أنه ليس لديها أصدقاء، أليس كذلك؟ أنتَ تفهم النوع الذي أقصده "

" عمَّن تتكلم؟ "

" عن فتاتك التي في البلدة، هل لديها... يعني، أصدقاء؟ "

" أوه، لا. على الأقلّ لا أظنُّ ذلك. أعني أني لم أسألها. إنها لا تخرجُ كثيراً "

" وأين قابلتها؟ "

سخَطَ جيم بسبب احتياجه إلى التلفيق. " قابلتُها في اتحاد منظمات الخدمة، ولكن كما أخبرتكَ هي لا تخرج كثيراً "، ثم أضاف "إنها تعملُ لصالح شركة الهاتف "، مُجرِّباً شيئاً محتملاً.

" أوه ". سكتَ كن برهة، وأصابعه الطويلة تعبثُ بالشوكة. " لقد قابلتُ فتاةً في الأسبوع الفائت؛ لها صدر ضخم حقاً؛ ولديها شقة بالقُربِ من قمة جبل بايكس. لكني ثملتُ إلى درجةِ أني لم أتذكر متى انتهى الأمر، ولم تخبرني باسمها، لذا لا أعرفُ كيفَ أعثر عليها. يا إلهي، إنني مستعد أن أهبَ أي شيءٍ مقابلَ أن أرى تلك الحلوة من جديد. أمرٌ فظيع أن تكونَ في بلدةٍ مملوءة بالفتيات ولا تعرفُ أحداً فيها "

" أمرٌ صعب ". أدركَ جيم أنه لن يتوصَّل إلى أي نتيجة. فمع كل دليلٍ جديد، كانت استقامة كِنْ تترسَّخ أكثر فأكثر. كان جيم قد عَلِمَ، منذ البداية، أنَّ كِنْ مرتبطٌ بخطبةِ فتاةٍ من كليفلند، وأنهما حالما تنتهي الحرب سوف يتزوجان. ولكن على الرغم من ارتباطه بالخطبة كان كن

يستمتعُ بالحديث عن فتياتٍ أخريات وقد قال لجيم أكثر من مرة، بكل رصانة، إنه يتساءلُ إنْ لم يكن شَبِقاً لأنه لا يستطيعُ أن يكفَّ عن التفكير في النساء. ولما لم يكن هناك أي دليل على أنَّ كِنْ يميلُ إلى الرجال، كان أمل جيم الوحيد هو في أنْ يضعَ ثقته في ازدواجيّة شاب مُعجَبٍ به.

أخيراً قال كِنْ، وقد شَرَدَتْ عيناه من جديد باتجاه الفتاتين " أعتقدُ أنه من الأفضل أن نذهبَ إلى مكانٍ ما ونسكر، إذا كنت واثقاً من أنك لا ترغب في انتقاء إحداهنّ "

جالا بين الحانات. كان جيم حريصاً على ألاّ يسكر. كان يشرب كأساً مقابلَ كأسين يشربهما كن. وأينما توجَّها كان دائماً ينخرطُ في حديثٍ مع امرأة، ولكن لأنَّ جيم قال إنه مُتعَب لم يُحدِّد كن لنفسه موعداً؛ سوف يكونُ " صديقاً صدوقاً " ويسكر.

بُعَيدَ منتصف الليل كان كن قد أصبحَ شديدَ السُكر، وكلامه غير مفهوم، وعيناه زائغتين؛ وتشبَّثَ بالبار طلباً للدعم. لقد حانت اللحظة المناسبة. قال جيم " ربما يجدرُ بنا أن نمكثَ في البلدة هذه الليلة "

غمغمَ كن " طبعاً، طبعاً... فكرةٌ جيدة "

كان هواء الليل ينشطُ. ساعدَ جيم كن على السير دون تعثُّرٍ. وقصدا فندقاً يتردَّدُ عليه الجنودُ لقضاء الليل.

سألَ الموظفُ الجالس " سرير مزدوج أم سريرين مفردَين؟ "

" أيهما أرخص سعراً؟ ". كان يعرفُ الجوابَ.

" المزدوج ". سجَّلا اسميهما. كانت الغرفةُ تشبه غيرها من الغرف في فنادق رثّة مشابهة.

نظرَ كن إلى انعكاس صورته في المرآة، أحمر الوجه، يسربله العَرَقُ، والشعر الأسود متشابك فوق عينين مُحتقنتين بالدم. "يا إلهي، إنني سكران"

" وأنا كذلك ". راقبه جيم، متمنياً لو كان سكراناً بما يكفي ليفعلَ ما يريدُ فعله.

جلس كِنْ على السرير الكبير الذي كان غائصاً في منتصفه. " يا إلهي، أنا متأكد من أني أتمنى لو كان لدي موعد؛ أعني موعداً مع إحدى تينك الفتاتين اللتين شاهدناهما، وأن تأخذ أنت واحدة أيضاً. أما كان شيئاً رائعاً " أربعة في سرير. كان لديّ صديق ذات مرة يحبُّ أن يفعلَ ذلك. وقد حاولَ أن يدفعني على القيام به معه ومع فتاتين أخريين، لكني لم أقبل، أحبّ العلاقة الخاصة؛ أكره أن يُراقبني أحد وأنا أفعلُ، ما رأيك أنت؟ "

" حتماً أكرهه "

تمدَّدَ كن على السرير، بكامل ملابسه، وأغمضَ عينيه. هزَّه جيم. غمغمَ كلاماً غير مفهوم. تجرَّأ جيم ونزعَ عن كن حذاءه، ثم الجورب الرطب؛ لم يأتِ كن بأية حركة، ولكن حين بدأ يحلُّ له حزامه، فتحَ كن عينيه وابتسم؛ بدا أشبه بصبي كورس فاسد. قال " هذا ما أسمّيه خدمة"، وهو يلوي أصابعَ قدميه العارية.

" حسبتُ أنكَ غبتَ عن الوعي. هيا. انزع ملابسك "

تجرَّدَا معاً من ملابسهما ما عدا من سروالهما القصيرين ذوَي اللون الزيتوني المسمرّ. ثم ارتمى كن على السرير. قال بسعادة " لاشك في أنَّ المرءَ يستغرقُ في النوم حين يكونُ سكران "، وأغمضَ عينيه مرةً أخرى، وبدا أنه قد نام.

أطفأ جيم النور. كان الظلامُ دامساً. تسارعت ضربات قلبه. كان واعياً لدفء جسد كنْ القريب منه. حرَّكَ ببطء يده من تحت الغطاء إلى أن لمسَ فخذ كن؛ انتظرَ، وأصابعه تستقرُّ بخفّةٍ على اللحم المتماسك.

تحرَّكَ كن مبتعداً. قال بصوتٍ صاحٍ وصافٍ " كُفَّ عن هذا "

ضرب النبض بعنف في صدغ جيم، واندفعَ الدمُ على رأسه. تقلَّبَ على جنبه. في الصباح سوف يعاني من آثار السُكر.

-٣-

كان الشتاءُ بارداً وقارساً. سقطَ الثلجُ وانتهى لكنَّ الصحراءَ بقيَتْ قاحلة، وظلَّ الغبارُ يملأ الرياح دائماً وأبداً. كان جيم يشعرُ بالبرد أغلب الوقت. خلال النهار كان يمضي قدرَ ما يستطيعُ من وقتٍ تحت الشمس الحارة، بعيداً عن الريح. ولكن ليلاً كان دائماً يشعرُ بالبرد.

تصرَّفَ كلُّ من كن وجيم كما لو أنه لم يحدث أي أمر مشؤوم، غير أنه كان جلياً أنَّ كن شعرَ بالحرَج، وأنَّ جيم كان حانقاً. أخذَ يتجنَّب كلٌ منهما الآخر وهنا وجدَ جيم نفسه يكره الفتى الذي شحنَ ذات مرة أحلامه بشغف عارم. كانت فترةً موحشة. لم يكن لديه أصدقاء. حتى الرقيب كرفنسكي أثبتَ أنه متقلِّب، بنقلِهِ عواطفه إلى مدرِّبٍ آخر للتمارين البدنية، وصلَ حديثاً.

خلال فصل الشتاء القاسي، استسلمَ جيم إلى انغماسٍ في تحليل نفسه. كان يفكِّرُ باستمرار في نفسه وفي حياته وعمّا جعلَ منه ما هو عليه. وتفكَّرَ في حياته المبكِّرة.

كان جيم يكره والده؛ تذكَّرَ هذا بوضوح أكثر من أي شيءٍ آخر. أول

ذكرى حملها كانت عن كآبةٍ وعن عقابٍ جائر. من ناحية أخرى أحبَّ أمه، ومع ذلك استغربَ أنه لم يستطع أن يتذكَّر وجهها على الرغم من أنه استطاعَ أن يتذكَّر صوتها : رقيقاً، جنوبياً، مُتعَباً. وفي أبعد نقطة من الذاكرة تذكَّرَ زمناً آمناً رائعاً حين كانت تضمّه بين ذراعيها وتُقبّله وتلاطفه. لكنَّ هذا كله انتهى حين وُلِدَ أخوه، أو هذا ما اعتقده. بعد ذلك لم تعد أبداً تُعبِّرُ عن عواطفها.

ذكريات المدرسة كانت مُبهمة. كان في الرابعة عشرة انجذبَ بشدة إلى فتاةٍ ضخمة الصدر اسمها برودنس. كانا يتبادلان هدايا في عيد الحب ويضحك الأطفال الآخرون بصوتٍ مكبوت دلالةً على أنهما عاشقان. كانت تراوده أخيلةٌ جنسيةٌ موضوعها برودنس، لكنها اختفَتْ حين وصلَ إلى سن الخامسة عشرة وأصبحَ يهتمُّ بالرياضيين وببوب. ومنذ ذلك الحين لم يعُد هناك في العالم كله إلا بوب.

ثم كانت حياته وسطَ البحر. كان ما يزالُ يرتعشُ حين يتذكَّرُ الليلة التي أمضاها مع كولينز والفتاتين في سياتل. أصبحَ الآن يتعجَّب من قلّة معرفته بالأمور حينئذٍ. ولكن حتى الآن يتساءلُ ماذا كان يمكنُ أن يحدث لو أنه أكملَ تلك المغامرة. إنه ما يزال يؤمنُ بأنه لو أنه أقامَ علاقةً مع امرأة لأصبحَ سويّاً. لم يكن هناك أي أساس يُقيمُ عليه هذا الأمل، غير أنه صدَّقَه.

كانت ذكرياته عن شو سارة وكان يبتسم كلما فكَّرَ فيه، على الرغم من مأساة فراقهما. لقد تعلَّمَ الكثير من شو؛ ومن خلاله قابلَ أناساً مثيرين للاهتمام ربما مازالوا ذوي فائدة له. أيضاً، وجدَ نفسه يشفق على شو، كان ذلك دائماً يشكِّلُ إرضاءً للمشاعر، وأيضاً يحطُّ من قدر الموضوع بصورةٍ ممتعة.

سَليفان وماريا فرلين كانا ما يزالان شديدَيّ القُرب منه بحيث يُحلّلهما. لكنه كان يعي أنَّ كلاً منهما كان هاماً بالنسبة إليه. كان يميلُ بينهما إلى ماريا أكثر، على الرغم من أنه أصبحَ يدركُ الآن أنه لن يتمكَّن أبداً من مضاجعتها، حتى وإنْ كان السببُ أنهما تحدَّثا عن هذه النقطة كثيراً جداً. لقد حلَّتْ الكلمات محلّ الفعل. سَليفان، أيضاً، كان يعمدُ إلى الاختباء خلفَ ستارٍ من الكلمات، من المشاعر المُبالغ فيها ولكن غير المُحدَّدة.

أما بالنسبة إلى بوب، فقد تلاشى. لا أحد كان يعلمُ أين هو، وفقاً إلى السيدة ويلارد التي كانت تُكاتبُ جيم بشكلٍ غير منتظم، وتزوِّده بأخبار مرض والده، وزواج كاري، وقبول جون في جامعة الولاية. إلا أنَّ جيم كان متأكداً من أنَّ بوب سوف يظهرُ ذات يوم وسوف يواصلان ما كانا قد بدآه على ضفة النهر. وحتى ذلك الحين كانت حياته مُعلَّقة، وينتظر.

حين لم يعُد في إمكانه أنْ يتحمَّل برد الشتاء، توجّه جيم إلى كرفنسكي. كان جالساً على طاولةٍ مكتبه، مُحاطاً بالرقباء المُتكلّفين، شبان رقيقون يعرفون قصصاً كثيرة مزعجة تدورُ حول المشاهير.

ابتسم كرفنسكي بإشراق " حسن، جيم، بماذا أستطيع أن أخدمك؟ "

" كنتُ أتساءلُ، أيها الرقيب، إنْ كانت هناك أي فرصة لانتقالي إلى ما وراء البحار "

تنهَّدَ كرفنسكي. " في الحقيقة، لا يمكنُ معرفة متى يحينُ الوقت المناسب. حالُ الأمر، وفقاً للأوامر الجارية، أنكَ سترحل في شهر نيسان. ولكن مَنْ يدري؟ على أية حال، ليس في إمكاني أو إمكان أي شخص أن يفعلَ شيئاً بهذا الخصوص. الأمر بيد واشنطن "

" كنتُ أتساءلُ ما إذا كان في الإمكان تخصيصي إلى كتيبة قذف القنابل التي يشكّلونها هنا "

" ممكن. لكنك لن تنتقل إلى ما وراء البحار حتى حلول الربيع. على أي حال، لماذا تريد أن ترحل؟ "

" الجو هنا شديد البرودة. أكادُ أموتُ متجمّداً "

ضحك الرقيب. " أخشى أنه ليس أمامكَ إلا أنْ تتحمّل الحياة القاسية مثلنا جميعاً "، ثم أضاف " أنتم الفتيةُ الجنوبيون شديدو... الانفعال "، مما أشاعَ المرحَ بين الرقباء. وانتهى الأمرُ عند هذا الحد.

*

حلَّ عيد الميلاد ومعه جاءت عاصفةٌ ثلجيّةٌ عنيفة. وطوال يومين عَصَفَت الريح والثلوج حول القاعدة. كان من المستحيل أن ترى أبعَدَ من بضع أقدام في أي اتجاه. كان الرجالُ يتوهون عند انتقالهم من بناءٍ إلى آخر. كان النهارُ يشبه الليل. وحين توقَّفَت العاصفة العاتية، كانت القاعدة قد أضحتْ أرضاً قمريّة بيضاء من الكثبان الثلجية تتفوَّق على الأبنية في علوّها وفوهات تتلألأ تحت أشعة الشمس.

في نادي المجنَّدين نُصِبَتْ شجرةُ ميلاد وتحلَّقَ الرجالُ حولها ليشربوا البيرة وليتحدثوا بمرارة عن أعياد الميلاد في الماضي. سيطَرَ الملَلُ على جيم فأخذَ يتمشَّى بالقُربِ من آلة البيانو حيثُ كان عرِّيف يتبيَّنُ لحناً بعزفه بإصبعٍ واحد. ولم يدرك إلا بعد أن وصلَ إلى آلة البيانو أنَّ العريف إنما هو كِنْ.

قال جيم " مرحبا ". كان الموقف مُحرِجاً.

كان كِنْ فاتراً. " هاي، الجو ممل "

أومأ جيم موافقاً " وأنا لا أحبُّ البيرة "

" أتذكَّرُ هذا. أكنتَ مشغولاً؟ ". واصلَ كِنْ العزفَ بإصبعٍ واحد على البيانو.

" أحاولُ فقط أن أبقى دافئاً "

" حسبتُ أنكَ ذهبتَ ذات مرة إلى ألاسكا "

" لكني منذ ذلك الحين أمضيتُ ردحاً أطول مما ينبغي من الزمن في المناطق الاستوائيّة. إنني أكره الجو البارد "

" لِمَ لا تنتقل إلى لويزيانا؟ لدينا قاعدة جديدة هناك "

" كيف؟ "

كان كِنْ عندئذٍ يعزفُ ترنيمةَ القوات البحرية. " إذا أردتَ أستطيعُ أن أُدبِّرَ الأمرَ لك مع الرقيب الإداري. إنه صديق وفيٌّ لي "

" ليتكَ تفعل "

" سأطلبُ منه ذلك غداً "

" شكراً ". كان جيم ممتنّاً، وأيضاً مُرتاباً. لماذا يرغبُ كِنْ إلى هذه الدرجة في مساعدته؟ أيريدُ له أن يغادرَ كولورادو؟

في اليوم التالي قابلَ جيم، بمحض المصادفة، الرقيبَ كرفنسكي في مكتبة الموقع. كان الرقيبُ يقرأ في مجلةٍ للسينما.

احمرَّ وجه كرفنسكي. " مرحبا، جيم. في الواقع إننا ذاهبون إلى سبرينغز لنتناول العشاء هذه الليلة. لِمَ لا تنضم إلينا؟ " قُدِّمَتْ الدعوة بطريقةٍ كانت من شدَّة الوضوح بحيث يُفهَمُ من كلامه أنَّ آخر ما يريده كرفنسكي في العالم هو أنْ ينضمَّ جيم إليهم.

" لا، شكراً. ليس هذه الليلة. كِنْ شابٌ طيب "

" أعتقدُ هذا. أول مرة لاحظتُ وجوده كانت حين أخذتا تتلازمان منذ أن وصل. أتذكُر؟ إنه إنسانٌ مخلص "

فجأةً تملَّكَ الغضبُ جيم " نعم. نعم، إنه إنسان طيب ". ثم سكت، ليبحث عن وسيلة يجرحُ بها خليفته. وكان أفضل ما توصَّلَ إليه: "أعتقدُ أنَّ كِنْ سيتزوج قريباً "

كان كرفنسكي هادئاً. " أوه، لا أعتقدُ أنَّ هناك أي خطر " وشيك". إنه يُمضي وقتاً فائقَ الإمتاع. ثم من الأرخص بكثير شراءُ الحليب بدل الاحتفاظ ببقرة "

ألقى جيم على كرفنسكي نظرةً ملؤها الامتعاض، لكنَّ الرقيب لم يُبدِ أي دلالة على أنه لاحظَ كراهية جيم. " أنت تعلم أننا سنشحن عدداً كبيراً من الرجال إلى لويزيانا "

أخيراً فهِمَ جيم المغزى. " نعم، سيرى كِنْ إنْ كان في إمكاني أن أصبحَ واحداً منهم. أتعتقد أنَّ القائدَ بانكس سيوافق؟ "

" سيوافقُ دون شك. طبعاً نحنُ نكرهُ أن نخسركَ ". أصابت الحيرةُ جيم. لقد فشلَ مع كِنْ. أما كرفنسكي فقد حقّقَ نجاحاً. يبدو الأمرُ مستحيلاً، ومع ذلك من الواضح أنَّ أمراً ما قد حصل والاثنان الآن تواقان إلى شحنه بعيداً.

قال جيم " شكراً لك "، وغادرَ المكتبة، وهو يفكِّرُ في ارتكابِ جريمة قتل.

لكنَّ جيم لم يُنقَل إلى لويزيانا؛ ففي اليوم الأول من العام أُصيبَ بالقشعريرة، وذهبَ إلى المستشفى وخُصِّصَ له سرير، بدعوى إصابته بالمكوِّرات العقديّة في حنجرته. وبقيَ عدة أيام يهذي، تعذِّبه الذاكرة،

بكلمات معيَّنة وعبارات ظلَّتْ تتكرَّر إلى أنْ سبَّ بصوتٍ عالٍ وأخذ يتلوَّى في سريره. شاهدَ في الحلم بوب، بسيماءٍ مُهدِّدة، مشوَّهة بحِدَّة، تراجعَ حين حاولَ أن يلمسه. أحياناً كان يرى نهراً يجري حائلاً بينهما، وحين يحاولُ أن يقطعه سباحةً يرتطمُ بصخورٍ حادّة. وتضجُّ ضحكةُ بوب الساخرة مُجلجلةً في أذنيه.

ثم سمعَ صوت شو يتحدَّثُ عن الحب، مُكرِّراً الأشياء نفسها بالطريقة نفسها، حتى باتَ جيم يعرف كيف أنَّ كل جملة ستنتهي بكلمتها الأولى؛ ومع ذلك لم يكن هناك من سبيلٍ لإسكات صوته؛ كان، دون مبالغة، يُثيرُ الجنون.

ثم كانت هناك ذكريات عن أمه وهي تضمّه بين ذراعيها؛ وجهها لم يعُد شاحباً وتتخلَّله التجاعيد، بل فتياً، كما كانت عليه وهو طفل ويشعر بالأمان. ثم يقترب والده وينزلق هو من بين ذراعيها ويضربه والده، بينما النهر يهدر في أذنيه.

كان الألم في حنجرته حاداً، وكأنَّ حدّ سكين يسبرُ، مُشدِّداً على كوابيسه. وبقيَ في هذه الحالة مِنْ تلبّس الحلم مدةً خُيِّلَ إليه أنها سنون. ولكن في اليوم الثالث، بالترتيب الزمني، انكسرتْ الحمّى وانتهت الأحلام؛ وذات صباح استيقظَ، متعباً وواهنَ القِوى؛ كان الأسوأ قد انتهى.

كان جيم موجوداً في غرفةٍ صغيرةٍ في مستشفى القاعدة. شاهدَ عبر النافذة جبالاً يُجلّلها الثلج. كان مُدركاً أنه وحده في الغرفة وتساءلَ برهةً إنْ لم يكن الشخص الوحيد الباقي على وجه الأرض، ولكن بعد ذلك بثَّ فيه رنينُ الأصوات المكتوم الطمأنينةَ وولَجَتْ الممرضة الغرفة.

" أرى أننا قد تحسَّنا اليوم ". جسَّتْ نبضه ووضعتْ ميزان قياس الحرارة في فمه. " في الواقع، لقد كان المرضُ شديد الوطأة لفترة من الوقت ". كانت نبرةُ صوتها مُتَّهِمةً وهي تُخرِجُ ميزان الحرارة من فمه: "أخيراً أصبحَتْ طبيعية. لقد حشوناكَ بقدرٍ كافٍ من السُلفا "

"منذ متى وأنا موجودٌ هنا؟". كان صوته ضعيفاً؛ كان الكلام يؤلمه.

" هذا يومك الثالث، لا تتكلَّم. سوف يتفقَّدُكَ الطبيب قريباً "، ووضعتْ كأساً من الماء بجانب سريره وغادرتْ.

كان الطبيبُ مرحاً. تفحَّصَ حنجرة جيم وأومأ برأسه تعبيراً عن رِضاه. " جيد. جيد. سوف تخرج من هنا في غضون بضعة أسابيع "

من الواضح أنَّ جيم كان قد أشرَفَ على الموت. ولم يُدهَش لهذا. لقد مرَّتْ عليه فتراتٌ أثناء هذيانه كان يتمنَّى خلالها لو يموت. " على أية حال، انتهَتْ الأزمة. ولكن قد تمرّ أسابيع عِدَّة قبل أن تتمكَّن من العودة إلى ممارسة واجبك "

مرَّتْ الأيامُ سريعةً ورخيّة. كانت أشدّ فترات حياة جيم في الجيش راحة. قرأ المجلات واستمعَ إلى المذياع. وفي الوقت المُحدَّد نُقِلَ إلى جناحٍ مع عشرين مريض في طور النقاهة. كان راضياً تمام الرضا بحياته، إلى أنْ بدأ الألمُ، أولاً في ركبته اليسرى، ثم في كتفه الأيسر؛ وجعٌ متواصل: كسنٍ نخر. وبعد إجراء عددٍ من الفحوصات، جلسَ الطبيبُ على سرير جيم وتحدَّثَ إليه بصوتٍ منخفض بينما نزلاء الجناح الآخرون يحاولون أن ينصتوا إلى ما يُقال.

" هل أنتَ واثق تمام الثِقة من أنكَ لم تعانِ من قبل من مثل هذه الآلام؟ "

" كـلا، يا سـيـدي، أبداً ". سُئِلَ جـيم هذا السـؤال بالذات مـراتٍ كثيرة.

" حسنٌ، أخشى أنكَ مُصابٌ بما يُسمَّى التهاب المفاصِل الرئياني ". تنهَّدَ. " أُصبتَ به أثناء وجودكَ في الجيش "

كان الفتى المسؤول عن الجناح قد أعطى جيم للتو التشخيص نفسه وهكذا استعدَّ لسماع الحكم النهائي بشأنه. ومع ذلك نجحَ في أن يبدو مذعوراً. " أهو مرضٌ خطير، يا سيدي؟ "

" كـلا، ليس في هذه المرحلة. سيكونُ مؤلماً، طبعاً. وهذا لا يعني أننا نعرفُ الكثير عن هذا الالتهاب، على الرغم من أني أرغبُ في المراهنة على أنَّ لالتهاب حنجرتكَ صلَة بالأمر. وحتى ذلك الحين، سوف نرسلكَ إلى مناخٍ جاف ودافئ. لن يفيد صحتك، طبعاً، لكنه سيفيد حالتك النفسية. بعد ذلك ربما سيسرّحونكَ مع معاشٍ تقاعديّ، ذلك أنَّ ترسُّبات الكالسيوم تظهر بالأشعة السينية، وهذا كله حدثَ أثناء خدمتك لبلدك في زمن الحرب، وأمامكَ عملٌ رائع تقوم به من الآن وحتى تخرج.

" إلى أين سترسلونني، يا سيدي؟ "

" إلى صحراء كاليفورنيا، وربما إلى أركانساس، أريزونا. سوف نُعلِمُكَ ". نهضَ الطبيب ببطء واقفاً. " أنا مُصابٌ بمثل مرضك ". قهقه. " ربما يسرحونني، أيضاً ". غادر. وتساءلَ جيم إن كان في العالم كله شخص واحد أحبه أكثر مما أحبّ هذا الطبيب بالذات.

سأله الجندي الأسود في السرير المجاور لسريره " هل سيرسلونك؟ "

أومأ جيم برأسه إيجاباً، مُخفياً سعادته العظمى.

" أنت محظوظ، يا رجل. كم كنتُ أودُّ لو يخرجونني من هنا، إلى أي مكان "

" الأمر صعب "

ثم حدّثه الأسود عن التعصُّب والتمييز العنصري. كان واثقاً من أنه حتى لو احتضَرَ فلن يولِه الضباطُ البيض أي اهتمامٍ معقول. وعلى سبيل المثال، حكى له حكاية طويلة وعريضة عن جندي أسود ذهبَ إلى طبيبِ الجيش عدداً من المرات لمعالجة ألمٍ في ظهره فيقولُ له الطبيب أنَّ ليس به أي مرض. وذات يوم، حين كان الجندي جالساً في غرفة الانتظار ودخلَتْ الممرضة لتُخبِر الطبيب بأنه موجودٌ هناك، سمعَ الطبيبُ بوضوحٍ وهو يقول " حسنٌ، أدخلي الزنجي ". إنَّ الأطباء البيض متعصِّبون عنصرياً. الجميع يعرفُ ذلك. ولكن ذات يوم...

بينما كان الأسود يتكلَّم عن بؤس عِرقِه، لم يكن جيم يفكِّر إلا في سعادته الخاصة. كان قد تخلّى منذ زمنٍ بعيد عن كل تفكير في الرحيل إلى ما وراء البحار. ومن الحكايات التي سمعها عرفَ أنَّ تلك الأماكن ليستْ أكثر إثارةً من الخدمة في الولايات المتحدة. أصبحَ الآن توّاقاً إلى ترك الجيش. في تلك الأثناء جَعَلَه التفكيرُ في تسريحه الوشيك يريدُ أن يصلَ ما انقطع من علاقاته مع أشخاصٍ مُهمّين بالنسبة إليه. استعارَ ورَقاً للكتابة من الجندي الأسود وبدأ، ببطء، ومثابرةٍ، بخط يده المرتبك، الصبياني، يكتبُ رسائلَ، ليستخدمها كشِباكٍ يتصيَّدُ بها من جديد ماضيه.

الفصل الثامن

كان رونالد شو مُتعباً؛ ويعاني من ألمٍ مزعجٍ في معي الإثنا عشري كان مقتنعاً بأنه بسبب القرحة، إذا لم يكن سرطاناً. وقد توفي أمام عينيه، وأُضيئت الشموعُ بصورةٍ جميلة وتمَّ تصويره، مع موسيقى لبرامز تُصاحِبُ المشهد. ثم يتلاشى ببطء الموكبُ الجنائزي أثناء تحرُّكه عبر بيفرلي هيلز مصحوباً بفتياتٍ باكيات، يحملنَ دفاتر التواقيع.

انعَطَفَ شو، والدموع تخضِّلُ عينيه، إلى واحةِ بل-اير النَضِرة. كان نهاره سيئاً في الاستديو. إنه يبغضُ المخرج الجديد ويكره الدور الذي يلعبه. وللمرة الأولى كان يدعمُ نجمةً سينمائية. أصبحَ الآن يتمنَّى لو أنه رفَضَ الدور، أو على الأقلّ جعلَهم يُعيدون كتابته، أو تقاعد من العمل من السينما قبل أن يموت من فرط العمل ومن السرطان. إنَّ أشعة الشمس المشرقة البهيجة تزيد الأمور سوءاً؛ ورأسه يؤلمه؛ ربما سيُصابُ بضربة شمس.

لكنَّ داخل المنزل كان بارداً وأطلَقَ تنهّدَ ارتياحٍ واهنٍ حين سَنَدَ الساقي البابَ من أجله.

" أكانَ يوماً سيئاً، يا سيدي؟ ". كان الساقي متعاطفاً.

" بل فظيعاً ". التقَطَ شو بريده وخرجَ إلى بركةِ السباحة حيث كان

جورج يأخذُ حمّامَ شمس. وجورج هو جنديٌ من ويسكنسن ذو شعرٍ شديد الشُقرة حتى البياض. كان يُساكنُ شو منذ أسبوع. وبعد أسبوع آخر سوفَ يعود إلى البحر. وماذا بعد ذلك؟ هكذا تساءلَ شو بمرارة.

" مرحبا، روني ". انتصَبَ الفتى متَّكئاً على أحد مرفقَيه. " كيف حال منجم الملح؟ "

" عَفِن ". جلسَ شو بجانب البركة. " المُخرج تنقصه الموهبة؛ يهودي، محترف، قذر ". كان شو قد بدأ مؤخراً يُدلي بملاحظات مُعادية للسامية، كانت تُسلّي مَنْ يعرفونه ولا تزعجهم.

" أعتقدُ أنَّ بعضهم قذرٌ تماماً ". كان جورج شاباً سعيداً يُصدِّقُ كل ما يُقالُ له. أخذَ شو يُشعِّثُ الشعر الأشقرَ بتكاسُل. كانا قد تقابلا في حانة في هوليوود. وكان شو قد بدأ يتردَّدُ على الحانات، ويُمضي وقتاً خطراً، لكنه كان ضجِراً وقَلقاً، ويُراقبُ بشكلٍ مَرَضي مرورَ الوقت، وحقيقةَ كونِ شعره أبيضَ تحتَ الصباغ وأنَّ معدته فاسدة، وحياته تشرفُ على نهايتها مع أنه لم يكن قد بلغَ سنَّ الأربعين. لماذا؟ لقد وَقَعَتْ له أحداثٌ كثيرةٌ، كما قرَّرَ؛ لقد أحرقته مسيرته المهنيّة وطبعاً كان تعيساً في الحب، تعرَّضَ للخديعة والخيانة.

تمدَّدَ جورج مرة أخرى بجانب البركة بينما باشرَ شو قراءة بريده. فتحَ رسالة جيم إليه. خطُ اليد غير مألوف لديه، وللوهلة الأولى ظنَّ أنها رسالةٌ من مُعجَب. ثم رأى أنها موقَّعَة بأسلوبٍ رسميٍّ جداً، " جيم ويلارد ". سُرَّ شو، وشَعَرَ بالإطراء، وبالريبة : إذا كان جيم يريد نقوداً، فلن يحصل عليها. سيكونُ ذلك انتقامَ شو بالإضافة إلى كونه درساً لجيم، الذي تخلَّى عن إنسانٍ حقيقيٍّ أصيل من أجل كاتبٍ أنانيٍّ. أَصيبَ شو بشيءٍ من الخيبة حين اكتشَفَ أنَّ الرسالةَ تُعبِّرُ عن الودّ ولا أكثر.

كتبَ جيم يقولُ إنه موجودٌ في مستشفى الجيش لكنّه لم يعُد مريضاً، ويتوقّع أن يتمّ تسريحه قريباً ويودُّ أن يجتمعَ بشو من جديد. كان شيئاً مُحيّراً وملائماً. فجيم كان دائماً صريحاً. وانتابَ شو ألمُ ذكرى جنسية مفاجئ. ثم وَجَدَ أنّ جورج يُراقبه. سأله جورج " ماذا لديك؟ رسالةٌ من مُعجَب؟ "

رسمَ شو ابتسامةً حالمة. " كلا، إنها من فتى كنتُ أعرفه اسمه جيم ويلارد. عرضتُ عليكَ صورته ذات مرة "

" ماذا حدثَ له؟ "

" التحقَ بالجيش "، ثم كذبَ شو بنبرةٍ طبيعية " إنه يكتبُ كثيراً. أعتقدُ أنه ما يزال يعشقني، على الأقلّ هذا ما يقوله هو. لكني لم أعُد أكنُّ له أية مشاعر. أمرٌ غريب، أليس كذلك؟ "

أومأ جورج برأسِه إيجاباً، متأثّراً بكلامه. ثم أرسله شو إلى السُرادق لإحضار مشروب. ومع أشعة شمس أوّل المساء تسطعُ على وجه شو والنسيمُ الرقيقُ المُضمَّخُ بعبير الزهور يُبرِّده، تحوّلتْ تعاسته إلى انفصالٍ لم يكن أبداً مزعجاً. لقد كان وحيداً تماماً في العالم. هذه المعرفة أشاعَتْ فيه الفَرَح. طبعاً كانت هناك أمه في بولتيمور وبضعةٌ من الأصدقاء في الاستديو، بالإضافة إلى الملايين الذين يعرفون أخباره ويُشرِّفهم دون أدنى شك أن يكونوا أصدقاء له؛ ومع ذلك وعلى الرغم من أنه غزا العالمَ كلّه، إلا أنه كان ما يزالُ وحده بكل معنى الكلمة وكان يُذهله إدراكه أنّ هناكَ شيئاً رائعاً في كونِه سجينَ الشهرة، وسمحَ لنظرةٍ متأمّلة أن تُطلَّ من عينيه. قال في نفسه، وهو يتفكّرُ في عجز الآخرين عن تبادل عاطفةِ الحبّ التي يمنحها. لا أحدَ كان يُعادله في شدّة عاطفته.

جلسَ، شخصية مأساوية، والشمسُ الغربيةُ تسطعُ على عينيه، في حالةٍ من الرضا التام.

اقترَبَ جورج حاملاً كأسَين. " هاكَ نصيبَكَ "، وأعطى شو كأسَ مشروبه.

شَكَرَه برقَّةٍ ضافية.

" أنتَ على ما يرام، روني؟ "

" أوه، نعم، شكراً لك ". كان المشروبُ بارداً. فجأةً أغارتْ على معدته نوبةُ ألم. أصابه الرعبُ برهة من الزمن. ولكن بعد ذلك تجشَّأ وتلاشى الألمُ : إنها مجرَّد غازات.

*

كان السيدُ ويلارد يحتضرُ وودَّتْ السيدة ويلارد لو انه يموتُ سريعاً. كان جليّاً أنَّ سنوات من المزاج الحادّ قد دمَّرَتْ كَبِدَه وأضعَفَتْ قلبه. وقد نَجَحَ الأطباءُ في إبعادِ الألمِ عنه بإعطائه جرعات كبيرةٍ من المورفين.

كشَّرَتْ السيدة ويلارد لدى ولوجها غرفةَ المريض؛ كان عَبَقُ الأدويةِ والاحتضار هو المُهيمن. كان السيد ويلارد متمدِّداً على ظهره، وأنفاسه تخرجُ عالية الصوت. كان وجهه أصفرَ ومتراخياً والفمُ الذي كان يُصدرُ الأوامر أصبحَ متدلياً بارتخاء. كانت عيناه أشبه بزجاجٍ رماديّ اللون من تأثير المورفين.

" أهذا أنت، يا بس؟ ". كان صوتُه أجشاً.

" نعم، يا عزيزي. كيف تشعر؟ "، وعدَّلَتْ من وضعِ الوسادة.

" أفضل. قال الطبيبُ إنَّ حالي أفضل ". في الليلة السابقة كان

الطبيبُ قد أخبرَ السيدة ويلارد بأنَّ زوجها لن يعيشَ حتى يُكمِل أسبوعاً آخر.

" أعلمُ، لقد قال لي الشيءَ نفسه "

" سوفَ أنهضُ قريباً وأتجوَّل ". كان السيد ويلارد يرفضُ أن يعترفَ لنفسه بأنه سيموت. وسألَ زوجته عن دار المحكمة.

" إنهم يقومون بعملهم على أحسن ما يرام، يا عزيزي. السيد بركينز يقومُ بعملك إلى أن تصبحَ جاهزاً للعودةِ إلى العمل "

قالَ السيد ويلارد " إنَّ بركينز حمار "

" أنا واثقة من أنه يبذلُ قُصارى جهده. على أية حال، إنه فقط يسدُّ مكانك "

زمجَرَ السيد ويلارد وأغمضَ عينيه. نَظَرَتْ زوجته بهدوءٍ إلى الوجه الأصفر الغائر، وتساءلتْ أين يضعُ بوليصة التأمين؛ لم تعثُر عليها في أي مكانٍ من المنزل، ولكن الوصيّة طبعاً ستكشفَ عنها، والوصيّة موجودة في مكتب المحامي. عينا السيد ويلارد مغمضتان، وبدا نائماً. غادرَتْ الغرفة.

على أرض الصالة انتثَرَتْ عدة رسائل. عندما انحنَتْ لكي تلتقطها، أنَّتْ. إنها كلما تقدَّمَتْ في السن تزيدُ كراهيتها للانحناء. لكنها نسيَتْ آلامها : إنَّ إحدى الرسائل هي من جيم.

قرأتها ببطء. إنه في المستشفى وهذا أفزعها، لكنه طمأنها بأنه الآن على ما يرام وقريباً سيترك الجيش. ووعدَ بالمجيء إلى المنزل وزيارتها حالما يُطلَق سراحه. تسارَعَ وجيب قلبها وهي تقرأ هذا.

فكَّرَتْ في ابنها البكر، وتساءلتْ عن شعورها اتجاهه بعد ذلك الفِراق الطويل الأمد، الذي بقيَ مُعظمه دون أي اتّصال من أي نوع.

لم تكن تريد منه أن يُغادرَ المنزل. وبَكَتْ ليلةَ غادَرَ على الرغم من إدراكها أنه ما كانَ يمكنُ أن يعيشَ في منزل واحد مع والده. وبأسلوبها الهادئ كرِهَتْ السيدة ويلارد زوجها منذ اليوم الأول لزواجهما. وأثناء المشاحنات العائلية كانت تتعاطفُ مع جيم وتتوقُ إلى إخباره بأنها تشعرُ بشعوره ولكن على كليهما أن يتحمَّلا تلك الأشياء التي لا يمكنُ تغييرها. ولسوء الحظ، لم تصارحه أبداً، ولأنها لم تفعل ذلك، غادرَ جيم المنزل. والآن، طبعاً، فاتَ الأوان. لن ينتمي جيم إليها بعد الآن. ورغِبَتْ في البكاء لكنها لم تستطع.

جلَسَتْ السيدة ويلارد منتصبة القامة، والرسالة في يدها، تتساءل عمَّا حدثَ لحياتها. قريباً ستغدو وحيدةً، دون حتى زوجٍ لكي تكرهه في السنوات الأخيرة من حياتها. إلى أينَ ذهبَ كل الزمن وكل الوعود؟ ورَثَتْ نفسها، ولكن فقط برهة من الزمن. على أية حال، إنَّ كاري وزوجها يقطنان على مقربة منها وكذا سيفعلُ جون حالما يصبحُ محامياً.

غَمَرَها التفكيرُ في عودةِ جيم بالفرح. تساءلَتْ كيفَ أصبحَ شكله الآن بعد أن أصبحَ رجلاً. لم تكن لديها أية فكرة عن ذلك ما عدا الصورة الموجودة في مجلة السينما التي أرتها لكلّ إنسان، وهي تُلفِّق انطباعاً لم تُصحِّحه تماماً عن أنَّ جيم هو نجمٌ سينمائي.

كانت السيدة ويلارد تحلمُ أحلامَ يقظة ممتعة حولَ المستقبل، ترى فيها عدَّة فتياتٍ جميلات جديرة كل منهنّ أن تكونَ لجيم زوجة يسعدها أنْ تتقاسمه مع أمه. أما بالنسبة إلى العمل، فيمكن لجيم أن يتولّى منصب مُدرِّب تمارين رياضيّة في مدرسة ثانوية. كانت تعرفُ عدداً كافياً من رجال السياسةِ لتنفيذ هذه الأفكار على أرض الواقع. نعم، يمكنُ

للمستقبل أن يكون زاهياً، هكذا قرَّرَتْ، وهي تُخبِّئ الرسالة وتعود إلى غرفة المريض لتجدَ أنَّ عينيَّ زوجها مفتوحة. كان يُحدِّقُ إلى السقف.

" وصَلَتني رسالة من جيم "

" ماذا يقولُ فيها ؟ "

" لقد دخلَ المستشفى - الأمر ليس خطيراً - ويعتقد بأنه سيُسرَّح من الجيش قريباً. بعد ذلك سيعود إلى المنزل "

قالَ السيد ويلارد باقتضاب متجهِّم " ولعله مفلس "؛ كانت قَسَمات وجهه من فرط الوَهَن بحيث يبقى متجهِّماً فترة طويلة. "أتساءل ماذا سيعمل بعد أن يُسرَّح؟ لا يمكنه أن يظلّ يمارس الألعاب إلى الأبد "

" أعتقدُ أنه ربما يستطيعُ أن يحصل على عملٍ في المدرسة الثانوية. أنا... نحنُ نستطيعُ أن ندبِّرُ له شيئاً ما، ألا تعتقد ذلك؟ أنا واثقة من أنَّ القاضي كلايبول يسعده أن يتدبَّر هذا الأمر "

عَبَثَت يدا السيد ويلارد الشديدتا النحول بالغطاء الأبيض. " كم يبلغُ عمر الولد الآن؟ "

فكَّرَت السيدة ويلارد برهةً. " سيبلغُ الثامنة والعشرين في نيسان القادم "

" لقد كبِرَ ". كان السيد ويلارد مُكتئباً.

قالتْ السيدة ويلارد بسعادة " نعم، لقد كبر ". سوف يعتني بها.

" لا أدري ما الذي يدعوه إلى التجوُّل في كل مكان "

" لكنَّ التجربة تفيده وعلى أية حال أنتَ تعلم ماذا يقولون عن الشوفان البرّي "

أغمضَ السيد ويلارد عينيه. الحديث يتعبه. ذهبَتْ السيدة ويلارد إلى المطبخ، حيثُ وجدت كاري. " كيف حاله، يا أماه؟ "

" إنه يقتربُ من النهاية. بضعة أيامٍ في الغالب. شكراً لله لأنه لا يتألَّم "

" هذا شيء يستحقُّ الامتنان ". كانت كاري، من بينهم جميعاً، الوحيدة التي شَعَرَتْ بالأسف الحقيقي لاقتراب موت والدها. كان كلٌ منهما كلفاً بالآخر. لكنَّ حزنها كانت تُخفِّفُ من وطأته إلى حدٍ ما فكرةُ الحَبَل. كانت كاري حينئذٍ، بميلها إلى الامتلاء، قد أضحَتْ مُدوَّرةَ الشكل وراضية، وتبدو بالضبط كما هي فعلاً، ربَّة منزل مرتاحة ومولعة بزوجها. أعطَتْ السيدة ويلارد كاري رسالةَ جيم.

ابتهجَت كاري. " آمل حقاً أن يعودَ ويعيشَ هنا! "

" وأنا كذلك "

" تُرى كيف صار شكله الآن "

" سوفَ نعرِف حين نراه. والآن أرى أنَّ من الأفضل أن تذهبي وتتفقَّدي الوالد "

غادرَت كاري المطبخ وبدأتْ السيدة ويلارد تُحضِّر مَرَقاً لزوجها. سوف ترتاح كثيراً بعد أن يموت. وتساءلت بتكاسُل إنْ لم يكن ربما تَرَك بوليصة التأمين مع صديقه القاضي كلايبول. ولكن الوصية ستخبرهم طبعاً عن كل شيء.

*

كانت مدينة لندن مُصقِعة ورطبة وكان سَليفان مُكتئباً وهو يسيرُ قاطعاً ساحة سينت جيمس في طريقه إلى الفندق الذي ينزل فيه في شارع مونت.

كان يتناول طعام العشاء مع هـ. جـ ويلز، الذي كان مُعجباً به

كشخصية بارزة إذا لم يكن ككاتب. وقد سارت الأمسية سيراً حسَناً؛ وكان السيد ويلز في أحسن حالاته. غير أنَّ سَليفان شعَرَ بسخط غامض من حقيقةٍ بسيطةٍ جداً هي أنَّ الرجلَ العظيمَ ليسَ فقط لم يقرأ أياً من كتب سَليفان، بل إنه حتى لم يسمع باسمه. طبعاً إنَّ ويلز رجلٌ عجوز ولكنْ مع ذلك كان شيئاً مزعجاً وتذكَّر سَليفان مرةً أخرى فَشَلَه كأديب.

كان الليلُ حالكَ الظُلمة وجَعَلَه التعتيم أشد حلكة. وهبَّتْ رياحٌ باردةٌ تمخُرُ الشوارع. أحكَمَ تثبيت أزرار معطفه المَطَري عند العنق، وهو يرتجف. حين يعودُ إلى حانة الفندق سوف يتناولُ مشروباً قوياً، حتى وإنْ كان هذا سيُضطرّه إلى أن يلتقي مصادفةً بأميليا، الموجودة حالياً في لندن. كانت زوجته السابقة، العدائيّة، الصخَّابة، التوَّاقة إلى الصفح عمّا سَلَف، مرِحةً بشكلٍ لا يُطاق.

وطبعاً سوفَ يجدها متمركزةً على البار، نحيلةً ومُهمَلة في مظهرها، يُحيطُ بها المراسلون (كانت تغطي أخبارَ الحرب بنفسها لصالح مجلةٍ تابعةٍ للجناح اليساري)

" بول يا عزيزي، تعالَ إلى هنا! ". ففعل.

حيّا المراسلون الآخرون سَليفان باحترام. على الأقلّ هم يعلمون لأنه مؤلّف. كانوا يُعجَبون بالروائيين، على الرغم من أنهم لم يكونوا يأخذون كتاباته الصحفية بعين الجدّ، ولم يكن يلومهم على ذلك.

صافحَ سَليفان الجميع. كان يعرفُ معظمهم من شهرته. الذين ليسوا ستالينيين بينهم كانوا تروتسكيين سراً. سَليفان كان غير مُسيَّس، أما أميليا فكانت متورّطة حتى رأسها. كانت تتكلم بسرعة، لتثبت أنها قائدة المجموعة. " إنَّ بول شخصٌ عزيز. حقاً، طالما رأيتُ أنَّ على المرأة

أن تكونَ لطيفة مع زوجها السابق، ألا توافقون؟ " السؤال طُرِحَ على الجميع ولم يُجبْ منهم أحد. " أعتقدُ أننا إذا أردنا أن نكون حقاً متحضّرين فعلينا ألا ننطوي على أي إحساسٍ بالمرارة حين نفشلُ في زواجنا أو في أي شيءٍ آخر، اللهم إلا في السياسة ". كانت ثملة قليلاً. " هل يبدو هذا الكلام شبيهاً بما قاله ذلك الساخر العجوز المُحبَّب لاروشفور؟ إنَّ كل شيء آخر يبدو كذلك! "، وضحكتْ بمرحٍ، ثم التفتتْ إلى سَليفان. " أين كنتَ هذا المساء؟ "

" كنتُ أتناولُ طعامَ العشاء مع هـ. جـ ويلز "، وكسَبَ سَليفان الجولة. وعلى الفور أخذَ الجميع يُمطرونه بأسئلة عن ويلز ولبرهةٍ من الزمن لم تعُد أميليا هي مركز الجلسة؛ حتى حين طَلَبَتْ مشروباً بصوتٍ عالٍ لزوجها السابق، ظلَّ هو الممسك بالزمام. " لقد كان ظريفاً جداً. ودارَ حديثنا في الغالب حول الكتابة. كان قد قرأ أحد كُتُبي، مما أخجلَ تواضعي. وهذا لا يعني أنه أعجبَه، ولكن مع ذلك... "

دَفَعَتْ أميليا كأسَ الويسكي إليه وقالت " هاكَ مشروبكَ، بول ". تناولَ جرعةً منه فملأتْ أميليا برهةَ الصمت تلك. قالتْ للمجتمعين حول الطاولة عموماً " أعتقدُ أنه ستمرُّ سنونَ عديدة قبل أن تتشكَّلُ في إنكلترا حكومةٌ عُمَّاليّة. إنَّ تحالف تشرشل-كلايفدن مُحصَّن جيداً، وبيني وبينكم لن أُدهَش أبداً إذا ما أوجدوا ما يشبه الدكتاتوريّة لا يمكنُ الإطاحة بها " أبداً " إلا بثورة، وأنتم تعلمون مدى بطء هؤلاء الإنكليز في ثورتهم ضد أي شيء؛ إنها أمةٌ من المازوشيين "

دُهِشَ بول حين وجَدَ أنَّ الناسَ يأخذون أميليا على محمل الجدّ. ولكن لا يمكنُ أن ينتقدها : لقد تزوجها. ولكن حين تقابلا للمرة الأولى

كانت مختلفةً؛ كانت فتاةً هادئةً، عميقة التفكير، وقد تدلَّهَتْ في حبه إلى أنْ اتَّضَحَ أنَّ العلاقةَ الجسديّة بينهما مستحيلة. ثم، ومن باب الدفاع عن النفس، ازدادت ذكورةً وعدائيّةً. وقرَّرَ هو أنَّ اللومَ كله يقعُ عليه، أو على الأقلّ على طبيعته، وكانت النتيجة هذه المرأة الصَخَّابة. ألم يكن هناك أي جانبٍ حَسَن؟

أنهى سَليفان شربَ كأسه ونهضَ واقفاً. " بعد إذنك، أميليا، يجب أن أقطع الزجاج ". على الرغم من أنه قال هذا بلهجةٍ لطيفة، إلا أنه سُرَّ لأنه كان ما يزال قادراً على إيذائها. سكتت في منتصف الجملة : رفعَتْ الإبرة عن الأسطوانة. ألقى تحيةَ المساء على المُراسلين وتركَ البار. لدى ولوجه البهو استطاعَ أن يسمع أميليا تبدأ من جديد.

أحضرَ بريده واستقلَّ المصعَدَ إلى غرفته، متمنّياً ألاّ يحدث إنذارٌ لغارة جوية يقطعُ عليه نومه. كان قلقاً. ولم يُلاحظ رسالةَ جيم على الطاولة المجاورة للسرير إلا بعد أن أوى إلى السرير. قرأ الرسالةَ مرّتين وشعرَ معاً بالخيبة وبالسرور. سوفَ يُسرُّ جيم من الجيش ويودُّ أن يراه من جديد. ولا أكثر. لا ذكرَ لماريا. هل هذا يعني أنَّ علاقتهما العاطفية ستتواصلُ، هذا إذا صحَّتْ تسميتها علاقة؟ أثناء فترة تواجد سَليفان في إنكلترا كان كثيراً ما يُفكِّرُ في جيم، ويحلمُ به، ويرغبُ فيه. أيمكنهما أن يستعيدا ذلك؟ هذا هو السؤال.

لم يستغرق سَليفان في النوم قبل طلوع الصباح. خلال الليل الطويل كان يفكِّرُ غالباً في الكتب التي ألَّفها، وغَمَرَه الاكتئاب. إنه لم ينجح في إنجازِ أي شيء. ليس لديه حبيب، ولا عائلة، و هـ. جـ ويلز لم يسمع باسمه قط. ثم غَلَبَه النعاس، واستراح. على أي حال، إنه شابٌ ولا يزالُ

لديه الوقتُ ليؤلِّفَ تحفةً أدبية، وأيضاً ليفتنَ جيم من جديد. حتى ذلك الحين، وفي الصباح الباكر، سوف يُرسِل للسيد ويلز إحدى رواياته، موقَّعَةً باسمه.

*

رسالةُ جيم سبَّبَتْ الحزنَ لماريا فرلين وبعض الحَرَج. كانت حمقاء إذ عشقَتْ طفلاً عاجزاً عن الاستجابة. وقد استحقَّتْ أن تتألَّم، وهذا ما فعلتـه، لفترة من الوقت. الآن لم تعُد تريد رجالاً طبيعيين وارتباطات غير معقَّدة.

في نيويورك، وعلى الرغم من صعوبات زمن الحرب، غالباً ما كانت تتناولُ طعامَ العشاء خارجَ المنزل، وتقابلُ أشخاصاً غرباء، وتمارس الجنس. كانت في حالةِ تحرُّكٍ مستمرّ، وكفَّتْ عن التفكير في نفسها كشخصيةٍ مأساوية. وهذه الرسالة غير الموقَّعة ذكَّرَتها بذلك الفصل المُقبِض للنفس بشكلٍ غريب الذي أمضَته في يوكاتان مع فتى وعشيقه. أتريدُ أن تراه من جديد؟ لا تعتقد ذلك. كانت في سن لا تهتمُّ فيه بتذكُّرِ هزائمها القديمة. ولكن في الوقت نفسه كانت تُشفِقُ على جيم. والنقطة الأهمّ، أليس برهاناً على قوتها أنه تحوَّلَ إليها من جديد؟ وعلى نضجها أنها تستطيع أن تستقبله كصديق؟ نعم، سوفَ تكتبُ له. سوف يلتقيان حين يعودُ إلى نيويورك. على أية حال، ليس لديها ما تخشاه، أو تكسبه؛ لقد وَقَعَ الأسوأ.

*

اتَّفَقَ الجميعُ على أنَّ بوب فورد يبدو وسيماً وسامةً خارقة وهو بالزيّ الرسمي للأسطول التجاري، وبوصفِهِ رُبّاناً على متن السفينة

ليبرتي، كان، من دون شبّان وطنه الذين انخرطوا في الحرب، يُعتَبَر الأكثر نجاحاً. طبعاً، الأسطول التجاري لم يكن تابعاً بالضبط للجيش أو للأسطول البحري، ولكن مع ذلك كان بمثابة الإنجاز الضخم أن يكونَ وكيلَ رُبان ولم يزل في الخامسة والعشرين. وعودته إلى أرض الوطن كانت أشبه بالانتصار، على الرغم من أنه، إنْ صحَّ التعبير، لم يكن لديه منزل بما أنَّ والده كان قد انتحرَ في المصحّ العقلي قبل ذلك بعام، ومنزل العائلة تحوَّلَ الآن إلى مثوى للإيجار. إلا أنَّ المالكة الجديدة كانت راغبةً في تأجيره غرفته القديمة بنصف السعر، وهناك أقامَ مدةَ إجازته التي تستمرُّ أسبوعَين، كان يتقرَّبُ أثناءها من سالي مرغندال، وهو سبب عودته. في ذلك الوقت كانت سالي قد أضحتْ امرأةً جميلةً وهادئة، ولم تعُد " جامحةً ". في طفولتها كانت قد صمَّمَتْ على أنْ تتزوج من بوب، ولم ينجح أي شيءٍ في تغيير رأيها. والآن قَطَفَتْ ثمارَ صبرها. فذات مساء، بينما كان يوصلها إلى المنزل بعد مشاهدة السينما، أتى بوب على ذكر الزواج.

" أأنتَ واثق من أنكَ تريدُ حقاً أن تتزوَّج؟ أيمكنُ أنْ تتزوَّجَ وتبقى بحّاراً؟ "

نظرَ بوب إليها. كانا واقفَين تحت شجرةٍ درداء باسقة؛ كان وجهه محجوباً بالظلام، ووجهها يغمره الضوء المنبعث من مصباحٍ قريبٍ في الشارع.

" أنا واثقٌ من أني أريدُ أن أتزوَّجك. لكني أحبُّ البحر. إنه الشيءُ الوحيدُ الذي أعرفه "

قالت سالي ببطء " لقد تحدَّثتُ مع أبي، ورأى أنكَ ستنجح في

مجال التأمين، وهو مجالُ عمله، ورأى أنه من المؤسف أنَّ شاباً يتمتَّعُ بمثل شخصيتك كان غائباً في البحر طِوالَ الوقت في حين أنه كان يمكنُ أن يعملَ معه، في بيع شهادات التأمين، كشريك.

" أتعتقدين أنه سيمنحني عملاً بعد انتهاء الحرب؟ "

أومأتْ سالي إيجاباً. كانت قد كسبتْ لتوّها المعركة.

" إذاً إذا كان يناسبك، فلنتزوج فوراً "

قالتْ سالي مرغندال " أعتقد أنها فكرةٌ جيدةٌ جداً "

*

كان صباحُ يوم العرس هو الأحد. دقَّت نواقيسُ الكنيسة، وتأخَّرَ الناسُ في النوم مدة ساعة. ولكن بوب استيقَظَ باكراً. حَلَقَ ذقنه بعناية، وارتدى أحدث زيٍ رسميّ لديه، وهبط الدَرَجَ ليتناولَ طعام الإفطار. كانت صاحبة المنزل مشرقة.

" يا له من يومِ عرسٍ جميل! على الرغم من أنَّ أي يوم آخر يصلحُ أن يكونَ يومَ عرس. لقد صَنَعَتُ فطائرَ مُحلاّة. لا شيءَ يُضاهي معدةً ممتلئةً لإعطائك دفعةً قوية. أوه، بالمناسبة، هاكَ رسالةً لك. وَصَلَتْ في يوم الجمعة، لكنْ في غمرةِ الإثارةِ نسيتُ تماماً أن أعطيكَ إياها. أنا آسفة. كانت موجَّهةً إليك بواسطة السيد فورد العجوز هنا، وهذا يعني أنها من شخصٍ موجودٍ خارج البلدة. حسنٌ، استمتعْ بتناول إفطارك. أراكَ في الكنيسة. لا يمكنُ أن يفوتني هذا مهما حدث! "

فتحَ بوب رسالةَ جيم. دُهِشَ لوصول أخبار منه بعد مرورِ سنينَ عديدة، وشعرَ أيضاً بقليلٍ من الذنب لأنه لم يُجِب على رسائل جيم

المُبكِّرة له. لقد شغَلتْ سالي المساحةَ القليلة من الموهبة التي كان يتمتَّع بها في كتابةِ الرسائل.

كانت الرسالة شديدة البساطة. جيم سيتركُ الخدمةَ، ويأملُ في أنْ يرى بوب قريباً. ربما في نيويورك. هذا كل شيء. حين جعَّدَ بوب الرسالةَ شعرَ بانزعاج غامض. عبَسَ وحاولَ أن يتذكَّر السبب. ولكن ذهنه كان فارغاً. حين رمى بالرسالة بأناقة في سلة المهملات، اقسَمَ على أنْ يُجيبَ على رسالةِ جيم حالما يعود إلى السفينة.

الفصل التاسع

١٠.

لم يُسرَّح جيم فوراً، بل أُرسِلَ إلى مستشفى في سان فرناندو فالي في كاليفورنيا حيثُ تلقَّى العلاج والإشراف. وقد تحسَّنَتْ حالة التهابه تحت أشعة الشمس الحارة لكنه، لأنه أصبحَ الآن مُتلهِّفاً إلى ترك الجيش، لم يذكُر أيَّ شيءٍ عن هذا لأطبائه. وظلَّ يعرج بصورةٍ جليّة جداً.

كان جيم كثيراً ما يقومُ بزيارة هوليوود، لكنه لم يحاول أن يُقابلَ شو لأنه لم يتلقَّ منه جواباً على رسالته؛ اعتقَدَ أنه كان ما يزالُ يُساكنُ بيتر ولا يرغبُ في المصالحة. لكنه قابلَ المخرج الذي اسمه ساي، في إحدى الحانات، جالساً ملتصقاً ببحَّار، وثملاً. وحين لمحَ ساي جيم هتفَ "إنه فتى كرة المضرب! ". كان ممتلئاً بالحيوية. " حسن، ما الجديد؟ لا تزالُ في ذلك الزيّ الذكَريّ! هل جئتَ لترى حبيب أميركا؟ "

" لا، ليس الآن "

" أين تُقيم؟ "

أخبَرَه جيم.

" في مستشفى؟ ما الخطب؟ قرحة تناسلية؟ المرض الرهيب الذي لا تجرؤ على ذِكرِ اسمه؟ "

" كلا، إنه التهابُ المفاصِل "

" أهو خطير؟ "

" ليس كثيراً "

" حسنٌ، هيا نشرب كأساً "

هزَّ جيم رأسه رافضاً " إنني لا أشرب "

" سأشربُ أنا ". طَلَبَ ساي لنفسه جِنّاً. " لماذا لم تقابل شو؟ "

" لأني أعتقدُ أنه لا يريدُ أن يراني، ما رأيكَ أنت؟ "

شربَ ساي جرعةً من كأسه الجديد ومسحَ فمه بمخلبه المشعِر. " أوه، أنتَ تعرف شو. إنه مجرَّد هاو. مَنْ الذي جاءَ بعدك؟ لقد نسيت "

" إنه بيتر، الممثل "

" ذاك! " أشرَقَ ساي بالخبث. " في الواقع، أنا المسؤول عن ذلك الانفصال. بصورةٍ ما. لقد جَعَلتُ الفتى يشتركُ في أحد الأفلام، وصدِّقْ أو لا تصدِّق، كان جيداً. وقدَّمَ الأستديو له عقداً مشروطاً، فقَبِلَه، وهجَرَ شو منذ البداية. أليسَ هذا مثيراً للسخرية؟ ولكن تباً، إنني لا ألومُ الفتى. على أي حال، إنه حتى لم يكن شاذاً؛ إنه يُقيمُ مع امرأةٍ في الوقت الحاضر، في ماليبو. رأيتهما بعينيّ بعد ظهر هذا اليوم، على شاطئ البحر "

" مع مَنْ يقطنُ شو الآن؟ ". قصةُ بيتر لم تكن مُفاجئة تماماً.

" مع الجميع. ولا أحد. إنه يتصيَّدُ في الحانات ويسود الاستديو قلقٌ كالجحيم. و... أوه، بالمناسبة، سوفَ يلتحِقُ بسلاح البحرية. والآن هذا حقاً مُثيرٌ للسخرية! "

" ولكن كنتُ أعتقدُ أنه من المفروض أنه أثمنُ من أنْ يفعلَ هذا "

قهقه ساي. " إذا أردتَ أن تمثِّل أفلاماً فعليك أن تشترك في الحرب. سوفَ يُقَلَّدَ رتبةً عسكريةً ويُرسَلُ عبر البحار إلى هونولولو ربما وسوفَ نأخذُ له صوراً كثيرةً بوصفه أحد المشاركين في الحرب ومن ثم، إذا لم تعتقله البحريةُ بتهمة اغتصاب ملاكها، سيعودُ إلى أرض الوطن مع عددٍ من الأشرطة وعقدٍ جديدٍ مع الاستديو. خلال الأشهر القليلة الماضية أرهقوه بالعمل، لذا سيتوفَّرُ الكثير من أفلام شو أثناء غيابه. لن يُسمَح للحمقى بأن ينسوه "

" متى سيلتحق؟ "

" حالما تتلقَّى البحرية إشارةَ البدء من مجلة لايف "

قال جيم " اتِّفاقٌ جيد ". بدأ الساقي يتقدَّمُ منه بسمةٍ مُهدِّدة : لم يكن الممتنعون عن الشُرب محبوبين. " حسنٌ، أراكَ لاحقاً "

" لِمَ لا تأتي إلى بيتي هذا المساء... " قال ساي.

" لا، شكراً "

" كما تشاء "

*

كان روتين المستشفى مُريحاً بعد ما لاقاه في كولورادو، وقد استمتعَ جيم بوقته؛ لعبَ كرة المضرب للمرة الأولى منذ سنتين؛ وزادَ وزنه وسرعان ما أضحى مَرَضَه مجرَّد ذكرى باهتة لكابوس، مثل الصباحات البيضاء الباردة في صحراء كولورادو.

في شهر نيسان كَتَبَتْ له أمه تخبره بأنَّ والده قد توفي. لم يشعر جيم بأي أسف؛ على العكس : لقد أُزيحَ عبءٌ عن عقله، وانتهت كراهيّة. جلسَ جيم في الشمس ومدَّ بَصَرَه عبر المرج الأخضر حيثُ يتجوَّلُ المرضى بأرديةِ الجيش ذات اللون الأحمر الداكن جيئةً وذهاباً.

بدا الموتُ تحت ضياء الشمس مستحيلَ الوقوع. إلا أنَّ جيم تساءلَ ماذا يشبه. هو نفسه كان قريباً من الموت لكنه لم يتذكَّر منه أي شيء. والآن، وهو تحت أشعة الشمس، أخذَ يُفكِّرُ في الموت وفي والده. لم يكن يؤمنُ بالجنةِ أو بالجحيم. كان يرى أنَّ في الغالب هناك مكاناً خاصاً يذهبُ إليه الطيبون، خاصةً وأنَّ لا أحدَ يعرفُ بالضبط مَنْ هو الإنسان الطيب، ولا ما هو المآلُ الأخير. ماذا حدثَ فعلاً؟ فكرةُ العدمِ أفزعتْه، ولعلَّ الموتَ هو عدم : لا أرضَ، ولا ناس، ولا نور، ولا زمن، ولا شيء. نظرَ جيم إلى يده. كانت مسفوعةً بأشعةِ الشمسِ وصلبةً، ومُغطَّاةً بشعرٍ ذهبيّ اللون وزغَبيّ. تخيَّلَ اليدَ كما ستصبحُ عليه بعد أن يموت : رخوةً، شاحبةً، متَّجهةً نحو الأرض. حدَّقَ مدةً طويلةً إلى اليد التي كان مُتيقِّناً من أنها ستتحوَّلُ إلى ترابٍ ذات يوم. انحلالٌ وعَدَمٌ، نعم، هذا هو المستقبل. سَرَتْ فيه رعشةُ خوفٍ حيوانيّ بارد. لابدَّ من وجودِ سبيلٍ لخداعِ الأرضِ التي هي أشبه بمغناطيسٍ عنيدٍ تجذبُ البشرَ لتُعيدهم إليها. ولكن على الرغم من كفاحِ عشرةِ آلافِ جيل، انتصرَ المغناطيس. وعاجلاً أو آجلاً سوف تُسفحُ ذكرياته على الأرض. طبعاً سوفَ تمتصُّ غُبارَه كائناتٌ حيّةٌ أخرى وإلى تلك الدرجة على الأقلّ سوفَ يوجدُ من جديد، على الرغم من أنه كان جلياً تماماً أنَّ المُركَّبَ الخاص الذي كان يؤلِّفُهُ لن يعودَ أبداً إلى الوجود.

أشاعتْ فيه الشمسُ الحارّةُ الدفءَ. تحرَّكَ الدمُ أسرع في عروقه. أصبحَ واعياً لامتلاءِ الحياة. صارَ موجوداً في الحاضر. وهذا يكفي. ولعلّه خلال السنوات القادمة سيحملُ رؤيةً جديدةً، تساعده، بصورةٍ ما، على مراوغة فكرةِ العَدَم.

في شهر أيار مَثُلَ جيم أمامَ الهيئة الطبيّة. بما أنَّ الأشعةَ السينيّة بيَّنَتْ وجودَ ترسُّبات معدنيّة في مفصلِ ركبتِه اليُسرى، قرَّرَتْ الهيئةُ تسريحَ جيمس ويلارد من جيش الولايات المتحدة، مع منحة إعاقة. وقد أسعده انتهاءُ هذا كله. أخيراً أُعدَّتْ الأوراق، وأعطوه بطاقةَ سفرٍ بالقطار إلى نيويورك. وفي القطار قرأ في إحدى الصُحُف أنَّ رونالد شو، الممثل، قد تطوَّعَ في سلاح البحرية.

*

في نيويورك استأجرَ جيم غرفةً في شارع تشارلز في منطقة فيليج وأخذَ يفتِّشُ عن عمل. بعد بعض الوقت عَثَرَ على ما أراد. فبالقُربِ من إيست ريفر كانت هناك قطعةُ أرضٍ خاليةٍ حُوِّلَتْ إلى ملاعب لكرة المضرب. هنا قابلَ جيم ويلبر غراي، الذي كان، مع شريكه أيزاك غلوب، يمتلكان الملاعب. ووفقاً لأقوال السيد غلوب سوف يُقامُ بناءٌ جديد في نهاية الأمر على قطعة الأرض، لكنَّ ذلك لن يتمّ قبل مرور خمس سنوات، وحتى يحين ذلك الوقت كان العملُ يسيرُ سيراً ممتازاً.

كان جيم يزورُ الملاعبَ في كل يوم، وعقَدَ صداقةً مع غراي وغلوب معاً. أخيراً، قدَّمَ عَرضاً لشراء جزءٍ من شركتهم وليعملَ أيضاً كمُدرِّب. وبعد الكثير من التداول وتفحُّص الدفاتر وافقَ الرجلان، اللذان لم يكونا يفقهان أي شيءٍ في إدارةِ الأعمال، على أنْ يُصبحَ شريكهما.

عملَ جيم حتى نهاية العام، في إعطاء الدروس في الأيام الصافية، وبما أنه كان هناكَ الكثير من الأيام الصافية خلال فَصلَيّ الصيف والخريف، فإنه كسبَ المال. وكان نادراً ما يُقابلُ شريكَيه خارج أوقات العمل. كانا كلاهما مُكرّسان للحياةِ العائلية ولا اهتمامَ لديهما بالعالم

الخارجي. وكذا كان هو حين ينهمكُ في العمل؛ لم يكن يرى أحداً. وقد اتَّصَلَ مرةً بفندق ماريا فرلين، لكنها لم تكن مُسجَّلةً هناك.

*

بعد ظهر أحد أيام الشتاء، في الجادّة الخامسة، قابلَ جيم الملازم شو، وهو يتفرَّجُ تبدو عليه الكآبةُ على واجهةِ محل ف.أ.و شفارتز تعرِضُ دُمى عيد الميلاد.

" روني! "

" جيم! " وتصافحا بحرارة. كان شو في البحر في المحيط الأطلسي. وهو الآن في إجازة، ويُقيمُ في فندق هاردنغ. أيرغبُ جيم في شُربِ كأس؟ نعم.

كان الجناح في الفندق رحباً، مُزوَّداً بمرايا على طراز الروكوكو وبأثاثٍ ذي قوائم طويلة ونحيلة مُذهَّبة. طلَبَ شو زجاجة من الويسكي ومن ثم أخذا يتبادلان التحديق، وكل منهما يتساءلُ كيف يبدأ. أخيراً قال شو إنَّ أحداثاً كثيرةً وقعَتْ منذ آخر لقاء بينهما، ووافقه جيم. ثم توقَّفَ الحديث فترةً طويلةً إلى أن قال شو " أتعيش وحدك؟ "

هزَّ جيم رأسه إيجاباً. " أعملُ بكدٍ طوال فصل الصيف؛ لم أتعرَّف بعد على أحد "

" الأفضل لكَ أن ترتبطَ بعلاقاتٍ متعدِّدة. هذا ما أفعله أنا. نظرياً، إقامةُ علاقةٍ واحدة ثابتة أفضل، ولكن كم عدد القادرين على أن يكنّوا مشاعر عميقة؟ ولا واحد "

وَضَعَ جيم حداً لذلك اللحن الحزين. " كيف وجَدْتَ الحياةَ في البحرية؟ "

هزَّ شو كتفيه بلا مبالاة. " كان يجب أن أكون حذراً. على أية حال، إنني دائماً يجب أن أكون حذراً. بالمناسبة، إلى أين ستذهب هذا المساء؟ إنني مدعوٌّ إلى حفلٍ للشاذين، رائعة جداً. سأصحبكَ معي. قد يكونُ هو حفلُ خروجك على مجتمع نيويورك. سيكونون كلهم هناك "

دُهِشَ جيم من مبلغ قلّة اهتمام شو بالمظاهر. في السابق كان يرفضُ تماماً الذهاب إلى مثل تلك الحفلات، أما الآن فهو لا مبالٍ، بل ومتحدٍ.

أقامَ الحفلَ نيكولاس جـ. رولوسن، الوارث لثروةٍ أميركية هائلة. ورولي، وهو الاسمُ المعروف به، كان مولعاً بشيئين، الفن الحديث والجيش. وكلاهما كان ممثّلاً جيداً في شقته المُطلّة على سنترال بارك. وكانت هناك آلاتٌ متحركة تُصدرُ رنيناً من السقف؛ وتمثالٌ ضخمٌ لعاريةٍ من أعمال هنري مور يحتلُّ أحد زوايا غرفة الجلوس التي فيها على الأقلّ كرسي واحد يشبه حُطام حيوان المَدْرَع[١٤]. وكانت تتجوَّلُ في أرجاء تلك الغرف المذهلة مجموعة كاملة من الجنود، والبحارة وأفراد البحرية، تستولي عليهم الرهبة مما يُحيطُ بهم إذا لم يكن من رولي وأصدقائه، الذين كانوا متآلفين تماماً معها.

حين دخلَ شو عمَّ الصمتُ، وعلى الرغم من وجود شخصيات مشهورة أخرى في الحفل، من رسامين، وكُتّاب، ومؤلّفين موسيقيين، ورياضيين، وحتى عضوٌ في الكونغرس، إلا أنَّ شو كان الأشدّ لمعاناً منهم جميعاً، وكانت العيون تتابعه كيفما تنقَّلَ.

كان أسطورةً هناك، مما أمدَّه بسعادةٍ غامرة.

رحَّبَ رولي بهما بحماس؛ كان يرتدي بلوزةً قرمزيةَ اللون عليها شعار. وحين يتحرَّكُ كان ثدياه يهتزان من تحت قميص الحرير ذي اللون

الأصفر الباهت. وكما توقَّع كانت المصافحة فاترة. " أيها العزيزان، ما أجمل أن تحضرا! كنتُ أخشى كثيراً ألا تفعل، يا روني، كنتُ سأموتُ من الخيبة. أما الآن فأمسيتي اكتملتْ، لكنّها اكتملَتْ بصورةٍ مثاليّة! والآن تعالَ معي. إنَّ الجميعَ يكادون يجنّونَ اشتياقاً إلى لقائك "، وأخذ شو بعيداً، وتركَ جيم وحده. قدَّمَ له ساق كأسَ مارتيني. حملَ جيم كأسَ الكوكتيل وبدأ يستكشفُ المكانَ، وقد أثاره رجال الجيش، المُجنَّدون إلزامياً في جيش رولوسن.

*

في ركنٍ من غرفة الطعام، هتفَ له رجلٌ يضعُ شعراً مستعاراً مُرحِّباً "تعالَ إلى هنا يا عزيزي. انضمَّ على الحفل ". لمَّا لم يجد جيم بديلاً لهذا جلسَ على أريكةٍ بين ذي الشعر المستعار وذي نظارةٍ ثُنائيّة البؤرة. وقبالته جلسَ رجلٌ أشيب الشعر وشابٌ أصلع. كانا يتحدثان برصانة وبدا السخطُ على الرجل الشائب وذي النظارة ثنائية البؤرة لأنهما قوطعا.

سألَ ذو الشعر المستعار " جئتَ مع شو، أليسَ كذلك؟ "

هزَّ جيم رأسه إيجاباً.

" أنا لاعبُ كرة مضرب " نَطَقَ جيم العبارة وهو يطحنها بصوته الشديد الخشونة.

قال ذو العدسة المزدوجة البؤرة " أوه، كم هذا مُثير! رياضيٌّ! إنني أعبد أجسادَ الرجال، التيوتونيين والبدائيين، ليس مثل أجسادنا نحن المُحبطون ببساطة والمكبوتون بمجتمعٍ أصبحَ من شدَّة التعقيد بحيث لا نفهمه. هذا الشاب من الطراز البدائي الحقيقي، النموذج الأصلي الذي نحنُ نسخٌ مشوّهة عُصابياً عنه ". أخذ ذو العدسة المزدوجة البؤرة يتفحَّص جيم وكأنه تجربة مثيرةٌ باعتدالٍ للاهتمام.

أبدى الرجلُ الشائب الشعر اعتراضَه "لماذا كانت بقيَّتنا بالضرورة نتيجة التشوُّه؟ على أي حال لقد أُخذتَ بالمظهر، لكننا لا نعرفُ حقيقته. قد يكونُ أشدَّ عُصابيّةً منا جميعاً". ثم استدارَ نحو جيم مع ابتسامة "بالمناسبة، إننا نتحدثُ عنك ليس بوصفكَ أنتَ بل كرمز. نحن لسنا وقحين"

قال الأصلع " ولكن هناك شيءٌ في هذه النظرية التيوتونية. في ألمانيا، أليس في الجيش، الرياضيون، الرجالُ الأشدُّ رجولة، هم الشاذون جنسياً، أو على الأقلّ ثنائيو الجنس؟ ويعلمُ الله أنَّ ألمانيا بدائيّةٌ بما يكفي : ومن ناحيةٍ أخرى في أميركا وفي إنكلترا نجدُ أنَّ التخنُّث هو أحد دلالات الشذوذ، وطبعاً العُصاب "

قال ذو النظارة " قبل خمس سنوات كان يمكنُ أن نقولَ إنَّ هذا صحيح. أما الآن فلم أعُد واثقاً من ذلك. طبعاً هناك دائماً رجالٌ عاديّو المظهر شاذون جنسياً لكنهم نادراً أو قلّما مارسوا شذوذهم، في حين أنَّ المنتمين إلى النمط الآخر (ما نسمّيه جميعاً التيوتوني) ليسوا ظاهرين للعيان ونكادُ لا نعرفُ عنهم أي شيء ونظن أنهم مجرَّد سلعة، كما تعلم، كسائق الشاحنة الذي يحب أن يُضاجَع ويتظاهرُ بأنه في الواقع يعشقُ النساء والمال. لكني أعتقدُ أنَّ الحربَ أحدثَتْ تغييراً هائلاً. لقد انهارت الموانع؛ والشبان من الأنواع كافة يجرّبون أشياءَ جديدة تماماً، بعيداً عن المنزل والمحرّمات المألوفة "

قال الشائب " إنَّ كل إنسان هو ثنائي الجنس بالفطرة. والمجتمع، والتكيُّف المبكِّر، وحُسن الحظ أو سوئه ، يُحدِّدُ - بالاعتماد على الطريقة التي تؤمَر بأنْ تنظُر إليها - النتيجة. لاشيء " صح ". وحده نكرانُ الغريزة خطأ "

عبر الغرفة، أشارَ شو لجيم لينضمَّ إليه، فاستأذنَ جيم.

كان شو وروني مُحاطَين ببحّارة أخذوا يرمقون جيم بغيرة حين انضمَّ إليهم.

قال شو " حسبتُ أنكَ تبدو ضجِراً من أولئك المثقَّفين "

سألَ جيم " مَنْ يكونون؟ "

" حسنٌ، الشائب هو بروفسور في سيتي كوليج وذو النظارة صحافيٌّ - ستتعرَّف إلى اسمه إذا ما تذكَّرته - والآخر عاهرة بكل معنى الكلمة ". قال روني هذا وهو يُملِّسُ شعره الصقيل والكثيف. " لعلّهم يتحدثون في السياسة. يا له من موضوع كئيب! أنا أقول، ما الداعي إلى القلق؟ فليأكلوا الكعكة وكل شيء. أقصد، قبل كل شيء، أليس شعار عِش ودَعْ غيرك يعيش هو، بحقّ، أفضل سياسة؟ "

وافقَ جيم على أنَّ هذا صحيح فقرَصَه رولي في فخذه. فجأةً أخذَ البحّارة شو وابتعدوا به وتُركَ جيم مع رولي، واقفاً في فخّه.

" فهمتُ من روني أنكَ لاعبُ كرة مضرب. أعتقدُ أنَّ هذا شيءٌ مُثيرٌ جداً... أقصد أن يكونَ المرءُ رياضياً ويعملُ في الهواء الطلق. وطالما تخيَّلتُ أنه لو أُتيحَ لي أن أعيشَ حياتي من جديد، وهذا لسوء الحظ لن يُتاح لي، لأمضيتُ وقتاً أطول في الهواء الطلق، وأنجزتُ عملي. في الواقع، أنا لا أفعلُ أي شيء. أنتَ تعلم أني لا أفعلُ أي شيء، أليس كذلك؟ آمل ألا تكرهني. هذه الأيام الجميع يتعالون على العمل. الشيوعيون، المتواجدون في كل مكان، يقولون إنَّ على الشعب أن "يُنتجَ". أما أنا فأقولُ إنه يجب أن يكونَ هناك مَنْ يعرفُ كيف يُقدِّر قيمةَ ما يُنتِج. لهذا تجدُ أني حقاً عنصرٌ " مفيد " في المجتمع. فقبل كل

شيء أنا أُبقي المال في التداول ليحصل عليه الآخرون وأنا أؤمنُ بأنَّ الجميع يستمتعون بوقتهم... أوه، انظر إلى ذاك البحري الذكَر، أليسَ رائعاً؟ لقد تلقَّى المضاجعة خمس مرات اليوم الفائت ومع ذلك ذهب لحضور القداس، هكذا أخبرني ". نظر جيم إلى ذلك الشهير، فاتّضَحَ له أنه مجرَّد شاب بزيٍ رسميّ يبدو عليه التعب.

قال رولي " أتعلَم، إنني أكره أولئكَ المخنّثين الذين يصرخون"، وكان يُديرُ خاتماً من الزمرّد والياقوت. " إنَّ لديّ نقطة ضعف جليّة أمام الرجال أصحاب الذكورة الفائقة. أقصد، منذ البداية، لماذا تكون لوطياً إذا كنتَ تحب اللوطيين الآخرين، إذا فهمتَ ما أعني؟ لحُسن الحظ، الجميع هذه الأيام شاذين جنسياً، إذا فهمتَ قصدي... أقصد "حرفياً" الجميع! اختلفَ الأمر كثيراً حين كنتُ فتاة. ولِمَ العَجَب. قبل بضعة أيام صديقٌ لي... حسن، لن أتمادى إلى حد القول إنه " صديق "، في الحقيقة أعتقد أنه" شرير "، ولكن على أي حال هذا الشخص كان في الواقع يساكنُ ويل جبسن. الملاكم! والآن، أقصد حقاً، حين تصل الأمور إلى هذا المدى، فإنها تكون قد تجاوزت الحدود! "

وافقَ جيم على أنَّ الأمورَ قد جاوزَتْ الحدود. لقد أثارَ رولي اشمئزازه، لكنه لاحظَ أنه قصَدَ أن يكون لطيفاً وهذا شيء لا يُستهان به.

" يا إلهي، أليس المكان مزدحماً هنا؟ أحبّ للناس أنْ يستمتعوا بأنفسهم! أقصد النوع الصحيح من الناس الذين يتذوَّقون مثل هذه الأشياء. أتعلَمْ، لقد تحوَّلتُ إلى الكاثوليكية "

صدَّقَ هذه المعلومة دون تردُّد.

" بدأ الأمر مع المونسنيور شين، يا لعينيه الزرقاوين! ولكن طبعاً

كنتُ بحاجة إلى الإيمان. كان ينبغي أن أعرف إلى أين أتجه حين أنبذُ هذا الشيء المُهلك، والكنيسة الكاثوليكية جميلة جداً، تتَّصف بتلك العظمة الأليفة التي أعبدها. يشعر المرءُ فيها بأنه في " أمانٍ تام " بوجود تلك الطقوس وما إلى ذلك. وتلك الأردية! في الحقيقة " لا شيء " يُضاهيها. إنها حقاً أجمل الطقوس في العالم. ذات مرة كنتُ في كنيسة القديس بطرس بمناسبة عيد الفصح - أعتقد أنه كان عيد الفصح - مهما يكن، جاءني الأب المقدَّس[١٥] متبوئاً عرشاً ذهبياً ويعتمرُ التاج الثلاثي البابوي وأجمل الأردية البيضاء الجميلة التي شاهدتها في حياتي والكرادلة كلهم يلبسون الأحمر والبخور وسط الرخام الجميل والتماثيل الذهبية... "لذيذة " إلى أقصى حد! على أية حال، وفي الحال أصبحتُ كاثوليكياً. أذكر أني استدرتُ نحو داريو ألاريمو (كان صديقاً عزيزاً لي ينحدرُ من عائلة نيابوليتانية عريقةً في القدَم، ووالده كان دوقاً وكان يمكنُ له هو، أيضاً، أن يصبح دوقاً، لكني أعتقدُ أنه قُتِلَ في الحرب لأنه كان فاشيستياً، على الرغم من أنَّ أفضلَ الناس حينئذٍ كانوا من الفاشيستيين، وأننا جميعاً نعلمُ أنَّ موسوليني كان أبعد ما يكون عن الأناقة) عمَّ كنتُ أتكلَّم؟ كنتُ أوشكُ أنْ أُبرِز نقطة. أوه، نعم، حول تحوُّلي إلى الكاثوليكية. إذن التفتُّ إلى داريو وقلتُ " هذا أروع ما شاهدته في حياتي " فالتفَتَ إليَّ وقال " أليس كذلك، يا رولي؟ " كل أصدقائي يسمونني رولي. آمل أن تناديني هكذا أنت أيضاً ". إذن، بعد ذلك مباشرةً تلقَّيتُ التعاليم. أوه، يا لرأسي المسكين! كم كان ذلك صعباً. كان هناك الكثير مما ينبغي أن يُحفَظ غيباً وأنا لديّ ذاكرة بائسة تماماً، لكني فعلتُها. إنني لا أحبُّ أن أنتقدَ أو أنْ أتصيَّدَ أخطاء

الكنيسة، ليتهم فقط يختصرون من واجب الحفظ غيباً ذاك، إذن لأضحَتْ الأشياء أشد " بساطة "، ولجمعوا تشكيلةً من الناس الظرفاء. مساء الخير، جيمي، جاك، ألان. هل تقضون وقتاً ممتعاً؟ ولكن كما أقولُ دائماً، لولا واجب الحفظ غيباً الفظيع ذاك في البداية، لكانَ الأمرُ مثيراً. إنني أذهبُ لأعترف مرةً في كل شهر بل إني أحضرُ قداسَ صباح يوم الأحد، الذي يُقام عند الساعة العاشرة، وأنا أعتقدُ " بحق " أني نموذج للمهتدي.

" طبعاً قد لا أموت قبل مرور سنين عديدة؛ " آمل " أن تكون سنين عديدة. ولكن حين أموتُ أريد أن أكونَ مستعداً. لقد انتقيتُ أجملَ سردابٍ في كنيسةِ القديسة آغنس في ديترويت؛ المكان الذي تقومُ فيه عائلتي بتصنيع تلك السيارات القبيحة. وسوف أُدفَن هناك. أتوقَّع أن يرأس قداسي الجنائزي كردينال. الأفضل أن يفعلَ، نظراً لمبلغ المال الكبير الذي سأتركه لهم في وصيتي. أترحل بهذه السرعة، يا رودي؟ شكراً، أُسعِدتَ مساءً. علمتُ أنَّ البابا يفكِّرُ جدياً في أن يمنحني وساماً تقديراً للإنجازات الطيبة التي قمتُ بها. لقد أعطيتهم مبلغاً من المال، كما تعلم؛ إنها الطريقة الوحيدة لدحر الشيوعية.

" إنني آمل حقاً أنْ أذهب إلى الجنة مقابل إنجازي أعمالاً خيِّرة على الأرض. أعتقدُ أنَّ الآثام الكبرى هي تلك التي لا يمكنُ غفرانها، كقتل الناس. إنَّ مدى سقوطي الشخصي في الخطيئة هو بضع أكاذيب، أكاذيب بيضاء، وخيانة زوجيّة بين حينٍ وآخر. إنني أحملُ آمالاً عريضةً من أجل الآخرة. أراها أشبه بقصفٍ من الألوان! والملائكة كلهم سوف يكونون أشبه برجالِ البحرية؛ مفرطو المرح! الحفل يسيرُ سيراً حَسَناً، ألا ترى ذلك؟ "

وافقَه جيم، وقد أضجرَه دفقُ الكلام.

" بعد إذنك أريدُ أن أقومَ بجولاتي. إنَّ عملَ المُضيف لا ينتهي أبداً. أعتقدُ أنكَ لا ترغبُ في قضاء الليل هنا، أليس كذلك؟ "

كادَ جيم أن يُجيبَ بلا، فقهقه رولي "على أية حال، قليلون يفعلون ذلك، هذه إحدى السمات المرعبة لهذا العصر. حسنٌ، لقد استمتعتُ بهذا الحديث القصير معك استمتاعاً " فائقاً "، وآمل أن تأتي ذات مساء عندما نستطيع أن نتناول عشاءً " هادئاً " معاً. ربتَ رولوسن على كفل جيم ثم غاصَ بين مجموعة حيواناته.

وَجَدَ جيم شو ثملاً ومُحاطاً بالبحّارة.

" أنا ذاهبٌ إلى المنزل "

" ولكن الوقتَ مبكّر. هيا، إنَّ ما تحتاجُ إليه هو مشروب "

" سوف أتَّصلُ بكَ في غضونِ يومٍ أو يومين "، ورحلَ جيم. شعَرَ بارتياح لدى استنشاقه هواء الشارع المنعش.

*

مرَّ فصلُ الشتاء سريعاً. كان جيم يرى شو بين حينٍ وآخر وكان شو ودوداً ومسلياً وقد قدَّمه إلى عددٍ من الأشخاص يملكون المالَ وليسَ لديهم ما يفعلونه. كان هناك العديد من عوالم الشواذ جنسياً المختلفة في نيويورك، وكل عالم له عادةً بعض المعرفة بالعوالم الأخرى. وكان هناك أيضاً شبه عالم حيثُ يمتزجُ الأسوياء والشاذين جنسياً بدرجةٍ معيَّنة من الصراحة؛ وكان هذا ينطبقُ بصورةٍ خاصة على الجماعات الأدبية والمسرحية. أما في المجتمع الراقي، فكانَ الشاذُ جنسياً يضعُ قناعاً مؤَسْلَباً لكي يتنقَّل بجمال، وغالباً بإقناع، بين النساء المُعجبات

المنجذبات إليه لأنَّ فهمَه عظيم بقدرِ ما طلباته قليلة. أحياناً قد يتقابلُ شاذّان في العالم الكبير، وحين يحصلُ ذلك، يتعرَّفُ كلٌ منهما على الآخر بلمحةٍ سريعة ويلاحظُ، كما بين مُتآمرَين يتسلّيان، ما يتمتَّعُ به الآخر من قوةِ تأثير. كان شكلاً من الماسونية.

كان الشاذون من أرجاء البلاد كافة قد تجمَّعوا في نيويورك. هنا، بين الملايين اللا مبالية، يمكن ألا يلاحظهم العدو بقدرِ ما يعرف كلٌ منهم الآخر. ومع ذلك، مقابل كل واحد يعيشُ مع الرجال على المكشوف، كان هناك عشرة متزوجون، ولديهم أولاد، يعيشون حياةً متحفِّظة، عاديّة، وبين حينٍ وآخر يشردون إلى الحانات أو إلى الحمّامات التركية، خاصةً عند الساعة الخامسة، تلك الساعة الواقعة بين موعد مغادرة المكتب والعودة إلى المنزل حين تكونُ الحاجةُ إلى الراحة ماسّة. كان جيم يميلُ إلى أولئكَ الرجال الأشداّء، ظاهري الذكورة، ويكره النوع الآخر الذين قابلهم عبر شو. إلا أنه تعلَّمَ الكثير جداً من الشاذين جنسياً الجريئين. كانوا، مثل عازفي الجاز ومدمني المخدرات، يتحدثون بالشِفرة. وكلمات مثل "حسناء" و "مخنَّث" كانت تُعتَبر مثيرةً للاشمئزاز. كانوا يفضِّلون الشبان ذوي المظهر الرجولي الذين يُقدِّمون أنفسهم للغواية في الوقت الذي يُعلنون فيه أنهم عادةً يريدون نقوداً. ويُنظَرُ إلى السلعة بعين الريبة الشديدة؛ في الواقع، كانت إحدى عقائد الشاذين جنسياً أنَّ سلعةَ هذا العام سوف يصبحُ موضعَ منافسة في العام التالي. وكان جيم يُعتَبَر سلعة في نظر معظم أصدقاء شو؛ سلعة لا يمكنُ نيلها، لهذا السبب.

على امتداد فصل الشتاء شاهدَ جيم جزءاً كبيراً من عالم رولوسن. وعلى الرغم من أنه كان منبوذاً من قِبَل الملكات إلا أنه لم يكن لديه

مجتمع آخر. فاللقاءات المُختَلسة مع شبانٍ متزوجين كانت نادراً ما تؤدي إلى أي شيء. وقد أملَ لفترةٍ من الوقت، في أنه إذا ما التقى بعددٍ كافٍ من الملكات، فسوفَ يبدأ بأن يُحبَّ مجتمعهم ويسعد فيه. لكنَّ هذا كان مستحيلاً، هكذا حين عادَ شو إلى ممارسة عمله، ابتعدَ جيم عن عالم الشاذين، مُفضِّلاً أن يتردَّدُ على تلك الحانات حيث يمكنه أن يعثُرَ على شبانٍ مثله.

بعد ظهر أحد الأيام شعرَ جيم بدافعٍ قويّ للاتصال هاتفياً بالفندق الذي تنزل فيه ماريا فرلين وكم دُهشَ حين وجدها هناك. دَعَته إلى لقائها. وعند الباب عانقته ماريا. " تبدو في أحست حال! ". وقادته إلى غرفة الجلوس. كانت عيناها وضّاءتين؛ كانت تضجُّ بالحيوية، وضحكت كثيراً. ثم لاحظَ جيم أنَّ يديها ترتعشان وهي تدخِّنُ سيجارتها، وأنها مضطربة. وتساءلَ عن السبب، لكنها لم تُشفِ غليله.

" تسألني أين كنتُ؟ دعني أفكر. في كل مكان، ولا مكان. أمضيتُ الصيفَ في ولاية مين. ثم انتقلتُ إلى جامايكا. لكنَّ نيويورك هي المركز الذي أتَّخذه مُستقراً لي بين الرحلات "

" أعتقدُ أنك لم تكوني سعيدةً، أليس كذلك؟ ". كان جيم مباشراً.

ضحكَتْ. "يا له من سؤال!" . كانت عيناها تواجه عينيه. "من الصعب تعريف السعادة. أهي غيابُ الألم؟ في هذه الحالة، كنتُ سعيدة. لا أعاني الألم. لا أشعرُ بأي شيء". لكنّها كانت تسخرُ من نفسها وهي تتكلّم.

" إذن ما زلتِ لم تحصلي على ما تريدين؟ "

" كلا، لم أحصل. إنني أعيشُ بشكلٍ كامل على السطح من يومٍ إلى يوم ". فجأةً تجهَّمَتْ.

" هل ستعثرين عليه أبداً؟ "

" لا أدري. لعلّي لن أفعل. لم أعُد شابةً. لن أعيشَ إلى الأبد. إنني ببساطة أواصلُ العيشَ، وأنتظر "

" أتساءلُ إنْ كان هناك أي رجل يريدُ ما يُكمِّلُ ما تريدينه أنت. أعتقدُ أنَّ لا رجلَ قادراً على تحمُّل كل ذلك القدر من المشاعر، ولهذا يُفضِّل الكثيرون بعضهم بعضاً على النساء ". على الفور نَدِمَ لأنه قال هذا. لكنه كان مُقتنعاً بأنها الحقيقة.

ضحكَتْ ماريا. " أنتَ لا تترك لنا الكثير من الأمل، أليس كذلك؟ على الإنسان أن يكونَ نفسه. ثم إني كنتُ سعيدةً جداً أحياناً "

" ربما من الأفضل لنا أن نكوِّنَ أصدقاءً وننسى أمرَ العشّاق "

ابتسمَتْ ماريا. "يبدو لي هذا أشبه بخسارةٍ فادحة، ما رأيكَ أنت؟"

ثم انتقلا إلى الحديث عن شؤونٍ أخرى حتى الغسق ثم نهضَ جيم واقفاً استعداداً للرحيل. كانت ماريا قد أخبرته بأنها تتوقّعُ وصولَ صديقٍ عند الساعة الخامسة.

قالت " أراكَ مرةً أخرى. قريباً "

قالَ جيم " قريباً ". عند المغادرة لم تعانقه.

توجَّه جيم مباشرةً إلى حانة ساحة تايمز التي يرتادها الجنودُ والبحارة. ألقى نظرةً مُتفحِّصةً على أرجاء المكان، كقائدٍ يقومُ بمسحُ ساحة القتال. ثم اختارَ هدفَه : ملازمٌ في الجيش طويل القامة عريض الكتفين، فاحم لون الشعر، أزرقَ العينين. حَشَرَ جيم نفسه إلى جانبه وطلَبَ مشروباً. لَمَسَتْ ساقُ جيم ساقَ الملازم، ساقاً قاسيةً مُدجَّجةً بالعضلات استجابَتْ لضغطه.

سأله الملازم " أنتَ في الخدمة؟ ". كان صوته عميقاً وبطيءَ الإيقاع ويحملُ لَكْنَةَ أهلِ الغربِ الأقصى.

" نعم، أنا أيضاً كنتُ في الجيش "

" في أية كتيبة؟ "

تبادلا المعلومات. خلال غزو شمال أفريقيا كان الملازم يخدمُ في كتيبة المشاة. والآن هو متمركزٌ في الجنوب كموجِّه.

" أتقطنُ في مكانٍ قريب من هنا؟ "

هزَّ جيم رأسه إيجاباً. " أستأجرُ غرفةً في المدينة "

" ليتَ كان لديّ مكان. إنني مضطرٌ إلى أن أنامَ على الأريكة مع هذا القريب المتزوج "

" يبدو لي الوضعُ غير مريح "

" هو كذلك حتماً "

قال جيم، وكأنه كان يُقلِّبُ التفكير في الأمر، " تستطيع أن تمكثَ معي؛ هناك مُتَّسعٌ من المكان "

قال الملازم كلا، لا يستطيعُ أن يقبلَ؛ ثم شربا كأساً أخرى وبعد ذلك ذهبا إلى المنزل ليناما.

ـ ٢ ـ

في فصل الربيع، عادَ جيم إلى الملاعب. وفقاً إلى ما قاله شريكاه، قد تمرُ عشر سنوات قبل أن يُشيَّدَ البناءُ على الأرض الخالية؛ وحتى ذلك الحين كان الوضعُ أشبه بمنجمِ ذهب وكان جيم يعمل بكدٍّ، ويكسبُ المال.

كانت نيويورك مملوءةً برجال الجيش، رائحين غادين. انتقلَ جيم إلى

شقةٍ أرحب، وإنْ بقيَ في منطقة فيليج. وتعرَّفَ إلى عددٍ من الأشخاص ولكن معرفةً سطحية. كان من الأسهل ممارسة الجنس مع رجلٍ على اكتساب صديق.

في ذلك الصيف عاد سَليفان وذهبَ جيم لملاقاته في النادي. تبادلا التحيات بأسلوبٍ خشنٍ، فظ. كان سَليفان أشدُّ نحافةً مما كان جيم يتذكّر وشعره ذو اللون الرملي قد بدأ يغزوه المشيب. وكان يرتدي ملابس مدنيّة. قال ساخراً " نعم، لم أعُد مُراسلاً؛ لقد تركتُ العمل قبل أن يطردوني. إنني لا أتمتَّع باللمسة السوقيّة، خِلافاً لزوجتي الملاك "

" أميليا؟ "

هزَّ سَليفان رأس إيجاباً. " إنها تُحرزُ نجاحاً باهراً. بدأت بحكايتها لصحيفة " منزل السيدات " عن حياة ربّة بيت بريطانيّة أثناء الغارة الجوية، والآن تدرَّجَتْ إلى أن تبوّأتْ مركزاً سياسياً أعلى. الجميع يقتطفون من كتبها. إنَّ عصورَ الظلام مستمرة ". طلبَ سَليفان مشروباً آخر لنفسه. " هل قابلتَ ماريا؟ "

" بضع مرات. ليس كثيراً. أنت تعلم أنها تقريباً المرأةُ الوحيدة التي أحببتُها كشخص. إنها غير... لحوح "

" أعتقد أنها على ما يُرام الآن "، قالها جيم بتردُّد.

انتظرَ سَليفان.

"إنها مهتمَّةٌ برجلٍ ما. لا أعرفُ مَنْ يكون". ظلَّ جيم على عناده، دون أن يدري سبب كذبه إلا إذا كان أنه لا يريد أن يؤذي سَليفان مرةً أخرى.

" حسنٌ، هذا أمرٌ جيدٌ لها. إنها تستحقُّ الحظَّ الحَسَن ". ثم غيَّرَ دفَّة الحديث." وما هي أحوال العمل؟ "

كان جيم فخوراً بقدرته على إخباره عن عمله المزدهر. إنَّ التفاخُرَ لصديقٍ هو حتماً إحدى مُتَع الحياة القليلة.

" هذا خبرٌ جيد "، وسكتَ سَليفان قليلاً. " هل أنتَ وحدك؛ هل تعيش وحدك؟ "

أومأ جيم إيجاباً. " إنني فقط أتردَّدُ على الحانات. يبدو أني أميلُ إلى الغرباء "

" يستحسن أن تحتفظَ بشخصٍ واحد... أليس كذلك؟ "

" لعلّه كذلك بالنسبة إلى بعضِ الناس، ولكن بالنسبة إليّ ". كان يكذب. " أحياناً لا أعرفُ أسماءهم أبداً. أحياناً لا نتبادل أكثر من بضع كلمات. يحدثُ كل شيءٍ بصورةٍ طبيعية جداً، سهلة جداً "

" كلامٌ مُحزن "

" أليسَ هذا حالُ كل شيء؟ "

أسندَ سَليفان ظهرَه إلى كرسيه وأخذَ يتلفَّتُ حوله في الحانة العتيقة الطِراز بخشبها الثقيل القاتم. كان هناك عددٌ من أعضاء النادي جالسين يشربون بهدوءٍ حول طاولةٍ في أحد الأركان. قال سَليفان بشكلٍ عَرَضيّ "لقد تغيَّرت "

أجابَ جيم بلهجةٍ عَرَضية " أعلم. حين تُشرِفُ على الموت تتغيَّر؛ وحين تكونَ جندياً، تتغيَّر؛ وحين تتقدَّم في العمر، تتغيَّر "

" تبدو الآن قليلاً أكثر... تحديداً "

" في بعض الأشياء. لكني لا أزالُ لا أعرفُ كيف أحصلُ على ما أريد "

ضحكَ سَليفان " ومَنْ يعرف؟ التغيُّر هو فِطرة الحياة "

تابعَ جيم، مُصمِّماً على فكرته " لكن هذا غير صحيح "

" ماذا ؟ "

" أعرفُ شخصاً في فيرجينيا؛ شخصاً نشأتُ معه ". كانت المرة الأولى التي يأتي فيها جيم على ذِكر بوب أمام أي إنسان. فسكتَ على الفور.

" مَنْ هو؟ "

" كان ذلك منذ زمن بعيد "، ولم يُضِف جيم أكثر من هذا. لكنَّ إدراكه أنَّ في إمكانه ذات يوم أن يأسر من جديد ماضيه ببساطة بالعودة إلى أرضِ الوطن زوَّدَه بالإحساس بالقوة. وأخذ عهداً على نفسه بأنه حالما ينتهي عمل فصل الصيف سوف يعودُ إلى فيرجينيا ويفتّش عن بوب، ويُكمِل ما كان قد بدأه في ذلك اليوم على ضفة النهر.

كان جيم واعياً أنَّ سَليفان قد طرَحَ عليه سؤالاً وينتظر جواباً. "ماذا قلت؟ أنا آسف "

كان سَليفان سمجاً " قلت إني أنا أيضاً كنتُ وحيداً، فإذا أردت يمكننا أن... من جديد "

شعرَ جيم بالإطراء لكنه لم يتأثَّر به كثيراً. أجابَ إجابة لطيفة. واستعادا علاقتهما. ولما لم تعُد حياتهما معاً ذات أهمية بالنسبة إلى كل منهما أصبحت ممتعة أكثر مما كانت حين اجتمعا للمرة الأولى.

في شهر حزيران، نُشِرَت رواية بول الجديدة وأقام ناشروه حفلة كوكتيل على شَرَفه. كان الجوُّ حاراً. شعرَ جيم بالضجر وبالاضطراب، أما سَليفان، الذي ظهرَ ببزَّته الغبردين الجديدة لا غُبار عليه، فكان تقريباً سعيداً.

في الغرفة الخانقة، كان الحديث يدور بصوتٍ عالٍ بينما خيرة ناشري نيويورك يسطرون معاً. وأخذ جيم ينتقل من مجموعة إلى أخرى، وعيناه تستشعران وَخز الألم من دخان السجائر، محتاراً أي حديث ينتقي ليُصغي إليه. " هنري جيمس؟ لن يدوم تأثيره طويلاً. إنهم البريطانيون، كما تعلم. هم المسؤولون. أثناء الغارات الجوية، الناس بحاجة إلى مَنْ يواسيهم، لذا تراهم يقرؤون جيمس وترولوب؛ إنهم يعودون إلى عالمٍ آمن ذهبي ومُنضبط، وخالٍ من القنابل "

" أعتقد أنه سيؤلّف روايات عن الحرب. والرعب الحقيقي للحرب هو الروايات التي كُتِبَتْ عنها. لكني لا أنتظر أن يخرج أي عمل جيد قبل مرور على الأقل عقدٍ من الزمان. لا يمكن أن أنشُر كتاباً عن الحرب ولو أعطوني العالم كله. طبعاً هاري براون يُعتَبَر استثناءً. وجون هيرسي[١٦]، أيضاً "

" وكارسون ماكللر؟ نعم، وطبعاً فوكنر. والمنادون بإعادة توزيع الأراضي، نعم. يبدو أن كثيرين من الجنوبيين يكتبون. ربما بسبب الحرب الأهلية. يجب الحصول على مأساة لكي نحصل على أدب. أيضاً، الجنوبيون لا يمكن إجبارهم على الإسراع في العمل. وهذا هو الفرق. ثم إنهم يكثرون كثيراً من الكلام "

" أحقاً صحيفة بارتيزان ريفيو تروتسكيّة؟ "

" اليهود غير مؤهّلين لكتابة الروايات. أنا لستُ مُعادياً للسامية. اليهود يخرج منهم نُقَّادٌ ممتازون. لكنهم ليسوا مُبدعين. الأمر يتعلّق بالتوجُّه التلمودي. طبعاً بروست كان عبقرياً لكنّه كان نصف فرنسي ومتسلّقاً اجتماعياً قلباً وقالباً "

" هنري ميللر مملّ مثل والت ويتمَن، وأقلّ موهبة منه بكثير "

" أنا مولع برواية لمن يقرع الناقوس. قرأتها مرتين. إنها شديدة الفحش، لكنها جميلة وجيدة وصادقة "

" وسكوت فيتزجيرالد؟ لا أعتقد أني سمعت بهذا الاسم. أهو هنا؟ أهو كاتب؟ "

سألَ شابٌ نحيل بحاجة إلى حلاقة ذقنه جيم إنْ كان كاتباً وحين قال جيم لا شعرَ الشابُ بالارتياح. غمغمَ " ما أكثر عدد الكُتَّاب! ". كان ثملاً.

" ما رأيك ببول سَليفان؟ ". كان جيم تواقاً إلى معرفة الجواب، لكنه وجده عويصاً. " ولا أحبّ ألدوس هكسلي "

في الطَرَف المقابل من الغرفة كان سَليفان يوقِّع على أحد الكتب. وغادرَ جيم.

كان فصل صيف حافلاً. تواصَلَتْ الحرب. كان عمل جيم شاقاً لكنّه مُجزياً. كان يحبّ بشكلٍ خاص السيد غلوب الذي لم يكن يفقه أي شيء في كرة المضرب. ذات يوم قال " إنني أعملُ في هذا المجال من أجل المال، يا جيم. كان لدي محلٌ لبيعِ السلع المستعملة وقد أُغلِقَ أثناء فترة الكساد الاقتصادي. ثم عملت كاتباً في محلٍ إلى أن انخرطت في هذا العمل من أجل المال. في رأيي أنه يمكن كسب المال بسهولة إذا عملت في مجالات تدرُّ مالاً ولكنكَ تحتاج إلى بعض المساعدة أحياناً. أتعلم لماذا سمحنا لك بمشاركتنا العمل؟ "

هزَّ جيم رأسه نفياً، على الرغم من أنه كان يعلم.

" لأنك تعمل في هذا المجال ليس فقط من أجل المال. أنت تحب

عملك ولابد أنْ يوجد هناك حفنة من الأشخاص الذين ينطوون على قدرٍ من المعرفة بحيث يستطيعون أن يقدِّموا يدَ المساعدة للذين يعملون من أجل كسب المال لكسب المال "

خلال ذلك الصيف كسبوا مالاً، وكان جيم سعيداً.

حين عادت ماريا فرلين إلى نيويورك في خريف ذلك العام، قام جيم وسَليفان بزيارتها في فندق هاردنغ. رأى جيم أنها تبدو بحالٍ جيدة، ونقَلَ إليها انطباعه.

" لقد ذهبتُ إلى الأرجنتين "

ضحكَ سَليفان " أهذا جواب؟ "

قال جيم " حسبتُ أنك كنت في كندا "

" نعم، أقولها لكليكما. سأحضر لكما ما تشربانه. رأيتُ أنْ نتناولُ طعام العشاء هنا في هذه الغرفة ". كانت حركاتها سريعة وتتَّسم بالجمال. " إنها قصة بسيطة جداً. ومألوفة جداً. لقد قابلت رجلاً أرجنتياً في كندا. دعاني إلى زيارته في بوينس أيريس. ففعلت "

" أكانَ هذا تصرّفاً حكيماً؟ " بدا بول تقليدياً بصورة غريبة.

" عزيزي بول! إنه شاعرٌ ثري ولا يأبه على الإطلاق بما يقوله الناس. في الحقيقة، لقد وجد الجميع أني شخصية أدبية شهيرة من المكسيك وكادوا يعبدونني. وأبهجني ذلك "

" والآن؟ "

" لقد عدت، كما تريان، وسوف نُمضي فصلَ الشتاء هنا "

سألَ جيم " تقولين نحن؟ "

" نعم، إنَّ كارلوس موجود هنا معي. لكنه ينزل في جناح آخر.

يجب أن نكون منافقين في نيويورك. لا نريد أن نفسد أخلاق الأنغلوسكسونيين "

سألَ بول " هل كُتُبُه مطبوعة في أميركا ؟ "

هزَّتْ رأسها نفياً. " أعتقد أنه لم يكتب أي شيء "

" لكنك قلت إنه شاعر "

" هذا لا يعني أنَّ عليه أن يؤلِّف قصائد، أليس كذلك؟ في الواقع، هو لا يفعلُ أي شيء وهذا هو إنجازه الشِعري؛ ألاّ يفعل أي شيء، باستخدام المخيّلة طبعاً "

سألها بول " هل ستقابلينه؟ "

كان جواب ماريا مراوغاً " طبعاً. ولكن ليس اليوم. ربما لاحقاً. والآن أخبرني عن كتابك الجديد "

أصغى جيم وتساءلَ لماذا شعَرَ أنه قد خُدِعَ بدلَ أن يُسَرّ من أجل ماريا، التي بدت أنها قد عَثَرَتْ على ما كانت تفتِّشُ عنه. لكنه لم يكن مسروراً. كان حانقاً منها ومن نفسه لأنه كان عاجزاً عن منحها أي شيء ما عدا صداقة وإخلاص كان في وسعها أن تحصل عليهما بسهولةٍ مُعادلةٍ من أناسٍ آخرين مُتفهّمين مثلها. إلا أنه تأذى؛ وكأنها كانت بحقّ عشيقته التي هجرَته.

جُلِبَ طعام العشاء إليهم في الغرفة، وشربَ جيم برغندي صناعة ما قبل الحرب، آملاً في أن يثمل، لكنَّ ذهنه كان متمركزاً بحدَّة شديدة على حنقه.

أثناء تناول طعام العشاء وَصَفَ بول لقاءه مع أميليا في لندن. لم تُدهَش ماريا لذلك. " كنتُ أخشى أن تصبح مسترجلة "

" لا تضع اللوم عليّ "

" أبداً! الذنب لم يكن ذنبكِ أو ذنبها. إنه ذنب هذا البلد الفظيع "

" فظيع؟ ". أجفَلَ جيم من شفقته على نفسه. لم يكن قد سَمِعَ من قبل أحداً يتكلّمُ بمثلِ ذلك العنف عن بلد الله.

ضحكَ بول ضحكاً خافتاً. " إنَّ ماريا نازيّة. أو شيوعيّة "

قالت ماريا بخفّة " الروس حُلفاؤنا، لكني لا أهتمّ بالسياسة. إنني مجرَّد امرأة. ومن الصعب أن يكونَ المرءُ كذلك في بلدك. إنني إما أقابلُ رجالاً... مجروحين، أو أقابلُ أولئك الذين لا يفكّرون في المرأة إلا كمصدرٍ للراحة، كالأسبرين "

رَسَمَ بول ابتسامةً عريضة. " إنَّ المكبوتين عشّاقٌ فاشلون ". لم يتأثَّر أبداً بتغنّي ماريا بأفرودايت.

" أنت على حق تماماً ". اختارت ماريا أن تأخذ كلامه على محمل الجد. " إنَّ كل شيء في هذا البلد محسوبٌ لكي يُدمِّر كلا الجنسَين. يُقالُ للنساء إنهنَّ إلاهات وإنَّ الرجال محظوظون لأنهم قادرون فقط على عبادتهنَّ عن بُعد... "

قال بول " إنه خطأ الإعلان. فبما أنَّ النساء يشترين معظم الأشياء، فإنَّ المُعلنين غالباً ما يُغرقوهنّ بالإطراء، ويخبروهنّ بأنهنَّ يتحلّين بذوقٍ رفيعٍ أكثر من الرجال، وأنهنَّ أشدُّ حساسيّة، وذكاء، بل وقوة جسدية لأنهنَّ يعِشنَ عمراً أطول. والمُعلنون طبعاً هم مِنْ الرجال "

" حسنٌ، يجب أن يتحمّلوا مسؤولية أشياء كثيرة ". كانت ماريا متجهِّمةً بشكلٍ استثنائيّ.

سألَ جيم " هل الأوروبيون أفضل بكثير؟ "

هزَّتْ ماريا كتفيها بلا مبالاة. " على الأقلّ الرجالُ يعرفون مَنْ هم وما هم عليه، وهذه بدايةُ سلامة العقل "

وافَقَها بول " إنَّ الأميركيين يميلون إلى لعب أدوارٍ متنوّعة، آملين أن يعثروا مصادفةً على الدور المناسب بطريقةٍ ما "

التفتَ جيم إلى ماريا. "هل ستعودين إلى أوروبا بعد انتهاء الحرب؟"

" نعم، وإلى الأبد! "

" مع الأرجنتيني؟ ". كان بول يتسلّى.

ابتسمَتْ. " مَنْ يدري؟ ". لم يكن جيم قد رآها بمثل ذلك الظُرف من قبل. " إنني أعيشُ في الحاضر ". نَظَرَتْ إلى جيم، ولأنه شاهدَ الحبَّ يطلُّ من عينيها، أشاحَ بنظَرِهِ عنها، وهو يفكّرُ في الخيانة، ويلعنُ سببها.

- ٣ -

كتابُ سَليفان الجدي لم يُحقِّق نجاحاً. أخذَ يُرسِلُ مقالات إلى المجلات ويتساءلُ إنْ كان عليه أن يجرِّب حظَّه في المسرح. ووجدَ جيم أنَّ التعاملَ معه سهل. وبين حينٍ وآخر كان أحدهما يجلب إلى المنزل شخصاً غريباً ولم يشعر أيٌ منهما بأي قدرٍ من الغيرة أو الحسد. ومن وجهة نظر جيم كانت علاقةً مثاليّة؛ وحدها تجربته المُكثَّفة مع بوب كان يمكنُ أن تكونَ أكثر إرضاءً من حياته مع سَليفان.

كان جيم يُقابلُ ماريا فرلين بين حينٍ وآخر؛ ولا يكونُ الأرجنتينيّ حاضراً أبداً. واستمرَّت مودَّتهما القديمة، لكنه كان يعي، أكثر من أي وقتٍ مضى، أنَّ ذلك غير كافٍ. وجدَ أنه لا يحتملُ أن تكونَ هي سعيدة ولا يكون هو سبب ذلك.

في عيد الميلاد دعا رولوسن جيم وسَليفان إلى حفل : " سيكونُ جمعاً متجانساً، يا عزيزيَّ، مجرَّد تجمُّع صغير " اتَّضَحَ أنها المجموعة نفسها التي كانت هناك في زيارة جيم الأولى. كان رولوسن يرتدي بزَّةً بلونٍ رماديّ مشدودة بإحكام عند الخصر، وقميصاً بلونٍ خبَّازيّ كُتِبَتْ عليه أحرف اسمه الأولى بشكلٍ فائق الجمال، وعقَدَ عقدَةً من الكريب الصيني ذي لون خضرة البحر عند نحرِهِ الوردي. حيّاهم عند الباب، وهو يشمّ أزهار البنفسج.

" جميلٌ منكَ أنكَ أتيتَ يا سيد سَليفان. هل لي أنْ أُناديكَ بول؟ بول، هناك أناسٌ كثيرون هنا يكادون يموتون اشتياقاً لمقابلتكَ وأنا واثقٌ من أنكَ ستجدُ عدداً وافراً من الأصدقاء القُدامى، أيضاً. أعتقدُ أنَّ الجميعَ، دون مبالغة، موجودون هنا، وقد فعلتُ هذا عن عمد ليكونَ حفلاً حميماً. أه، حسن "، ودفعَ بسَليفان نحو جمعٍ من الرجال بدا أنهم من الأدباء، كان بينهم بروفسور شائب الشعر من سيتي كوليج. وبعد أن نحّى رولي سَليفان جانباً بهدوء راحَ يتجوَّلُ مع جيم في أرجاء الغرفة، ويقدِّمه إلى عددٍ من الناس، وطوال الوقت يتحدثون. " أولاً شو والآن سَليفان. إذن فأنتَ الشخص المميَّز! كيف تفعل ذلك؟ أم هل أقولُ ماذا لديك؟ ". ولمسَ جيم بحركةٍ سريعةٍ ومفاجئة. استحيا جيم ونَفَرَ، ساخطاً.

" إنهما بالمصادفة الشخصان الوحيدان اللذان أعرفهما "

" ولكن أين تعرَّفت عليهما ؟ "

"في هوليوود. هل حصَلتَ على ذلك الشيء البابويّ، ذلك الوسام؟"

عبَسَ رولي. " يا عزيزي - إنَّ الكنيسة أُفسدَتْ بالسياسة؛ أُفسدَتْ بكل معنى الكلمة. في الحقيقة - إياكَ أن تكرِّر أي كلمة من هذا على

مسمعِ أي شخص - أعتقد أني سأعتنقُ مذهبَ الفيدانتا[17]. لقد قابلت مُعلِّماً هندوسياً رائعاً جداً. على الأقلّ أعتقدُ أنه مُعلِّمٌ هندوسيّ. إنه موجود هنا هذه الليلة إلاّ إذا كنتُ قد نسيت... كلا، أذكُرُ أني رأيته في محل فان فختنز ودعوته... أم هل كان ذلك الأمير؟ إنه يشبه تماماً ثيدا بارا[18]. إنه هنا، أعلمُ هذا، لأني أذكُرُ أني أبديتُ إعجابي بعمامته ألأنيقة. لكن لستُ متأكداً تماماً من حضور المعلِّم الهندوسي. في الواقع، إنه يحمل معه هنا في نيويورك ما قيمته ملايين الدولارات من الياقوت والزمرّد - أقصد بكلامي الأمير، وليس المعلِّم الهندوسي. أعتقدُ أنَّ هذا الأخير لا يملكُ شيئاً لكنه ذو مبادئ سامية جداً. اقرأ جيرالد هيرد إذا كنتَ لا تصدِّقني. أين شو الآن؟ "

" مَنْ؟ أوه، شو. أعتقدُ أنه عادَ إلى هوليوود الآن. لقد سُرِّحَ من البحرية، أو هكذا قيلَ في الصحف "

" الصحف؟ ألم تصلك رسائل منه؟ "

" كلا، نحن لا نتراسلُ "

" خسارة! في الواقع لقد حطَّمَ قلوب الكثيرين حين كان موجوداً هنا. أسعدتم مساءً جيم، جيمي، ألان.أسعدني حضوركم. أعتقدُ أنه يتمتَّعُ بوسامةٍ هائلة - أقصد شو. تحيطُ به هالة خاصة جداً ". أخذَ رولي يوزِّعُ نظراته على ضيوفه في الغرفة. لاحظَ جيم أنه يضع مساحيق تجميل. " الجو مرِحٌ جداً، ألا تعتقد ذلك؟ أوه، ها قد جاءَ سير روجر بيستون، المخنَّث المثالي! عن أذنك ". اندفعَ رولي قاطعاً أرضَ الغرفة ليُقابلَ رجلاً ضئيلاً شاحب لون الوجه وذا شعرٍ أصفر.

وجَدَ جيم سَليفان وسطَ مجموعةٍ من الناس، ليس كلهم من الأدباء.

كانوا يشربون الشمبانيا ويتحدثون بحيوية عن أحد ملوك أوروبا اتُّخذ له فتى جديداً صاحباً من المفترض أنه ذو وسامةٍ وفتنةٍ خارقتين، وإنْ كان قد بدأ حياته المهنية كعاهرٍ في ميامي. أصغى جيم، ولم يعُد يُفاجأ بسماع أسرارٍ مكشوفةٍ عن أناسٍ لم يكن يشكُّ فيهم قط قبل ذلك. في أول الأمر لم يصدِّق الحكايات كلها على أساس مبدئي، ولكن غالباً ما كان يتَّضح أنها صحيحة. من الواضح أنَّ العالمَ لم يكن كما يبدو في الظاهر، وأنَّ أي شيءٍ يمكنُ أن يصحَّ على أي شخص.

ابتعدَ جيم بخُطى متمهِّلة. في الصالون وجَدَ جهازَ هاتف، موضوعاً داخلَ قطعةٍ من الخشب. ودون تفكير التقَطَ السمّاعة واتصلَ بماريا. أجابته. استطاعَ أن يسمعَ الموسيقى خلفَ صوتها وضجيجَ أصواتٍ أخرى.

" جيم! أين أنت؟ "

" في حفلٍ ممل "

" إذن تعالَ إلى هنا! "

*

كانت ماريا ترتدي ثوباً فضّيَ اللون وتضعُ أزهاراً حمراءَ في شعرها. كانت عيناها تتلألآن وبدت ثملة، على الرغم من أنها لا تثمل أبداً؛ إنها ببساطة تصبحُ مشحونةً بالطاقة وبالحماس حين تكون مع مَنْ تحب. تعانقا ثم قادته إلى داخل شقَّتها. قدَّمَته ماريا إلى عددٍ من الوسيمين، غالبيتهم من الـ émigrés (المهاجرين) الأوروبيين. ثم قدَّمَتْ له كأساً من الشمبانيا وجلسا أمام تقليدٍ لمدفأة.

" أي حفلٍ هجرتَ من أجلي؟ "

" حفلَ رجلٍ اسمه رولوسن "

رَسَمَتْ تعبيرَ اشمئزاز على وجهها. " أعرفُ رولي منذ عشرين عاماً. أعتقدُ أنه غير مؤذٍ، لكنه يُخيفني. كأنكَ تنظر إلى نفسك في مرآةٍ مشوَّهة "

" لقد ذهبنا فقط... يعني، لأننا دُعينا إلى هناك ". شعرَ بارتباك لأنها لم تدعه في الأصل إلى حفلها. قالتْ وقد شَعَرَتْ بهذا. " أتعلمْ لماذا لم أدعُكَ؟ "

" بسبب كارلوس؟ "

أومأتْ برأسها إيجاباً.

" أهو هنا الآن، في هذا المكان؟ "

" كلا؛ نزَلَ إلى الطابق السفلي لطلبِ المزيد من الشمبانيا. لا أظنكَ تكره أن تراه، أن تقابله؟ "

" لا، طبعاً لا. أحبّ ذلك "

ثم بدأتْ الأجراس ترنّ ومن المذياع صَدَرَ ضجيجُ قادم من ساحة تايمز وهتف الجميع " كل عام وأنتم بخير! ". وعادَ كارلوس وقبَّلَ ماريا. قال " لقد تأخرتُ كثيراً ". ثم التفتت إلى جيم. " جيم، هذا كارلوس "

تصافحا. قال كارلوس " كل عام وأنتم بخير! "

قال جيم " كل عام وأنت بخير ". وبعد ذلك ببضع دقائق رحل.

الفصل العاشر

-١٠-

في الربيع تلقّى سَليفان سلفيّة من أحد الناشرين ليؤلّفَ كتاباً عن أفريقيا. " وهذا يعني ستة أشهر من السفر، مدفوعة التكاليف. إذا لم أقبلها، فسيتوجّبُ عليكَ أن تعيلني "

" لن أفعل إذا كان في إمكاني ". شعرَ جيم بسرور ممزوجٍ بإحساسٍ بالذنب لدى تفكيره في أنه سيعيشُ وحده من جديد "

" الأمرُ الغريبُ في السفر هو أنكَ ما أن تبدأ حتى يصبحُ من الصعب أن تتوقّف. مثل الإدمان على الخمر. إنني أريد حقاً أن أذهب "

" وأنا كذلك. ولكن لديَّ عملاً أقومُ به "

" وعليك أن تعثُر على شخصٍ آخر ". كانت ملاحظةً مباشرة.

" لستُ أبحثُ بالضبط ". كان جيم حاداً.

" أعلمُ ". وندِم. " آسف. على أي حال، هناك خطأ في وضع رجلين يتساكنان، وكذلك الأمر في حالةِ رجلٍ وامرأة. فإذا لم يُنجِبا أطفالاً، فلا معنى "

" أعتقدُ أننا شديدا الأنانية "

" ومنفصلان. لعلّه أمرٌ جيد. لا أتّفقُ مع وجهة نظر ماريا الشديد الرومانسية حول الحب. إنَّ تأثيرَ كلٌ منا في الآخر كافٍ بمجرَّد وجودنا. كلما عَبَرَتْ النجوم - أم هل أقول مُذنَّبات؟ - ينتقلُ قليل من الشظايا من مدارٍ إلى آخر. وفي مناسبات نادرة يحدث تصادمٌ كُلّيّ، ولكن في أغلب الأحيان يتابعُ الاثنان طريقهما ببساطة دون أن يقع أي حادث، ودون أن يفقد أي منهما أكثر من ذرّة لتنتقل إلى الآخر، لدى مروره "

وهكذا افترقا، مع مجازٍ يتضمَّن النجوم.

في اليوم التالي وكأنما بترتيبٍ إلهيّ آخر، وصَلَتْ رسالةٌ من السيدة ويلارد، ملأى بالأخبار.

كَتَبَتْ تقول " أنت تذكُر بوب فورد، أليس كذلك؟ كان صديقاً حميماً لك في المدرسة. حسن، إنه يعملُ الآن في الأسطول التجاري وعاد إلى أرض الوطن ليقضي إجازة بضعة أيام خلال الأسبوع الفائت. لقد سألَ عنك وكذا فَعَلَتْ زوجته. لا أدري إنْ كنتُ قد أخبرتك قبل الآن أنه تزوج من سالي مرغندال في العام الفائت، وقد أنجبا طفلاً. أنت تعلم أنَّ وظيفة المدرسة ما زالتْ مُتاحةً وإذا أردتَ أن تعود... "

هكذا إذن. عادَ بوب. لكنه متزوِّج. لم يخطر في باله أبداً أنَّ بوب يمكنُ أن يخرجَ بأي حال عن مساره الذي اتَّخذه في تلك الليلة على ضفة النهر. ولكن لابدَّ أنه قد تغيَّر. وتزوَّجَ سالي. أُصيبَ جيم برُعبٍ مفاجئ. أيُعقَلُ أنه انتظرَ سنواتٍ لالتئام شمله مع رجلٍ لا يحبّ إلا النساء؟ كلا. رَفَضَ الفكرة. لقد كان بوب بوضوحٍ ثنائيّ الجنس، حتى وإنْ كان فقط لأنه ما كان لأي إنسان آخر أن يكونَ عاشقاً مثالياً في تلك المناسبة

الفريدة ومن ثم تغيَّرَ تغيُّراً كاملاً. طمأنَ جيم نفسه، ولأنه أرادَ أن يُصدِّق أنه لا شيءَ قد تغيَّر، فلا شيء تغيَّر، بالنسبة إليه. في تلك الأثناء وضَعَ خُططاً ليعودَ إلى فيرجينيا فورَ انتهاء فصل الصيف ويستأنف حياته بالضبط عند النقطة التي انقطَعَتْ فيها في تلك الأمسية الصيفية النضِرة قبل سبع سنين.

*

خلال فصل الصيف جاءَ شو إلى المدينة بمناسبة افتتاح معرِض لوحات شخص آخر وقابله جيم في أحد المطاعم الطعامُ والخِدمة فيه رديئان ولكن يرتاده الكثير من المشاهير ليس فقط ليتفرَّج كل منهم على الآخر ولكن أيضاً على أنفسهم في المرايا التي تغطّي جدران قاعة الطعام.

ذُهِلَ إذ وَجَدَ أنَّ الشيبَ قد نالَ من صِدغَيّ شو، كان يتقدَّمُ بسرعة خارقة نحو منتصف العمر.

قال شو " تبدو وسيماً، جيمي، بل أقولُ وسيماً جداً. إنكَ، من بين كل مَنْ تخرَّجوا من تحت يديّ، الأشد وسامة، ودون مُنازع "

ابتَسَمَ جيم " كأني فِزتُ بكأس ديفيز. شكراً لك. مع مَنْ تسكن الآن؟ "

" لا أحد. كنتُ مع ابن حرام ممتاز، من ديترويت، غطّاس، من دون الأشياء كلها - كما تعلم، من النوع الذي يشترك في الألعاب الأولمبيّة. بُنية جسمه رائعة لكنّه أحمق! يا إلهي لا أعتقد أني تعرَّفت إلى مَنْ يفوقه حماقة. كل ما يريد أن يفعل هو أنْ يشرب البيرة ويسهر في

حانات الشاذين حتى وقتٍ متأخِّر من الليل. لقد طردته. على أية حال، لديه زوجة وطفلان لذا أعتقدُ أني أحسنتُ فعلاً، أليس كذلك؟ لا أحد يُريدُ أن يُحطِّم منزلاً. ماذا كنتَ تفعل؟ "

" كنتُ أعمل "

" وسَليفان؟ "

" رَحَلَ إلى أفريقيا "

بدا التجهُّم على شو. " ليتهم يأكلونه. إنه ابن حرام مُدَّعي. رأيتُ كيف تلقَّى كتابه الجديد انتقاداً قاسياً. وهذا لا يعني أنَّ النقَّاد يعنون أي شيءٍ. إنهم حين يمنعون لوحاتي يأتيني المال، وحين يمدحونها أفتقده. على أي حال، التسلية تسلية "

لاحظَ جيم أنَّ كلَّ مَنْ في المكان يعي حضورَ شو، ولكن للمرة الأولى أبغَضَ جيم جلبَ الانتباه؛ خاصةً حين لاحظَ وجود عددٍ من الرجال كان قد قابلهم في حفل رولوسن، كلُّ منهم يصحب امرأةً، ذلك لأنَّ هذه منطقةٌ للعدو "

" هل تصوِّر فيلماً؟ "

" كلا. في هذه الأيام من الصعب العثور على الأدوار المناسبة. إنني أنتظر. في الاستديو يعتقدون أنَّ الحربَ ستنتهي وسوف يستعيدون النجومَ القديمة وإلى الجحيم نحن الذين كنا نجلب لهم الجمهور. حسن، سوفَ يكتشفون خطأهم. إنَّ غيبل[١٩] لم يعُد يعني أي شيءٍ اليوم "

تساءلَ جيم إنْ كان شو قد انتهى أمره. إنها مهنة شاقة، كما يحب الجميع أن يقولوا.

" سوف يعودون إليّ عندما يحين الوقت. ولكن سيكون الأوان قد فات "

" لماذا ؟ "

تلفَّتَ شو حوله؛ ثم همس " سأتركُ مجالَ السينما؛ سأتقاعد "

" ولن تقوم بأي عمل؟ "

" ليسَ بالضبط. سوف أمثِّل على خشبة المسرح. باشرتُ التدرّب في شهر أيلول "

" هذا رائع "

" لكنه شاقّ. إنني لم أمثِّل قط على خشبة المسرح، ولكن يجب أن أفعل "

" كيف حال والدتك؟ "

" ما زالتْ في بولتيمور. الغريب في الأمر أنها تتفاخرُ بي، طبعاً، ولكن أحياناً أعتقد أنها تمقت نجاحي. تصوَّر أُمَّاً تنافسُ ابنَها! أعتقد أنَّ الناس لا يتغيرون أبداً. على أي حال، إنها سعيدة بزواجي "

" زواجك؟ "

هزَّ رأسه إيجاباً. " إنها فكرةُ الاستديو. يعتقدون أنّ أناساً كثيرين جداً يتبنّون هذه الفكرة. لعلّهم على صواب "

" مَنْ الفتاة؟ "

" كالا بترا. ممثلة هنغاريّة. احتَفَظَ بها رئيس الاستديو بعد أن خسرَتْ مائة دولار وهي تُقامرُ في فيغاس، ساقطة حقيقية. لكني لن أعطيها بنساً واحداً. فليُعطِها هو. لقد وقَّعنا على اتِّفاق قبل الزواج،

صارمة. لن أعطيها أية نقود. على أية حال هي شاذة مسترجلة، وتحتاجُ إلى الدعاية بقدر احتياجي إليها "

" يبدو الأمرُ مُريحاً جداً "

زمجَرَ شو " إنه فظيع "

خلال فصل الصيف تقابلا كثيراً. وفي يوم افتتاح مسرحية شو أعلنَ أنه يتقاعدُ من العمل في السينما، وبعد ذلك بأسبوع أُغلِقَتْ المسرحية، وعادَ شو إلى هوليوود. كان حفلُ زفافه أشدَّ ما شهِدَ ذلك الفصل تألُّقاً.

*

بعد أن غادرَ شو نيويورك، عادَ جيم إلى حياة الحانات. كان يحبّ بشكلٍ خاص حانةً في الجادّة الثامنة حيثُ يجتمعُ الرجال والنساء معاً وبعضُ الرجال كانوا مُتاحين والبعض الآخر ليس كذلك، مما أضفى إثارةً خاصة إلى المفاوضات. كان أكثر مَنْ يحب الأبرياء الذين يقولون في اليوم التالي " يا إلهي، لابد أني كنتُ سكران ليلة أمس! "، ويتظاهرون بأنهم لا يتذكَّرون ما حدث.

في إحدى ليالي الصيف الحارّة، وقفَ جيم على نضد بار يرشفُ البيرة، يتفحَّصُ الموجودين. وكان قد استقرَّ قراره تقريباً على جندي شاب في البحرية ذي عينين زرقاوَين وأسنانٍ ناتئةٍ حين سمعَ صوتاً خلفَه يقول " ألستَ أنتَ ويلارد ؟ "

التفَتَ جيم فرأى بحاراً شاباً أصلع وبديناً. " هذا صحيح، وأنت...؟ ". لم يتذكَّره.

" أنا كولينز، في ألاسكا. أتذكُر؟ "

" طبعاً. تعال. اشرب شيئاً "

جلسَ كولينز مُلتصقاً به على نضد البار. " أنا في البحرية الآن. كنتُ ضابطاً تافهاً لكنَّ رتبتي أُنزِلَتْ "

" وماذا حدث؟ "

" طُرِدتُ ونفَّست عن غضبي في وجه الآمر . مشكلتي المعتادة. هل كنتَ في الخدمة؟ "

" كنتُ في الجيش. سُرِّحتُ منذ عام "

" وماذا تفعل الآن؟ "

أخبره جيم.

" تُكدِّسُ المال "

" نعم. هل ستطولُ إقامتكَ في البلدة؟ "

" لا، سوفَ نُبحِرُ قريباً. هذه حريتي الأخيرة. يا إلهي، يتوفَّرُ لك الكثيرُ، بعيشك هنا، والعملُ الذي تقومُ به. ليتني في مكانك "

" ماذا ستفعل بعد أن تُسرَّح؟ "

" أنا؟ أنا بحَّار. ماذا سأفعل؟ لا أُتقِنُ أي عمل آخر. ذات مرة حاولتُ أن أعملَ في ورشة إنشاءات ميكانيكية ، لكني لم أتحمَّل الوقوفَ في مكانٍ واحدٍ فترةً طويلة، فتركتُه، وتركتُ زوجتي، وعدتُ إلى البحر "

" أأنتَ متزوج؟ "

" مطلّق. عرفتها منذ أن كنتُ صبياً في المدرسة وكانت دائماً ترغبُ

في الزواج مني لكني لم أستطع أن أفعلَ إلى أنْ سكرتُ ذات ليلة وخرقتُها فقالتْ إنه بات " لابد " من أن أتزوجها، ففعلت. أنجبنا طفلاً يعيشُ معها. حدثَ ذلك في مدينة يوجين، في ولاية أوريغون "

" أمرٌ مؤسف جداً ". حاولَ جيم أن يبدو متعاطفاً.

" أعتقدُ أنَّ بعضَ الشبان لم يُخلَقوا ليكوِّنوا عائلات، أنا واحدٌ منهم. الآن لديّ فتاة في سياتل تلهثُ وراء الزواج مني لكني أخبرتها، لقد لُدِغتُ مرةً ولن أُلدَغ مرةً أخرى. ألم تتزوج بعد؟ "

قال جيم " لا. ليس بعد "

" إنكَ أشدُّ وسامة مني. لكني أراهنُ على أنَّ لديكَ فتاةً في نيويورك؟ " هزَّ جيم رأسه سلباً. " فقط واحدة. في الواقع، كنتُ أعملُ كثيراً و... "

"أعلمُ كيف هو الأمر. قُل لي، أينَ ذهبتَ بعد أنْ غادرتَ السفينة؟"

" إلى لوس أنجلوس "

" يا الله، هذه هي مدينتي المفضَّلة! مفتوحةٌ على الآخر. حيثُ كل الفتيات يردنَ أن يستمتعنَ بحياتهنَّ، مثلنا، دون الحديث عن الزواج أو ما شابه من هذا الخراء. هل شاهدت أحداً من نجوم السينما؟ "

" بعضهم "

" مثل مَنْ؟ "

" كالا بترا "

" بلا مزاح! لابد أنها رائعة بصدرها الضخم. هل تحدَّثتَ معها؟ "

" أوه، كثيراً "

" بلا مزاح! ألم تدقّها ؟ "

" كلا، فقط لعبتُ كرة المضرب معها "

قال كولينز بخبث " إنني حتماً أحبُّ أن ألعبَ كرة المضرب معها. وهذه ليست اللعبة الوحيدة التي أحبُّ أن ألعبها معها "

طلَبَ جيم كأساً أخرى من البيرة. في المعتاد يستطيعُ أن يشربَ من الكأس نفسها على مدى ساعة لكن كولينز أثارَ أعصابه ووجدَ نفسه في الواقع يُنهي شرب كأسه، وهو تصرُّف غير اعتيادي.

" أتحبُّ سلاح البحرية؟ "

هزَّ كولينز كتفيه بلا مبالاة. " إنهم حتماً لا يعرفون أي شيء عن البحر. ليتني أعود إلى الأسطول التجاري "

" ولِمَ لا تفعل؟ "

" كنتُ على اليابسة مع زوجتي وكدتُ أتعرَّضُ للنقل، ولكي أتفادى ذلك التحقتُ بالبحرية، لأني لم أرد أن أكونَ في أي قِطاع من الجيش أضطر فيه إلى السير على قَدَميّ "

أثناء ما هما يشربان معاً، كان جيم يُنقِّلُ بصرَه في أرجاء الحانة. لقد رحلَ رجال البحرية. لم يعُد هناك مَنْ يروقُ في نظره. وفي الطَرَف المقابل من البار كان رجلٌ عجوز يحاولُ أن يغوي بحّاراً كان بدوره يحاولُ أن يغوي جندياً. كان وضعاً مضحكاً. ولما كان كولينز غير منتبه للمشهد الهزلي، سألَ فجأةً " هيه، لماذا تركتَ السفينة بتلك السرعة الكبيرة؟ "

كان جيم في انتظار طرحِ هذا السؤال. تكلَّمَ ببطء، وبارتياحٍ زائف. " أردتُ أن أشاهدَ كاليفورنيا ولم أرغب في أن أتجادلَ مع المُشرف، فغادرتُ خفيَةً وعلى عَجَل "

" هذا تقريباً ما تخيّلته "، وأنهى كولينز مشروبه. " كيف حدث وتركتَ تينك الفتاتين في تلك الشقة؟ هذا أمرٌ لم أفهمه قط "

هزَّ جيم كتفيه باستخفاف. " لم تعجبني فتاتي، هذا كل ما في الأمر "

"لقد جُنَّ جنونها، ولكنكَ أحسنتَ فعلاً بالمغادرة في الوقت المناسب"

" لماذا ؟ "

" كانت الاثنتان مصابتين بالسيلان. وأُصبتُ أنا به واستغرَقَ مني الشفاء وقتاً طويلاً "، وضحكا معاً وأخبرَ جيم كولينز عن الرجل الذي أُصيبَ بالسيلان عشرين مرة وشُفيَ منه في كل مرة ما عدا المرة الأولى. أخيراً افترقا وشعرَ جيم بالارتياح لأنَّ إجازة كولينز أوشكَتْ على الانتهاء ولأنهما لن يتقابلا مرةً أخرى.

- ٢ -

ذات يوم بارد حين كان لونُ سماء الشتاء برتقالياً ورمادياً مُراً وسديمُ الصقيع يُخيِّمُ على المدينة، عاد جيم إلى أرض الوطن لقضاء عيد الميلاد.

وقَفَتْ السيدة ويلارد في المدخل المسقوف بينما كان ابنها يسيرُ على المشى مقترباً من المنزل. أجفلَ من مظهرها. الشعر أبيض، شَعث كعهده دائماً، والوجه شاحب ومُخدَّد؛ لقد تقدَّمَتْ في العمر أثناء غيابه. تعانقا وتعلَّقَتْ هي به، وشدَّته إليها بقوة، ولم تنطق، واكتفَتْ بضمِّه. ولَجا المنزل الذي، تقريباً، لم يتغيَّر أي شيءٍ فيه. الردهة كانت مُقبضة كعهدها دائماً، على الرغم من وجود شجرة الميلاد تتلألأ بأضواءٍ صغيرةٍ تُصدرُ أزيزاً.

انتابَ جيم شعورٌ غريب بأنه انتَقَلَ إلى زمنٍ آخر. التفَت إلى أمه وتبادلا النظَر دون أن ينطقا، كغريبَين يشتركان في ذكرى واحدة.

أخيراً قالتْ والدته " لقد كبرتَ، يا جيم؛ تغيَّرت "

" أعتقدُ أننا جميعاً نتغيَّر ". لم يكن جوابه كافياً.

" تبدو أقرب شبهاً بجانب عائلتي. لم تعُد تشبه والدك في شيء. كنتَ كذلك من قبل "

رأى في قسمات وجه أمه قسماته هو بعد أنْ نالتْ منها الشيخوخة وأخافَه التفكيرُ في الشيخوخة والموت.

كذبَ، قال " لم تتغيَّري كثيراً "

ضَحِكَتْ بصوتٍ خافت. " أوه، بل نعم، تغيَّرتُ. أنا امرأةٌ عجوز الآن. ولكن لا مانعَ عندي. إذا لم تكن جميلاً أصلاً، تجعلُ الشيخوخةَ مظهرَكَ أفضل، كما يُقال، تُضفي عليكَ سِمةً خاصة "

نظَرَ إلى وجهها على ضوء شجرة الميلاد واتّفَقَ معها. لقد تحسَّنَتْ مع مرور الوقت؛ أنجزَتْ وجهاً خاصاً بها، شيئاً كانت تفتقرُ إليه في السابق.

"ألا تنوي أنْ تتزوج، يا بني؟". كان غريباً أنْ يعودَ ابناً من جديد.

" ذات يوم "

" كلما تقدّمتُ في العمر ازدادتْ قناعتي بأنَّ على الناس أن يتزوجوا باكراً. أحياناً أعتقدُ أنَّ سبب عدم توافقي مع والدك كما كان ينبغي يعودُ إلى أننا تأخَّرنا كثيراً في الزواج. إنكَ في السن المناسبة تماماً للاستقرار "

" ربما "

" يوجد هنا بعض الفتيات الجميلات ينضجنَ، ويصلُحنَ زوجات رائعات. سوفَ تقابلهنَ أثناء وجودك في الوطن. يجب أنْ تتزوج فتاةً جميلة من هنا بدل أن تتزوج إحدى فتيات نيويورك، وإنْ كان هذا ليس من شأني ". ابتسم جيم : ليس لأهل نيويورك سُمعة طيبة في الجنوب.

سألَته عن أحوال عمله فأخبرها. وسُرَّتْ. " أنا سعيدة لأنك تكسب نقوداً. لا أحد في هذه العائلة فعلَ ذلك من قبل وقد حانَ الوقت لأحد أفرادها أنْ يفعل. لكنَّ المالَ ليسَ كل شيء، أليس كذلك؟ أقصد أنَّ الزواجَ والاستقرار والاستمتاع بالحياة، أحياناً أكثر أهميّة، ألا تعتقد هذا ؟ ". عاجلاً أو آجلاً كانت ستَقترحُ أن يبقى في الوطن إلى الأبد.

" لا أدري، يا أماه. في الحقيقة أنا لم أفكِّر كثيراً بعد في الاستقرار. لدي عمل في نيويورك وما دامت أحواله جيدة سألتزمُ به "

حينَ لاحظَتْ منه مقاومة غيَّرَتْ الموضوع. " أخوك أصبحَ الآن مُلازماً. إنه في القوى الجويّة ويمكنُ أن يذهبَ إلى ما وراء البحار في أي يوم. لا أدري لماذا، ما دامت الحرب قد أوشكَتْ على الانتهاء، أو هذا ما تقوله الصحف "

" ألن يحضر إلى هنا في عطلة عيد الميلاد ؟ "

أومأت برأسها إيجاباً. " لديه إجازة بضعة أيام. إنه شاب شديد الذكاء ". تساءلَ جيم إنْ كانت لا تحبَّ ابنها الأصغر، لقد تغيَّرت أمه دون أدنى شك. أصبحَ كل شيء ممكناً.

" هل تؤجّرين غُرَفاً الآن؟ "

كانت قد كَتَبَتْ تُخبره عن هذا الأمر. " فقط لزوجَين، رجلٌ وزوجته.

سوفَ تُقابلهما على مائدة العشاء. ستكون كاري وزوجها حاضرين أيضاً على العشاء "

حين وَلَجَ جيم غرفة الطعام كان الجميع على المائدة. قدَّمته أمه إلى المستأجرَين؛ ثم صافحَ صهره وقبَّلَ أخته. أصبحَتْ كاري بدينة؛ كأنَّ صدرها ووركيها توشك أنْ تنفجر خارج ملابسها. بدَتْ، من دون مساحيق تجميل، مُتعبة ولكن ودوداً، وكان ظاهراً أنها سعيدة مع زوجها وهو من النوع المحبوب الذي يُلبّي كل ما تطلبه منه.

نظرَتْ كاري إلى أخيها بإعجاب. " في الواقع، يا أماه، إنه جميل كما كان دائماً. لقد استأثرَ بحقّ بكل ما في هذه العائلة من وَسامة ". كان ضحكها أشبه بانفجار ولم تتوقَّف إلا عندما قال لها زوجها ما تحبّ أن تسمعه : أي أنها هي أيضاً جميلة.

أثناء تناول وجبة العشاء تحدَّثوا عن عمل جيم وعمّا إذا كان مُربحاً، وإذا عادَ للاستقرار في الوطن، كما يرغبون جميعاً، ألا يستطيع أن يقومَ بالعمل الذي كان يقومُ به في نيويورك؟ وطبعاً طَرَحَتْ كاري السؤالَ المحتوم : " ومتى ستتزوج، جيم؟ "

هزَّ كتفيه باستخفاف. " حين تطلب إحدى الفتيات يدي ". ضحكَ الجميع على ذلك.

قالت أخته، وفمها مملوء " كنتَ دائماً حبيّاً مع الفتيات. عليكَ بحقّ أن تستقرّ. لا شيء يُضاهي ذلك، أليس كذلك يا عزيزي؟ ". وافقها زوجها على أنه لا شيءَ يُضاهي ذلك. وجدَ جيم الحفلة التنكرية مُقبضة للنفس. حاولَ أن يُغيّر الموضوع وفَشِل.

قالت أمه بهدوء " سوفَ يتزوج جيم حين يصبح مستعداً للاستقرار. أعتقدُ أنه كان حكيماً حين لم يتزوج أثناء تنقُّله حول العالم "

تحدَّثوا عن الزواج، وعن الناس المطمئنّين الذين تسيرُ حياتهم وِفقَ النمط المألوف، وتجربة كلّ واحدٍ منهم تشبه تماماً تجربة الآخر. ولكن حين حاولوا أن يُسْدوا النُصحَ لجيم، لم يشكّ أيٌ منهم في أنَّ حِكمتهم الجمعيّة لا تفيده في شيء، وأنَّ نَمَطَ حياته يختلفُ عن نمط حياتهم. هذه الحقيقة أحزنته، وأزعجته خلال الحفل التنكّري الذي لا ينتهي. أضجرته أكاذيبه التي لابدّ منها. كم تاقَ إلى أن يخبرهم بحقيقته العارية بدقَّة! وفجأةً تساءلَ ماذا سيحدثُ لو أنَّ كلَّ رجلٍ مثله كان طبيعياً وصادقاً. لاشكَّ في أنَّ الحياة ستكون أفضل للجميع في عالمٍ يُعتَبَرُ الجنسُ فيه طبيعياً ولا يبعثُ على الخوف، ويستطيعُ الرجالُ أن يُحبّوا الرجال بصورةٍ طبيعيّة، كما خُلقوا، وأنْ يحبّوا النساء بصورة طبيعية، كما خُلقوا. ولكن حتى وهو جالس على طاولة المائدة، يفكِّرُ في الحرية، كان يعلمُ أنَّ من الخطورة أن يكونَ الإنسانُ صادقاً؛ وأخيراً، كان يفتقرُ إلى الشجاعة.

قالت كاري " بالمناسبة، أتعلمْ أنَّ بوب فورد قد تزوَّجَ من سالي مرغندال؟ "

" كَتَبَتْ لي أمي بهذا الشأن. أين هو... أين هما الآن؟ "

" هي تعيشُ هنا مع عائلتها، وهو في البحر، ولكني أعتقدُ أنه سيعودُ في غضون بضعة أيام. سوفَ يحضر حفل عيد الميلاد الذي سيُقام هنا عند آل مرغندال. وأنت مدعوّ. ولديهم طفلة صغيرة جميلة جداً، ذات شعر أحمر قانٍ مثل شعر بوب "

*

" يا إلهي يا جيم كدتُ لا أعرفكَ أبداً؛ لقد كبرتَ كثيراً! أليس كذلك، يا عزيزي؟ "، والتفَتَتْ السيدة مرغندال إلى السيد مرغندال وحصلَتْ على موافقته. وتابعَتْ، وهي مُطمئنّة بين جمهورها. " إنه رجلٌ مكتملٌ الآن. كلهم كذلك. وكأنكَ بالأمس فقط كنتَ تشاركُ في دورات لعبة كرة المضرب تلك كلها في المدرسة. والآن انظر إلى نفسك! وكل الفتية الآخرين الذين التحقوا بالجيش تزوَّجوا، وأضحَتْ فتاتنا الصغيرة أماً! "

غمَزَ السيد مرغندال لجيم. " يستحسن أن تدعيه وشأنه، يا أماه لكي يستطيع أن يُقابلَ الصبايا اللواتي يتحرَّقنَ إلى لقائه. لدينا عددٌ كبيرٌ منهنّ ". استأذَنَ جيم ودَخَلَ غرفة الجلوس العتيقة الطراز والمزدحمة. أمسكتْ به كاري من ذراعه. " سأقدِّمكَ إلى الموجودين "

تعرَّفَ إلى العديد من الناس؛ بعضهم كان يعرفهم منذ أيام المدرسة، وآخرون من البلدة. تذكَّره الجميع وبدا عليهم السرور الحقيقي لأنه عادَ، متذكّرين أحداثاً كان قد نسيها. وكما يحدثُ في الأحلام، راحَ ينتقل من مجموعةٍ إلى مجموعة باتجاه نقطةٍ مركزيةٍ حيثُ كان يعرفُ أنَّ بوب موجود.

ثم شاهدَ سالي مرغندال - أصبحَ اسمها الآن سالي فورد - وانفصلَ عن كاري ليتحدث إليها. سالي أضحَتْ الآن امرأة حسناء ممشوقة القامة ذات شعرٍ فاحم مضفور حول رأسها. تصافحا بحرارة، واخذَ كلٌ منهما يتفحَّصُ الآخر، بحثاً عن دلائل تغيُّر.

قال جيم " تهانينا! "

" على الطفل؟ أم على زواجي من بوب؟ "

" على كليهما ". بدا مرِحاً من صوته، ومع ذلك كانت منافسته.

" هذا لطفٌ منك، يا جيم. هيا، فلنجلس. لدينا الكثير لنتناوله "، وجلسا على أريكة من شَعر الحصان. كان حديثهما يقطعه وافدون جُدُد أرادوا أنْ يُحيّوا جيم.

"أترى كم أنتَ معروف؟ أوه، ينبغي عليك بحقّ أن تستقرّ هنا معنا"

" أسَمعتي أنني لا أنوي أن أفعلَ ذلك؟ "

" في الواقع، ليس بالضبط، ولكنكَ تعلم كيف يعرف الكلُّ شؤون الآخرين في هذا المكان. إننا نقضي وقتنا كله في التحديق بتطفُّل، حتى وإنْ لم يكن هناك ما يُثيرُ الاهتمام. نحن جميعاً نعرفُ بعضنا بعضاً معرفةً جيدة "

" أين بوب؟ "

عَبَسَتْ. " في نيوبورت نيوز، مع سفينته. ولن يأتي حتى يوم غد. وحين يصل ما رأيكَ في أن تنضمَّ إلينا نحن الثلاثة على مائدة العشاء؟"

" يسرني هذا. أعتقدُ أنَّ بوب هو وكيل ربان، أليس كذلك؟ "

" نعم. لكنه سيغادرُ حالما تنتهي الحرب "

" كيف ذلك؟ إنه يحبّ البحر "

" لكنَّ والدي يحتاجُ إليه في مجال التأمين، والجميع يعتقدون أنَّ بوب يصلحُ أن يكونَ بائعاً ممتازاً، ويقولُ والدي أنه حين يتقاعد يمكنُ لبوب أنْ يحصل على الشركة "

" سيكونُ ذلك أمراً رائعاً له ". أدركَ أنَّ الشَرَك الرقيق قد أُلقيَ

على كتفيَ بوب الكارهَين. ولكن أهما حقاً كارهَين؟ أيمكنُ أن يكونَ قد تغيَّرَ؟ أمرٌ ممكن.

" لقد طافَ بما يكفي. على أي حال، هناك الكثير جداً مما يستحقُّ المشاهدة في العالم. ثم أينَ كنتَ أنت؟ مهما يكن، إنَّ أصدقاء كلهم موجودون هنا ويستطيعُ أن يحصل على عملٍ جيد. أعتقد أنَّ الأمورَ سوفَ تجري في أفضلِ مسارٍ لنا كلنا. لا أطيقُ صبراً حتى أريكَ الطفلة "

" هل بوب صالح... كوالد؟ "

" في الواقع، لم يتدرَّب كثيراً على ذلك. حالياً هو يعتقد أنَّ الطفلةَ دميةٌ يلعبُ بها إلى أن تبدأ بالبكاء حين يريدُ أن يلوي عنقها. ثم يقولُ إنني أهتمُّ بالطفلة أكثر من اهتمامي به، فأقولُ له إنَّ الطفلةَ وهو شخصٌ واحد. وهذا صحيح "

" وهل فهِمَ هذا؟ "

" يعني... نعم، أحياناً. أنتَ تعرفُ كيف هو "

" لم أعُد متأكداً إنْ كنتُ أعرفه"

" لقد مرَّ وقتٌ طويل فعلاً، أليس كذلك؟ وأصبحَ مختلفاً. طبعاً مظهره لم يتغيَّر. لكنه أصبحَ يضحكُ أكثر مما كان يفعل. لقد كان يميلُ إلى التجهُّم وهو شاب صغير. وطبعاً كان حينئذٍ مولعاً بالفتيات. ولا تزالُ تصله رسائل من فتياتٍ من كل أرجاء العالم. ويدعني أقرؤها وهي مثيرةٌ للشفقة. لكني لا أغار. لا أدري لماذا. اعتقدُ أنَّ السبب هو أنه عادَ إليَّ، على الرغم من أنه لم يكن مضطراً "

بينما هي تتكلَّم تساءلَ جيم إنْ كان بوب قد انجَذَبَ مرةً إلى

الرجال. مما قالته - وما شكَّ فيه - بدا ذلك مُستبعَداً. مما يعني أنَّ تجربتهما كانت فريدةً من نوعها. وهذا يعني أنَّ بوب ضاجعه ليس بدافعٍ من اشتياقه العارم للذكور وإنما بدافع الحب. وكونه الآن أصبحَ يُفضِّلُ النساء على الرجال جَعَلَ علاقتهما أكثرَ استثنائيّة وأقوى.

لم يخدع جيم نفسه بالاعتقاد بأنَّ عودته سوف تعني نهاية زواج بوب. إنَّ حلمَ فتوَّتهما في الإبحار معاً لم يعُد عملياً. لقد وَقَعَتْ أحداثٌ كثيرة، وكل واحد منهما أصبحَ جزءاً من العالم. ومع ذلك لا سببَ يُبرِّرُ عدم استمرار العلاقة العاطفية، خاصة إذا ما عادَ إلى فيرجينيا وقَبِلَ العمل في المدرسة الثانوية. والتقاربُ سوفَ يتولّى الباقي. وتساءلَ حول كوخ العبيد القديم القائم عند النهر. أما زال موجوداً هناك؟

كانت سالي ما تزالُ تتكلَّم. " لا أريدُ أن أكونَ دقَّة قديمة. وأعتقد بحقّ أني لستُ كذلك. أؤمنُ بانَّ على الرجل أن يُقيمَ علاقات عاطفية كثيرة مع النساء قبل أن يستقرّ مع واحدة. وقد أخبرتُ أمي بهذا وحسِبتُ أنها ستنفجر. وهي تقولُ إنها لن تتوصَّل أبداً إلى فهم الجيل الشاب "

" متى تنتهي الحرب مع ألمانيا. هكذا يقولون. والدي لديه صديقٌ في واشنطن يستطيعُ أن يُدبِّر الأمرَ إذا ما ظهرتْ أي مشكلة. هل ترغب بشيءٍ من البنش، جيم؟ أنا شديدة الظمأ "

عَبَرَ جيم الغرفةَ المزدحمة، وهو يبتسمُ لكل مَنْ رغبوا في التحدُّث معه. ودُهِشَ لكونه يحظى بالشعبية. ليتهم فقط يعلمون. عند طاس البنش وَجَدَ نفسه وجهاً لوجه مع أخيه.

كانَ جون ممشوق القامة أسمرَ البشرة وبدا أنيقاً بزيّه الرسمي. كرهه جيم كما كرهه دائماً. كان واثقاً من نفسه بصورة مدهشة والجميع قالوا إنه " سيترك بصْمَتَه " وهو صدَّقَ هذا، أيضاً. كان سيشقُّ طريقَه في مجال السياسة.

" ما الأخبار، جيم؟ منذ زمنٍ بعيد لم أرَك ". كان صوتُ جون قوياً وعميقاً؛ لاحظَ جيم أنه كان يُفرِطُ في الشرب. تبادلا التحيّة والمديح الروتيني. ثم أومأ جون باتجاه سالي. " ظريفة، أليست كذلك؟ "

" نعم، تعجبني "

" من المؤسف أنَّ بوب لم يحضر الحفل. لابد أنكَ مشتاقٌ إلى لقائه من جديد "

تساءلَ جيم إنْ كان جون يعرفُ أخباره. كان أخوه داهية ومن الجليّ أنه يتذكَّر كم كان قريباً من بوب حين كانا في عمر الفتوة. ولكن أيكفي هذا لإثارة ريبته؟ أم أنَّ معرفة الآخر تستغرقُ وقتاً طويلاً؟ ابتسمَ جيم لنفسه لهذه الفكرة. يقولون، إنَّ هذا غالباً ما يقعُ في أحسن العائلات. وألقى على أخيه نظرةً متأمّلة.

" ما الأمر؟ "

" أوه... لا شيء. كنتُ فقط أفكِّرُ. يستحسنُ أن أحملَ كأسَ البنش إلى سالي "

قال جون بصوته الساخر العميق " لا تدعْ أحداً يفاجئكَ وأنتَ تقفُ تحتَ نبات الدبق "

" ما الذي أخَّرَك؛ خشيتُ أنْ تكونَ قد هجرتَني ". كانت سالي ظريفة.

" كلا، كنتُ أتحدَّثُ مع أخي "

قالت سالي فورد " لابدَّ أن العودةَ إلى الوطن شيءٌ رائع "

*

حلَّ يوم دعوة العشاء وكان جيم متوتِّرَ الأعصاب. تكلَّمَ مع أمه بحدَّة حين قالتْ له إنَّ عليه أن يرتدي معطفاً، وفَقَدَ أعصابه مع أخيه، الذي تركَ قلمه الحبر الموجود في درج طاولة المكتب يرشح ويلوِّثُ قميصه الأبيض كله. وبعد أن دخلَ في شِجارٍ مُرضٍ مع أخيه، غادرَ المنزل.

قرَعَ جيم باب منزل آل مرغندال، وقلبه يضربُ بقوة. فتحَ بوب.

صافحه جيم، وهو في حالة انبهار، ولا يكادُ يقوى على النطق.

كان بوب يقول " كيف حالك يا رجل، ادخل وتناول مشروباً "، وقاده إلى غرفة الجلوس. " العجائز خرجوا لتناول طعام العشاء وسالي في الطابق العلوي تفعلُ شيئاً للطفلة. يا إلهي، ما أروع أن أراك. تبدو كما أنت. كيفَ جرتْ أحوالك؟ "

كان صوت جيم مبحوحاً حين أجابَ أخيراً " جيدة، كانت جيدة. وأنت أيضاً تبدو بحالٍ جيدة " وكذا بدا بوب.

دُهِشَ جيم إذ اكتشفَ أنه كان قد نسيَ شكلَ بوب. لطالما اعتقدَ أنَّ الصورةَ التي يحملها له في ذهنه دقيقة، ولكن من الواضح أنَّ ذاكرته كانت انفعالية، وليستْ موضوعية. لقد نسيَ كم أنَّ شعرَ بوب الأحمر اللون قانٍ، وأنَّ عينيه زرقاوان كبحر الدائرة القطبية الشمالية. وحده الجسَدُ بقيَ كما يتذكّره؛ طويلاً ونحيلاً وضخماً عند الصدر. بدا وسيماً بالزيِّ الرسميّ.

جلسا أمام الموقد ونسيَ بوب أنْ يُحضِر المشروب. هو أيضاً كان يُجري مسحاً له. أتراهُ يتذكَّر كل شيء؟

أخيراً قال بوب " لقد اختفيتَ دون إنذار "

" أنا ؟ بل أنت! لقد بعثتُ لكَ رسائل كثيرة لكنكَ لم تكن توجدُ حيثُ وَجَّهتُ الرسائل "

" في الواقع، كنتُ أتنقَّلُ كثيراً، مثلك "

" كلانا فعلَ ذلك "

" هيه، ألمْ تقابل سالي بعد ؟ منذ أنْ عدتَ؟ "

" قابلتُها في حفلِ عيد الميلاد "

" هذا صحيح. نسيتُ. وهي التي دعتكَ إلى هذه الأمسية "

" إنها فتاةٌ رائعة ". أرادَ جيم أنْ يُثبت هذا منذ البداية.

" يسعدني أن كُلاً منكما أُعجِبَ بالآخر. أظنَّ أنكَ لم تتعرَّف عليها جيداً أيام المدرسة، أليس كذلك؟ "

" كلا، لكني أذكر أنكَ كنتَ ترافقها منذ ذلك الحين "

" وأنت متى ستتزوج؟ ". ذلك السؤال مرةً أخرى.

" ليس في الوقت الحاضر "

" أتفكِّر في العودة والعيش هنا ؟ "

هزَّ جيم رأسه إيجاباً. " أظنّ أني قد أفعل. سوف تكون أنت مُقيماً هنا ، أليس كذلك؟ "

" هذا ما يطلبونه مني. يبدو أني سأنخرط في مجال التأمين، مع والد سالي. الجميع يرون أني سأنجح فيه "

" لكنك تفضِّل أنْ تعمل في البحر ؟ "

تململ بوب بانزعاج في كرسيه، وهو يُصالبُ ساقيه الطويلتين. ثم

يعيدهما إلى وضعهما السابق. " إنني في البحر منذ ما يقاربُ العشر سنوات وقد حقّقتُ مكانةً جيدةً. ولن يكون سهلاً الانتقال إلى اليابسة. ولكن إذا كان هذا ما تريده سالي... "

" إنها تريده. وأنت ألا تريده؟ "

" نعم، أريده ". كان بوب غيرَ هيّابٍ، بل ووقحاً. ثم غيّرَ رأيه بسرعة. " وربما لا "

" لا أفهمُ ما الخطأ في مهنة البحّار، خاصةً وأنكَ تُحقّقُ مكاسبَ مالية جيدة. ما الذي لا يُعجب سالي في هذا؟ "

" أنتَ تعرفُ النساء. إنّهنَّ يردنكَ حيثُ يمكنهنَّ أن يرينكَ طوالَ الوقت. تقولُ إنها لا تشعرُ أنها متزوجة أثناء غيابي "

" إذن ستستقرُّ هنا "

هزَّ بوب رأسه إيجاباً وبكآبة. " سأستقرُّ هنا. أوه، لا بأس، سأتعودُّ. وتعجبني فكرةُ كوني ربَّ عائلة "

" إذن أعتقدُ أني سأعودُ، ربما "

" سيكونُ ذلك أمراً رائعاً، كما في السابق. غريب، لقد عرفتُ أنماطاً كثيرةً من الفتيات لكني لم أعرف أبداً شبّاناً معرفةً جيدةً، إلا أنت. جميلٌ أن يكونَ لي على الأقل صاحبٌ واحد في البلدة؛ أن ألعبَ كرة المضرب معه "

" لكنكَ أبرع مني بما لا يُقارن. أنت مُحترف وأنا لم أمارس اللعب منذ سنين. ولكن حتماً سيكونُ أمراً ممتعاً أن ألعبَ من جديد ". كان الحنين يملؤه وشعرَ جيم بلحظةِ انتصار. سوف يعودُ بوب إليه، بالسهولة

نفسها، والطريقة الطبيعية اللتين ذهبَ معه بهما في المرة الأولى.

قال بوب بصوتٍ حالم، وهو ينظر إلى النار " لقد أمضينا وقتاً ممتعاً حين كنا يافعَين ". ونظرَ جيم بدوره إلى النار. نعم، هكذا كان الأمر: النار والجو الذي يُشيعه ضياء النار. سوفَ يحدث الأمرُ من جديد. كان واثقاً من ذلك.

" لقد أمضينا وقتاً ممتعاً ". أخذَ جيم عهداً على نفسه ألاّ يكونَ أول مَنْ يأتي على ذِكر الكوخ.

" أحياناً أتمنى لو أننا درسنا في الجامعة معاً. لعلَّ فكرة اللجوء إلى البحر كانت خطأ، وإنْ كانت ممتعة. أنت رحلتَ فقط لأني أنا رحلتُ، أليس كذلك؟ "

" هذا أحد الأسباب "

" أتظن أني... أننا ارتكبنا خطأ؟ "

تفحَّصَ جيم النار. أخيراً قال " لا، لقد فعلنا ما توجَّبَ علينا أن نفعله. أعتقدُ أنه كان طبيعياً من ناحيتك أنْ تصبح بحّاراً وبالنسبة إليَّ أنْ أصبحَ لاعبَ كرة مضرب. نحن لم نكن أبداً مثل باقي الناس هنا. لم نكن مروَّضَين. لقد فررنا. وقد كرهوا هذا. الآن فقط عُدنا "

ابتسمَ بوب. " أنتَ الشخص الوحيد الذي يفهم لماذا كان يجب أن أذهب إلى البحر. نعم، لقد قمنا بالعمل الصحيح. والآن هل من الصواب أن نعود؟ هل تستطيع أن تعود وتعيش في المنزل نفسه، مع الأشخاص أنفسهم يوماً بعد يوم؟ أممكنٌ هذا؟ "

" لا أدري. ببساطة لا أدري. طبعاً هكذا أسهل بالنسبةِ إليّ.

أستطيع أن أعلّم كرة المضرب لكنكَ حتماً لا تستطيع أن تكونَ بحّاراً على اليابسة. أعتقد أنَّ عليكَ أن تفعل ما تشعر أنَّ عليك فعله ". قال جيم هذا وفي رأسه خاطرٌ آخر.

تنهَّدَ بوب. " لا أستطيعُ اتخاذ قرار "

أرادَ جيم أن يساعده لكنّه لم يستطع. قال " انتظر، انتظر ريثما يحدثُ أمر. الأمور دائماً تحدث "

كان الصمتُ يلفّهما أمام النار. سمعَ جيم صوتاً مكتوماً لطفل وليد يبكي في الطابق العلوي. كانت طفلة بوب.

أخيراً سأله جيم " كيفَ حال والدك؟ "

" توفي. في الشهر الفائت "

" هل رأيته قبل أن يموت؟ "

" كلا "

" ألم يرغب في رؤيتك؟ "

" يقولون إنه كان مجنوناً. كان مجنوناً على مدى السنوات الخمس الأخيرة. ما كان حضوري ليفيدَ في شيء. ثم إنني أنا لم أرغب في رؤيته. لم يكن يهمّني إنْ ماتَ أم لم يُمتْ ". كان بوب واقعياً، وخالياً من أي إحساسٍ بالمرارة. فجأةً سأله " أليست لديك فتاة يا جيم؟ "

" لا "

" هذا خليقٌ بك. ما تزالُ حييّاً مع النساء. ولكن يجب أن تنتقي واحدة. إنَّ الانتقال يُهلكُ المرء "

" آملُ أنْ أجدَ أحداً حين أعودُ إلى هنا "

" حينئذٍ نكونُ نحن الاثنان متزوجَين. يا إلهي، لمْ يخطر في بالنا مرةً أننا سنبلغ هذه السن، أليس كذلك "

" لا. أبداً "

" وفي غضون بضع سنوات سوف نصل إلى منتصف العمر ومن ثم إلى الشيخوخة ومن ثم نموت "

"شيء كئيب، أليس كذلك؟". ضحكا معاً. ثم جاءت سالي إلى الغرفة.

" مرحبا، جيم "

سألها بوب " كيف حال الطفلة؟ "

" نائمة. شكراً لله! أنت لم تقدّم مشروباً إلى جيم "

" آسف. ماذا ترغب؟ "

" لا شيء. شكراً "

قالت سالي " إذن سندخل ونتناول طعام العشاء "

كان الطعامُ طيباً وتحدثوا عن أهل البلدة وعن عائلاتهم وعن الحرب الناشبة في ألمانيا. ووسط حميميّة غرفة الجلوس العائلية، كان جيم في حالةٍ من السكينة التامة. لم يكن مضطراً على أنْ يقومَ بأية حركة. كان الأمرُ يحدثُ من تلقاء ذاته. قريباً سيجتمعُ شمله ببوب. ولاشك في أنَّ بوب هو الذي دبَّرَ بدهاء لاجتماع حياتهما." أعتقدُ أني سأنتقلُ إلى نيويورك خلال شهر أيار. فلنجتمع حينئذٍ هناك ونمضي وقتاً قاصفاً أخيراً قبل أن توصَد أبواب السجن العتيقة! "

ابتسمَتْ سالي باستغراق.

قال جيم. " سيكونُ ذلك رائعاً. سأعطيك عنواني وتتصل أنت بي حالما تصل إلى المدينة "

- ٣ -

خلال ذاك الربيع حاولَ جيم أن يُرهِق نفسه بالعمل لكي لا يفكِّر في بوب. لكنَّ ذلك كان صعباً. ومع حلول شهر أيار لم تكن الأحوال قد تحسَّنَت وانصَرَمَ الشهر دون أن تصله أي كلمة من بوب. أخيراً كَتَبَتْ له سالي، أخبرته أنَّ بوب ما يزالُ يعملُ في البحر. أليس ذلك أمراً فظيعاً؟ ولكن على الأقل انتهت الحرب أخيراً ولن يحتفظ به الأسطول التجاري أكثر من ذلك.

بعد مُضيِّ عام ظهرَ بوب أمام شقة جيم. تصافحا وكأنهما تقابلا فقط بالأمس القريب.

نظرَ بوب باستحسان إلى الشقَّة وقال " بيتك رائع. ألا تكره أن تتخلّى عنه من أجل فيرجينيا؟ "

ابتسمَ جيم. " لم أتخلَّ عنه بعد "

جلسَ بوب على أحد الكراسي ومدَّ ساقيه الطويلتين. كان ما يزال يرتدي الزيّ الرسميّ. غمغم من جديد " مكانٌ رائع "

" متى ستستقيل؟ "

تجهَّمَ بوب. "اللعنة إنْ كنتُ أعلم. لديّ فرصة الآن للحصول على مركزِ ربانِ سفينة. وهذا إنجازٌ لَمْ في مثلِ سنّي، وأكره أن أرفضه "

" وسالي؟ "

" هذه هي المشكلة... سالي. لا أدري ماذا سأفعل. هي تريدني أن أعودَ إلى الوطن "

" وأنت لا تريد؟ "

" كلا "

" إذن، لا تفعل. إنها حياتك. إذا كنتَ سعيداً في البحر، فابقَ هناك. سالي ليست المرأة الأولى التي تتزوج من بحّار "

هزَّ بوب رأسه موافقاً. " هذا ما قلته لها لكنها تُصرُّ على استقراري. وعائلتها أيضاً. أحياناً أظنُّ أنه رأي عائلتها أكثر منه رأيها. تبدو سعيدةً كلَّ السعادة وهي مع الطفلة. أعتقدُ أنها لا تشتاقُ إليّ إلى تلك الدرجة "

قال جيم، الذي كان يُفضِّل أن يبقى بوب في البحر، " يجب أن تستقرّ على قرار ". سوف يفترقان فتراتٍ طويلةٍ، لكنه سيفترقُ عن سالي أيضاً. " ما رأيك في تناول العشاء معاً؟ "

ذهبا إلى مطعمٍ إيطالي واشتركا في شربِ زجاجةٍ من الكيانتي. قريباً ستنغلق الدائرة.

سألَ جيم بعد أنْ انتهيا. " أينَ تريد أن تذهب؟ "

" لا يهمني. إلى أي مكان يمكنني أن أسكر فيه "

" هناك حانة أعرفها "

تمشّيا في هواء الليل الدافئ حتى إحدى الحانات يتصيَّد فيها الرجالُ الرجال. كان جيم تواقاً إلى رؤية ردَّة فعل بوب. جلسا على إحدى الطاولات وطلبا ويسكي. كان هناك عددٌ كافٍ من النساء لكي يُخفي عن عين الناظر العابر طبيعة المكان.

تلفَّتَ بوب حوله. أخيراً قال " لا يوجدُ العديد من النساء هنا "

" لا، ليس الكثير. أتريد واحدة؟ "

ضحكَ بوب. " هيه، أنسيتَ أني رجلٌ متزوج؟ "

" لهذا أحضرتكَ إلى هنا؛ حيث لا توجدُ غواية "

شربا وتحدَّثا. استعادا مودّتهما القديمة، وهذا يعني أنَّ بوب كان يقودُ دفَّة مُعظم الحديث، في حين أنَّ جيم أنصتَ وانتظر. وبينما كان بوب يتكلَّم عن الحياة في البحر، كان جيم يراقبُ مشهداً هزلياً يجري على نضد البار. كان ربّانٌ في القوى الجوية يلتصقُ ببحّار. كانا يتحدثان، وسيقانهما تنضغطُ معاً. ثم غادرا، متوردّي الوجهين، وبعيونٍ تشع. الشبابُ ينجذبُ إلى الشباب، خِلافاً لِما يحدث للعجائز الحزانى، المشتاقين ولكن تنقصهم الجاذبية، الذين يحاولون مع فتى، ثم مع آخر؛ المتعوّدين على الصدّ، ويفتشون دائماً عن ذلك النمط الاستثنائي الذي يحبّ العجائز، أو المال.

قال بوب فجأةً، مومئاً إلى نضد البار " يبدو ذاك الحشدُ من الشاذين "

قال جيم وقد انتابه شيء من الخوف " هذه هي نيويورك ". ماذا لو أصابَ الرعبُ بوب؟ هل أصبحَ يُغالي في استخدام قوة يديه؟

" أعتقدُ أنَّ هذه هي نيويورك؛ مملوءةٌ بالشاذين. يبدو أنهم ينتشرون في كل مكان في هذه الأيام. حتى على متن السفينة. ذات مرة كان لديّ ربان كان كذلك، لكنه لم يزعجني أبداً. كان يحبّ الزنوج. أعتقدُ أنَّ فيها من الأنواع كلها. أتريد مشروباً؟ ". طلبَ بوب جولة أخرى.

ارتاحَ جيم لأنَّ بوب أبدى تسامُحاً.

أخيراً سألَ بوب " أتعرف أي نساء؟ أعني فقط لتبادُل الحديث معهنّ. قد تقتلني سالي إذا ما فعَلتُ أي شيء آخر. لهذا، صدِّق أو لا تصدِّق، لم أضاجع إلا امرأة واحدة أخرى منذ أنْ تزوّجت، وهذا سجلٌ جيد جداً. لا، أنا أعني فقط فتيات للصحبة "

" نعم. ولكن في مثل هذا الوقت المتأخِّر يكُنَّ كلهّنَّ مشغولات "

" أعتقد أنَّ الوقتَ ما زال مبكراً. طبعاً أنا أعرفُ عدداً منهنّ. ربما يجب أن أتَّصل بهُنَّ "

رأى جيم أنَّ من الحكمة ألاّ يعترض.

نهضَ بوب واقفاً " فلننتقل إلى فندقي. سأجري الاتصال من هناك". دفعا ثمن ما شربا وغادرا الحانة. راقبتهما عيونٌ حاسدة وهما يغادران.

قَطَعَا ساحةَ تايمس. كانت ليلةً حارةً راكدة الهواء، والأضواء تومضُ، والناسُ في كل مكان، والمزاجُ السائدُ مُتهلِّل بمناسبة انتهاء الحرب. كان فندق بوب يقعُ في شارعٍ جانبيّ. توجّها مباشرةً إلى غرفته. حالما أصبحَ جيم في الداخل غَمَرَه واقعُ بوب الجَسَدي. كانت الملابس منتثرةً في أرجاء الأرضيّة، ومنشفةٌ مُبلّلةٌ معلّقةٌ من باب الحمّام، والسرير كان كتلةً متشابكةً من الملاءات، وكانت رائحة بوب الخاصة تطغى على العَبَق المزعج لمُبيد الجراثيم والغبار، وكان جيم يعي وجودها المُثير جنسياً.

قال بوب آلياً " إنها حالةٌ من الفوضى. إنني لستُ مُرتَّباً. سالي دائماً تغضب من طريقتي في رمي الأشياء "، وتوجَّه نحو الهاتف وأجرى

عدّة اتصالات. ولا واحدة كانت في بيتها. أخيراً أعادَ سماعة الهاتف إلى مكانها ورسمَ ابتسامةً عريضة. " أعتقد أنه كُتبَ عليّ أنْ أكونَ عاقلاً هذه الليلة. هيا نسكر. قد نستطيع أن نسكر كما كنا نفعل سابقاً". أخرجَ زجاجةً من حقيبته وملأ كأسين. " هكذا سنفعل "، وشربَ نصيبه بجرعةٍ واحدة. اكتفى جيم بتذوُّق الويسكي. كان عليه أن يبقى واعياً.

بينما هما جالسان يشربان على ضوءِ لمبةٍ كهربائيةٍ واحدةٍ غير مُظلَّلٍ وقاسٍ، أصبحَ جوُّ الغرفة خانقاً من حرّ الصيف. خَلعا قميصيهما. كان جسم بوب ما يزالُ عضليّاً وقوياً، والبشرةُ ملساءَ وبيضاء، وليسَ مُنمَّشةً، خلافاً لأغلب ذوي الشعر الأحمر.

وبدأ الحوار الثنائي بنعومة بالغة.

سألَ جيم " أتذكُر كوخ العبيد العتيق؟ "

" عند ضفة النهر؟ طبعاً "

" أمضينا وقتاً ممتعاً هناك "

" أذكُر أنه كانت هناك بركة أيضاً، أليس كذلك؟ حيث سبحنا؟ "

هزَّ جيم رأسه إيجاباً. " أتذكُر آخر مرة كنا فيها هناك؟ "

" لا، لا أظنني أذكر "

أيمكنُ أن يكون قد نسي؟ مستحيل. " حتماً تتذكَّر. في عطلة نهاية الأسبوع قبل أن ترحل إلى الشمال. قُبيل تخرُّجك "

هزَّ بوب رأسه إيجاباً. " نعم، بدأتْ أتذكَّر "، ثم عَبَسَ " وقد... وقد عبثنا مدةً طويلة، الم نفعل؟ "

نعم، لقد تذكَّر. الآن سيحدث الأمر. " نعم. كان شيئاً ممتعاً، أليس كذلك؟ "

قهقه بوب. " أعتقد أنَّ الفتية دائماً يفعلون مثل هذه الأشياء. ومع أنه كان أمراً ممتعاً، إلا أني لم أفعله إلا في تلك المرة "

" ولا أنا "

" لذا أعتقدُ أننا كنا اثنين من الشاذين الصِغار في أعماقنا " ورسمَ بوب ابتسامةً واسعة.

"ألمْ يحدث... يعني، أنكَ فعلتَ ذلك مرةً أخرى، مع شخصٍ آخر؟"

" مع أي شابٍ آخر؟ يا إلهي، كلا. أفعَلتَ أنت؟ "

" كلا "

" فلنشرب كأساً أخرى "

سرعان ما سكرا وقالَ بوب أنه يشعر بالنعاس. وقالَ جيم إنه هو أيضاً كذلك، وأنه يجدرُ به أن يعود إلى المنزل، لكنَّ بوب أصرَّ على أن يقضي الليلَ معه. رميا ملابسهما على الأرض، ولم يعودا يرتديان غير السروالَين القصيرين، وانطرحا على السرير المشوش. تمدَّدَ بوب على ظهره وذراعه موضوعة على وجهه، دون وعي منه كما بدا. وأخذَ جو يحدِّق إليه : أكان حقاً نائماً؟ وضعَ جيم يده، بجراءة، على صدر بوب. كانت البشرة ملساء كما تذكَّرها. ولمسَ لمساً خفيفاً الشعرَ النحاسيَ الأشعث الذي نما تحتَ السرَّة الغائرة. ثم، وبحرصٍ، مثلَ طبيبٍ جرّاحٍ يُجري عمليةً جراحيةً دقيقة، حلَّ أزرارَ السروال القصير. تململَ بوب، لكنه لم يفقْ، حين فَتَحَ جيم واسعاً البنطال القصير ليكشفَ عن شعر العانة الأشقر

الكثيف الذي تنمو منه الطريدة الشاحبة. أطبقَتْ يده ببطء على عضو بوب. ظلَّ ممسكاً به ما بدا فترةً طويلة. أمسكَ به إلى أن رفع بصره ووجدَ أنَّ الآخر كان يقظاً ويراقبه. توقَّفَ قلب جيم عن الخفقان مدة خفقةٍ واحدة.

جاء الصوت قاسياً " ما هذه المنيَكة التي تفعلها ؟ ". لم يقوَ جيم على النطق. كان جلياً أنَّ العالمَ مشرفٌ على نهايته. ظلَّتْ يده متجمّدة حيث كانت. دفعَهُ بوب بعيداً. لكنه لم يستطع أن يتحرَّك.

" ابتعدْ عني، أيها الشاذ "

قرَّرَ جيم أنَّ هذا كابوسٌ ساطع. لا يمكن لأيٍ من هذا أن يحدث. ولكن حين صَفَعَه بوب بقوة على وجهه، أعادَ إليه الألمُ الذاكرة. تراجعَ جيم. قفزَ بوب واقفاً على قدميه، يترنَّحُ من السُكر، ويعبث بالأزرار. "والآن اغرب عن وجهي "

لَمسَ جيم وجهه في مكانِ الصفعة. كان رأسه ما يزالُ يضجُّ من عنف الضربة. أكانَ ينزف؟

" اخرجْ، ألم تسمعني؟ ". تحرَّكَ بوب باتجاهه، مُهدِّداً، وقبضةُ يده في حالةِ استعداد. وفجأةً، ارتمى جيم على بوب، وقد اجتاحه الحنق والرغبة معاً. تماسكا. وقعا على السرير. كان بوب قوياً لكنَّ جيم كان أقوى منه. نَخَرا ولَهَثا، وتلوّيا وتقلَّبا، وتضاربا بالأذرع وبالسيقان، لكنَّ بوب لم يكن كفئاً لجيم، وفي النهاية، انطَرَحَ ووجهه على السرير، وذراعه ملويٌ خلفه، وهو يتصبَّبُ عرَقاً وينئن. ألقى جيم نظرةً إلى الجسد العاجز، مع رغبةٍ في ارتكابِ جريمةِ قتل. لوى الذراع التي يُمسكُ بها

عن عمد. صرخَ بوب. فَرِحَ جيم لتألُّم الآخر. ماذا يفعل؟ تجهَّمَ جيم. لقد جعلَ الشربُ التركيزَ مسألةً صعبة. نظرَ إلى الجسد الذي يجيشُ من تحته، وإلى الظهر العريض، والسروالُ القصيرُ الممزَّق، والساقين الطويلتين العضليتين. ثمة إذلالٌ واحدٌ أخير : بيده الحُرَّة أنزلَ جيم السروال القصير، كاشفاً عن الردفين الأمردين، القاسيين، الأبيضَين. همسَ بوب " يا إلهي، لا تفعل. لا تفعل "

بعد أن انتهى، انطرَحَ جيم على الجسد الساكن، وهو يتنفَّسُ بعنف، ومُستنزف من المشاعر، مدركٌ أنَّ الأمرَ قد تمّ، وأُغلِقَتْ الدائرة، واكتملَتْ.

أخيراً انتصَبَ جيم في جلسته. لم يُحرِكَ بوب ساكناً، ظلَّ مُنبطحاً على وجهه، يشدُّ الوسادةَ إلى وجهه بينما أخذَ جيم يرتدي ملابسه. ثم مشى جيم إلى نهاية السرير وألقى نظرةً إلى الجسد الذي عشقه بكل قِواه على مدى سنين عديدة. هل انتهى كل شيء؟ وَضَعَ يده على كتف بوب المُبلَّل بالعرق. أشاحَ بوب بوجهه عنه خجلاً : أهو الخوف؟ أم الشعور بالاشمئزاز؟ لم يعُد يهمّ الآن. لمسَ جيم الوسادة. كانت مُبلّلة. أهي الدموع؟ عظيم. ودون أن ينطق توجَّه جيم إلى الباب وفتحه. ألقى نظرةً أخيرةً خلفه إلى بوب، ثم أطفأ النور وأغلقَ الباب وراءه. غادر الفندق، غير آبهٍ إلى أين يتوجَّه. بقيَ يمشي مدةً طويلة بلا هدف، إلى أنْ وصلَ أخيراً إلى إحدى الحانات العديدة التي يفتّش فيها الرجالُ عن رجال. ولَجَها، واستعدَّ للشرب إلى أنْ ينتهي الحلم تماماً.

الفصل الحادي عشر

كان الوقتُ متأخراً، متأخراً جداً. كان قد بدأ ينسى من جديد. لم يتذكَّر ما حدث له إلا بعد أن بذلَ جهداً جباراً. الآن لم يشعُرْ بالحزن. لا شيء. لقد انتهى أمر بوب وتلك هي نهاية الأمر برُمَّته.

نادى على الساقي، فاقتربَ الرجلُ منه. " كأساً أخرى؟ "

هزَّ جيم رأسه موافقاً. شعرَ برأسه ثقيلاً بصورةٍ غريبة. إذا هزَّ رأسه بشدَّة فقد يسقط. " واحدة أخرى "

ثم اقتربَ منه رجلٌ ضئيل ذو شاربٍ أسود وعينين سريعتَيّ الحركة. " أتسمح لي بالجلوس؟ هل لي أنْ أقدِّم لك مشروباً؟ "

" إذا شئت "

" الطقسُ حارٌ جداً، أليسَ كذلك؟ أنا من ديترويت. من أين أنت؟ "

" نسيت "

" أوه، آسف إنْ كنتُ أتدخَّل. لم أقصد أن أكونَ متطفِّلاً "

" لا بأس ". كان جيم سعيداً لأنه وَجَدَ مَنْ يجلس قبالته. شخصٌ يحبُّ أن يتكلَّم. رنين الكلمات يُشيعُ السكينة في النفس إذا لم يسعَ المرءُ إلى بلوغِ معناها.

" أليستْ هذه المدينة كبيرة؟ إنني موجودٌ هنا منذ ما يقاربُ الأسبوعين ولا أزالُ أشعرُ بأني لم أشاهد شيئاً من معالمها. إنها أكبر من ديترويت ويبدو أنه يوجد كل شيء هنا. لم أرَ في حياتي كل هذا الكمّ من " كل شيء ". هل تعمل هنا، إذا لم يكن سؤالي شخصياً جداً؟ "

" نعم ". تساءلَ جيم متى سيحضر النادل المشروب. لن يتمكّن من إقامةِ أي اتِّصالٍ مع الواقع أو حتى مع اللا واقع إلاّ بعد أن يشرب كأساً أخرى. وفجأةً وجدَ كأساً موضوعة أمامه. جرعَ جيم منها جرعة : باردة، حارّة، باردة، حارّة. هكذا يجب أن يكون الأمر. نظرَ إلى الرجل الضئيل كان جالساً ينظرُ إليه. تساءلَ إنْ كان قد سمعَ السؤال ونسيه أم أنه لم يسمعه أصلاً. " أقلتَ شيئاً؟ "

" فقط سألتُ إنْ كنتَ تقطنُ في هذه المدينة "

" نعم ". والآن السؤال التالي. درَسَ السؤال والجواب لا يتغيَّر.

" هل تعيش مع عائلتك؟ "

" لا "

" إذن فأنتَ لستَ متزوجاً؟ "

" لا ". قرَّرَ جيم أن يمارسَ اللعبة لبعض الوقت. سيدعه يستمر ومن ثم يتظاهر بالغضب ويبث الخوفَ فيه. سيكونُ ذلك مسلّياً.

" ولا أنا. في الواقع أنا دائماً أقولُ من الأرخص أن تشتري الحليب على أن تحتفظَ ببقرة ". سكتَ وكأنه يتوقَّع إما الضحك أو الموافقة. لم يحصل على أي منهما. " أراهنُ على أنَّ لديهم بعضَ الفتيات الجميلات هنا ". غمَزَ الرجلُ الضئيل لجيم. " أراهنُ على أن لديكَ فتاةً هنا "

قدَّمَ جيم له أملاً " ليست لديَ فتاة "

" هذا غريب، بالنسبة إلى شابٍ مثلك. أكنتَ في الجيش؟ "

قالَ جيم " نعم "، وتناولَ جرعةً أخرى. كل شيء ممتعٌ ودافئ داخل معدته. لكنه شعرَ شعوراً غريباً في ركبتيه، كأنهما مفصولتان. ثم وضَعَ الرجلُ الضئيلُ قَدَمَه بجوار قدمه، فَعَمَدَ جيم إلى رفعِ قدمه، وبعد مرورِ دقيقة طويلة من التفكير، أنزلها بقوة على قَدَم الرجل الضئيل.

" أوتش! "

" آسف ". كان جيم سعيداً لأنه سبَّبَ الألم.

" لا شك في أنكَ أسرَفتَ في الشرب "

" كيفَ عرفت؟ "

" أقصد... يعني، تبدو أنكَ أكثَرتَ من الشرب ". سكَتَ الضئيل وهو مضطرب. قال " بالمناسبة، لديَّ زجاجةٌ من الويسكي الحقيقي في غرفتي في الفندق. إذا أردتَ أن... "

" أحبَّ هذا المكان "

"رأيتُ أنكَ ربما قد تحبَّ أن تأتي معي لبعض الوقت، هذا كل شيء. يمكننا أن نتبادلَ حديثاً ودّياً وهو حتماً مكانٌ أجمل من هذا المكان "

حملَقَ جيم بغضبٍ فيه. " أتراكَ تعتقد أني سلعة؟ أتراكَ تظنُّ أني سأصحبُ منيَك حقير مثلك؟ أم أنكَ تريد أن تدفعني إلى السُكر في حال كنتُ سوياً، ومن ثم تخرقني؟ "

نهَضَ رفيقَه الضئيل واقفاً. " الآن أرى بحقّ أنكَ قد تجاوزتَ الحدود كثيراً. لو لم تكن ثملاً لما تفوَّهتَ بمثل تلك الألفاظ بحقي. إنَّ تلك

الفكرة لم تخطر على بالي أبداً. عن إذنك... ". ابتعدَ الرجلُ وأخذَ جيم يحدِّقُ ويضحك. ضحكَ بصوتٍ عالٍ بضع دقائق ومن ثم كفَّ، ورغِبَ في أنْ يبكي أو يجهشَ أو يصرخ. لكنَّ الساقي وَضَعَ حداً لذلك. اقترَبَ منه وقال له إنَّ الحانة تغلقُ أبوابها وأنه حانَ وقت الرحيل.

مشى جيم، مترنحاً، خارجاً إلى الهواء الرطب للصباح الباكر. كان الظلامُ حالكاً. لا وجودَ لأي نجم؛ لا قمر؛ فقط مصابيح الشارع تشعُّ في الظلام.

حينئذٍ صحا.

أصبحَتْ حواف الأبنية حادَّةً وواضحة. عرِفَ بالضبط أينَ هو ومَنْ يكون ولم يتبقَّ أمامه إلا أنْ يتابعَ السير، وكأنَّ شيئاً لم يحدث. ولكن حتى بعد أن أخذَ على نفسه هذا العهد، تذكَّرَ ضياء النار وسمِعَ مرةً أخرى هديرَ مياه النهر. لا رؤيا تنتهي إلا بشيءٍ حيويّ وجديد، ولم يكن هناك أي شيءٍ جديد. العشيق والأخ ذهبا، وحلَّتْ محلّهما ذكرى لحمٍ مرضوض، وملاءات مُشوَّشة، وعنف. فكَّرَ في الهرب، وهو مرعوب. سوف يعودُ إلى البحر؛ سيغيِّر اسمه، وذكرياته، وحياته. اتَّجه غرباً نحو الواجهة المائيّة حيثُ ترسو السفن الكبرى. نعم، سوفَ يُبحِر من جديد ويسافر إلى بلاد غريبة ويقابلُ أناساً جُدداً؛ سوف يبدأ من جديد.

ثم فجأةً وَجَدَ نفسه على متن سفينة، وسفنٌ صامتةٌ تكتنفه من كل جانب. الهواء بارد. اقتربَ الصباح. كانت المياه عند قدميه ترتفعُ وتنخفضُ ببطء، برفق، كتنفُّس وحشٍ هائل. مرةً أخرى وَقَفَ بجوار النهر، وقد أدرَكَ أخيراً أنَّ هَدَفَ الأنهار هو أن تصبَّ في البحر. لا شيءَ

مما كان يتغيَّر. ومع ذلك لا شيءَ مما هو موجود يمكنُ أن يبقى كما كان من قبل. أخذَ يراقبُ، مفتوناً، المياهَ تقذفُ الظلامَ والبردْ إلى الجزيرة الحجرية. قريباً سيُتابعُ طريقه.

- النهايـة -

الهوامش

١ – أوليفر ويندال هولمز (١٨٠٩ – ١٨٩٤) : بروفسور في علم التشريح والأحياء ، وروائي وشاعر .

٢ – جيمس إنغرام ميريل (١٩٢٦ – ١٩٩٥) : شاعر أميركي كان موضوعه المفضَّل هو الذاكرة الأيام والأصدقاء الغابرين . كان مؤلّفه المفضَّل ، طبعاً ، مارسيل بروست .

٣ – ويستان أودن هو نفسه الشاعر الأميركي ، الإنكليزي المولد هـ . د أودن .

٤ – لوح وي- يا : لوح صُمِّمَ من أجل طرح أسئلة لكي تُجيب عنها أرواح أشخاص توفوا . بعض الناس يأخذونه على محمل الجد ويلجؤون إليه ضمن جلساتٍ جماعية خاصة لطرح أسئلة على أرواح الموتى .

٥ – بيوشا : منطقةٌ في اليونان القديمة ، تقعُ إلى الشمال الغربي من مدينة أثينا . عاصمتها طيبة . ويُعرَفُ عن أهلها الغباء والبلادة . – المترجم

٦ – فيليكس كرول : كان توماس مان قد أصدرَ في عام ١٩١١ قصةً قصيرةً بعنوان " فيليكس كرول " ، لكنه في أواخر حياته أعادَ كتابتها وحوَّلها إلى رواية ضخمة تحمل العنوانَ نفسه . – المترجم

٧ – جين هارلو (١٩١١ – ١٩٣٧) : ممثلة أميركية سطع نجمها في ثلاثينات القرن الماضي وكان ينتظرها مستقبل باهر لولا وفاتها المبكرة .

٨ – نداء النفج : صِفاتٌ في السلعة التجارية تروقُ للنفّاجين من الناس وتُغريهم في الشراء .

٩ – توماس وولف (١٩٠٠ – ١٩٣٨) : روائي أميركي عُرِفَ برواياته الذاتية . له " انظر جهة المنزل ، يا ملاكي " . – المترجم

١٠ – مراحل الصَلب : هي مجموعة من ١٤ صورة تمثِّلُ مراحل صلب المسيح . – المترجم .

١١ – إيزولد : في الأساطير الشمالية ، هي أميرةٌ أيرلندية تزوَّجها ملك كورنوال ، مارك ، لكنَّها وقعَتْ في حب الفارس تريستان .

١٢ – فاني هيرست (١٨٨٩ – ١٩٦٨) : روائية وكاتبة قصة قصيرة أميركية .

١٣ - بوتوماك : نهر في شرق وسط الولايات المتحدة .

١٤ - المَدْرَع : حيوانٌ ثديي لرأسِهِ وجسمه درعٌ من الصفائح العظميّة يستطيع أن ينكمش حين يُهاجمه أحد .

١٥ - الأب المقدس : أي بابا الفاتيكان .

١٦ - جون ريتشارد هيرسي (١٩١٤ - ١٩٩٣) : صحافي وروائي ومربي أميركي .

١٧ - الفيدانتا : في الهندوسية . مذهبٌ قائمٌ على أساس كُتُب الهندوس الأربعة أو أحدها .

١٨ - ثيدا بارا (١٨٩٠ ؟ - ١٩٥٥) : ممثلةٌ سينمائية أميركية من عهد السينما الصامتة . ظهرَتْ في أفلام شهيرة . منها " كليوباترا " (١٩١٧) و " سالومه " (١٩١٨) .

١٩ - كلارك غيبل (١٩٠١ - ١٩٦٠) : نجم السينما الهوليودية . أشهر أدواره " ذهبَ مع الريح " .

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

صدرت رواية "المدينة والعمود" عام ١٩٤٨ وأثارت ضجة، ثم صودرت، وكتب عنها الناشر يقول: هناك فقرات في المدينة والعمود.. بدت للباعة الجوالين والطابعين متمادية في الصراحة، وقد تشاجرت مع غور ودياً لكي يخفف من حدة تلك الفقرات، ويقتطع منها..

ISBN:2-84305-797-X
9 782843 057977